سيدنا محمد رسول الله
صلى الله عليه وآله وسلم
شمائله الحميدة. خصاله المجيدة

بقلم
الامام والمفسر المحدث الشيخ
عبد الله سراج الدين الحسيني
رضي الله عنه

أيها القارئ الكريم :

اقرأ سورة الفاتحة كلما قرأت في كتاب من كتبي ، وأهدِ ثوابها إلى العلامة الشهير ، والعارف الكبير ، حامل لواء الحجة بالكتاب والسنة ، المفسر والمحدث بالأسانيد المتصلة ، عن كبار المحدثين . في حلب ودمشق والمغرب وغيرها من البلاد الإسلامية . بإجازات عالية الأسانيد . محفوظة عندي . سيدي وشيخي والدي الكريم ، **الشيخ محمد نجيب سراج الدين الحسيني** رحمه الله تعالى ، وجزاه عن المسلمين خيراً ، إنه هو السميع العليم .

آمين

بسم الله الرحمن الرحيم

سيدنا

محمد رسول الله

صلى الله عليه وآله وسلم

شمائله الحميدة، خصاله المجيدة

بقلم

الإمام المفسر المحدث الشيخ

عبد الله سراج الدين الحسيني

رضي الله عنه

مكتبة دار الفلاح

حلب - أقيول

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م

مؤسسة
الشام للطباعة والتجليد
دمشق ـ هاتف : ٢٢٢٤٥٢٢ ـ ٢٢٤٩١٤٣ ص.ب ٢٥١٨٩
E-mail: oakkad@mail.sy

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم ، على سيدنا محمد ، إمام الأنبياء والمرسلين ، وعلى آله وصحبه والتابعين أجمعين .

وبعد ؛ فقد جمعت في هذا الكتاب فصولاً موجزةً تُعبر عن بعض الشمائل المحمدية ، عليه أفضل الصلاة والسلام ، وتحكي بعض جوانب أخلاقه العليَّة ، وسيرته السنيّة ، لعلها تذكر العاقل ، وتنبّه الغافل ، وتعلم الجاهل .

وإنه ليتحتم الأمر على كل عاقل مكلف أن يتعرف إلى أوصاف هذا الرسول العظيم والنبي الكريم ، ليسير بنور سيرته ، وليتأسى بكمال أخلاقه ﷺ .

وإذا كانت العقلاء تطمح إلى معرفة عظماء العالم وكبرائه ؛ فإن أحق ما يجب أن تطمح إليه وتطمع فيه هو التعرف إلى سيد السادات ، وفخر الكائنات ، الذي رفعه الله تعالى أعلى الدرجات ، ورقّاه فوق جميع أهل المراتب والمقامات ﷺ .

وإن أحداً من الناس مهما علا فضله ، واتسع علمه ، وكمل عقله ، لا يستطيع أن يحيط بمحاسن هذا النبي الكريم ، ولا أن يستقصي أنواع كماله ، وألوان جماله ﷺ ، بل كلُّهم عاجز عن التعبير عن تلك المعاني المحمدية ، والصفات المصطفوية :

وإنَّ قميصاً خِيطَ من نسج تسعةٍ
وعشرين حرفاً عن معانيه قاصرُ

* * * *

المقدمة في وجوب التعرف إلى جناب رسول الله ﷺ ووجوب الاطلاع على شمائله الشريفة وسجاياه اللطيفة

قال الله تعالى : ﴿ واعلموا أنَّ فيكم رسول الله . . . . ﴾ الآية .

وقال تعالى : ﴿ أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون . . ﴾ ؟! .

إن حقاً على جميع العقلاء المكلفين أن يتعرفوا إلى هذا الرسول الكريم وشمائله الحميدة وخصائله المجيدة ، وذلك لوجوده متعددة :

الوجه الأول : أن الله تعالى أمر العباد أن يؤمنوا بهذا الرسول الكريم ﷺ فقال : ﴿ آمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا والله بما تعملون خبير ﴾ .

والإيمان به ﷺ يتطلب من العباد أن يعرفوا فضل هذا النبي الكريم ، ورفعة مستواه على غيره ، وما أسبغ الله تعالى عليه من الكمالات النفسية ، وما أدَّبه من الآداب الكريمة الرضية ، وما وهبه من الخُلُق العظيم والخَلْق الحسن الكريم ، وما أبدع فيه سبحانه من المحاسن ، وجمع فيه مجامع الكمالات ، فجعل جوهره الكريم عالياً على سائر الأفراد والأجناس ، بحيث لا ينقاس بغيره من الناس .

وكيف يقاس بغيره ؟ وقد ميّزه الله تعالى بمميِّزات الكمال ، وخصَّه

بأكرم الخصال ، وأعلاه ذروة الخُلُقِ العظيم ، وجمله في أحسن صورة وأبدع تقويم ، وخصه سبحانه بأنواع الاختصاص : فرباه بعنايته ، ورعاه برعايته ، فقال سبحانه : ﴿ ألم يجدك يتيماً فآوى ، ووجدك ضالاً فهدى ، ووجدك عائلاً فأغنى ﴾ .

وتولى سبحانه إقراءه وتعليمه ، في حين أنه ﷺ نشأ أُمِّيًّا ، فقال له سبحانه : ﴿ إقرأ باسم ربك ﴾ أي : لا بدراستك ولا بثقافتك ، وقال : ﴿ سنقرئك فلا تنسى ﴾ وقال : ﴿ وعلمك ما لم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيما ﴾ .

وإن مقام ﴿ يوحى إليَّ ﴾ المذكور في قوله تعالى : ﴿ قل : إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليَّ ﴾ ـ يلفت الأنظار إلى موضع الاعتبار ، في شأن هذا الرسول المختار ، ويشير إلى خصائص هذا النبي الكريم ، الذي هيَّأه الله تعالى وأهَّله ، وأعدَّه وأمدَّه في روحه وجسمه ، وعقله وفهمه ، وسمعه وبصره ، وسائر مداركه وجوارحه ، وجوانحه ، وأعطاه قابلية الاختصاص لأن يتلقى الوحي بجميع طرق الوحي من رب العالمين .

ومن ثَمَّ لما واصل ﷺ الصيام ، واصل بعض أصحابه معه ، فنهاهم عن الوصال ، فقالوا : (نراك تواصل يا رسول الله) ؟ فقال : « إني لست مثلَكم ـ وفي رواية : إني لست كهيئتكم ـ أبيت يطعمني ربي ويسقيني » كما جاء في الصحيحين .

فهو ﷺ بشر لا كالبشر ، كما أن الياقوت حجر لا كالحجر .

الوجه الثاني : أن الله تعالى أمر العباد باتباع النبي ﷺ فقال تعالى :

﴿ قل : إن كنتم تحبُّون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم ﴾ فجعل سبحانه الدليل الصادق على محبته هو اتباع النبي ﷺ ، وقال تعالى : ﴿ واتبعوه لعلكم تهتدون ﴾ أي : إلى ما فيه سعادتكم في الدنيا والآخرة .

وهذا يتطلَّب البحث عن أعماله ﷺ ، وعن أقواله وأحواله ، ويتطلَّب التعرّف إلى سجاياه الكريمة وأخلاقه العظيمة ، ليُتأسَّى به ، وليُتَّبَعَ في ذلك اتباعاً كاملاً شاملاً ، إلاَّ فيما خصَّه الله تعالى به من الأحكام والأحوال .

ومن ثَمَّ كان أصحاب النبي ﷺ يحرصون كل الحرص على تتبُّع أفعاله وأقواله ، وأحواله وآدابه وأخلاقه ، ليتبعوه في ذلك ، بل كانوا يحرصون كل الحرص على تتبُّع عاداته ﷺ ، لأنَّ عادات السادات هي سادات العادات ، فكيف بعادات سيد السادات عليه أفضل الصلوات والتسليمات ؟! .

قال العلامة السنوسي رحمه الله تعالى في شرح مقدمته : وقد عُلم من دين الصحابة رضي الله عنهم أجمعين ضرورة اتباعه ﷺ من غير توقُّفٍ ولا نظر في جميع أقواله وأفعاله ، إلا ما قام عليه دليل اختصاصه به ﷺ ، فقد خلعوا نعالهم لما خلع ﷺ نعله ، ونزعوا خواتيمهم الذهبية لما نزع ﷺ خاتم الذهب ، وحسر أبو بكر وعمر في قصة جلوسهما على البئر كما فعل عليه السلام ، وكاد يقتل بعضهم بعضاً من شدة الازدحام على الحلاق عندما رأوا النبي ﷺ يحلق رأسه الشريف ؛ وحَلَّ من عمرته في قضية الحديبية ـ وكان الصحابة يبحثون البحث العظيم عن هيئات

جلوسه ﷺ ونومه ، وكيفية أكله وشربه ، وغير ذلك ليقتدوا به . اهـ .

بل كانوا يحبون ما يحبه ﷺ من الطعام[1] ويكرهون ما يكره[2] .

وقد ذكرنا في كتابنا هذا جانباً من جوانب أخلاقه ﷺ وآدابه وأعماله وأقواله ؛ وأذكاره وعباداته ؛ ليقتدى به في ذلك ﷺ .

الوجه الثالث : أن الله تعالى أوجب على المؤمنين أي يحبوا النبي ﷺ فوق محبة الآباء والأبناء ، والأزواج والعشيرة ، والتجارة والأموال ، وأوعد من تخلف عن تحقيق ذلك بالعقاب ، فقال سبحانه : ﴿ قل : إنْ كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموالٌ اقترفتموها وتجارة تخشَوْنَ كسادها ومساكنُ ترضَوْنها أَحَبَّ إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربَّصوا حتى يأتيَ الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ .

ولا ريب أن أسباب المحبة ترجع إلى أنواع الجمال والكمال والنوال ، كما قرره الإمام الغزالي رضي الله عنه وغيره .

---

(١) كما روى الترمذي عن أنس رضي الله عنه أن خياطاً دعا رسول الله ﷺ لطعام صنعه ، قال أنس : فذهبت مع رسول الله ﷺ إلى ذلك الطعام ، فقرب إلى رسول الله ﷺ خُبزاً من شعير ومَرَقاً فيه دباء ـ أي : قرع ـ فرأيت النبي ﷺ يتتبع الدباء فلم أزل أحبه من يومئذ .

(٢) كما ورد في صحيح مسلم عن أبي أيوب رضي الله عنه لما صنع طعاماً للنبي ﷺ وفيه ثوم ، فقيل لأبي أيوب : لم يأكل منه النبي ﷺ ، فقال : أحرام هو؟ فقال النبي ﷺ : « لا ، ولكني أكرهه » قال أبو أيوب : فإني أكره ما تكره . . . الحديث .

فإذا كان الرجلُ يُحَبُّ لكرمه ، أو لشجاعته ، أو لحلمه ، أو لعلمه ، أو لتواضعه ، أو لتعَبُّدِهِ وتقواه ، أو لزهده وورعه ، أو لكمال عقله ، أو وفور فهمه ، أو جمال أدبه ، أو حسن خلقه ، أو فصاحة لسانه ، أو حسن معاشرته ، أو كثرة برّه وخيره ، أو لشفقته ورحمته ، أو نحو ذلك من صفات الكمال . . . فكيف إذا تأصَّلَتْ واجتمعت هذه الصفات الكاملة وغيرها من صفات الكمال ، في رجل واحد ، وتحقَّقتْ فيه أوصاف الكمال ومحاسن الجمال على أكمل وجوهها ، ألا وهو السيد الأكرم سيدنا محمد ﷺ ، الذي هو مجمع صفات الكمال ومحاسن الخصال ، قد أبدع الله تعالى صورته العظيمة ، وهيئته الكريمة ، وطوى فيه أنواع الحسن والبهاء ، بحيث يقول كل من نعته : لم يُرَ قبله ولا بعده مثله .

ولذلك كان من الواجب على المكلف أن يتعرف إلى جمال هذا الرسول الكريم ﷺ ، ومحاسنه الخلقية ، وكمالاته النفسية والروحية ، والقلبية والعقلية والعلمية ، وذلك لينال مقام محبته الصادقة ، لأنَّ المعرفة هي سبب المحبة ، فكلما زادت المعرفة بمحاسن المحبوب ، زادت المحبة له .

قال سيدنا الحسن بن علي رضي الله عنهما : سألت خالي هند بن أبي هالة ـ وكان وصّافاً ـ عن حِلْية النبي ﷺ وأنا أشتهي أن يصف لي منها شيئاً أتعلق به ، فقال : « كان رسول الله ﷺ فخماً مفخماً ، يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر . . . » الحديث كما سيأتي .

الوجه الرابع : أن اطلاع الإنسان على أوصافه ﷺ العظيمة وشمائله الكريمة ـ ليُعطي صورةً علميةً تنطبع في القلب ، وترتسم في المخيلة ،

كأنه قد رأى محبوبه ﷺ .

فقد كان ﷺ يذكر لأصحابه أوصاف الرسل قبله ويقرّب إليهم ذلك بأشباههم ، حتى إنهم يصيرون بحالٍ كأنهم قد رأوهم ، وذلك أقرب سبيل للتعرف بهم ، وأقرب طريق للتحبب فيهم .

جاء في الصحيحين وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ : « ليلة أسري بي لقيتُ موسى ـ قال الراوي : فنعته النبي ﷺ ـ أي : وَصَفَه ـ رَجِل الرأس ، كأنه من رجال شنوءة ، قال : ولقيتُ عيسى ـ فنعته ﷺ فقال : ـ رَبْعَةً أحمرَ ، كأنما خرج من ديماس ـ يعني : الحمام ـ ورأيت إبراهيم وأنا أشبه ولده به . . » الحديث .

الوجه الخامس : أن في ذكر شمائله ﷺ وسماع أوصافه ونعوته ، تحيا قلوب المحبين ، وتطرب أرواحهم وعقولهم ، ويزداد حبهم ، ويتحرك اشتياقهم .

قال العارف الكبير الشيخ أبو مدين رضي الله عنه :

ونحيا بذكراكمْ إذا لم نراكُمُ
ألا إن تَذكار الأحبة ينعشنا
فلولا معانيكم تراها قلوبنا
إذا نحن أيقاظ وفي النوم إن غبنا
لمتنا أسىً من بُعدكم وصبابةً
ولكنّ في المعنى معانيكمُ معنا

يحرّكنا ذكر الأحاديث عنكمُ
ولولا هواكم في الحشا ما تحرّكنا

ويرحم الله القائل :

أخلايَ إن شطَّ الحبيب ورَبْعه
وعزَّ تلاقيه وناءتْ منازلهْ
وفاتكمُ أن تنظروه بعينكم
فما فاتكم بالسمع هذي شمائله
صلى الله عليه وسلم

حول محاسن صورته الشريفة ﷺ

اعلم ـ علمنا الله تعالى وإياك ـ أن الله تعالى خلق سيدنا محمداً ﷺ في أجمل صورة بشرية ، وأكمل خلقة آدمية ، فهو ﷺ مجمع المحاسن المبدَعات ، والفضائل والكمالات الخَلْقيَّة والخُلُقيَّة ، وقد أجمعت كلمة الذين رأوه ووصفوه على أنه ﷺ لم يُرَ له مثيل سابق ولا نظير لاحق .

قال البراء بن عازب رضي الله عنه : (كان النبي ﷺ أحسن الناس وجهاً ، وأحسنهم خُلُقاً ، ليس بالطويل البائن ولا بالقصير) متفق عليه .

وعنه رضي الله عنه أنه قال : (كان النبي ﷺ مربوعاً ، بعيد ما بين المنكبين ، له شعر يبلغ شحمة أذنيه ، رأيته في حُلةٍ حمراء ، لم أر شيئاً قطُّ أحسنَ منه ﷺ) رواه مسلم .

وعن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه أنه قال : (كان رسول الله ﷺ

ليس بالقصير ولا بالطويل ، ضخم الرأس ، شثْن الكفين والقدمين ، مُشْرَباً وجهه بحمرة ، طويلَ المسربُة ، إذا مشى تكفأ كأنما يقلع من صخر ، لم أر قبله ولا بعده مثله) رواه الإمام أحمد .

وعن علي رضي الله عنه أنه كان إذا وصف رسول الله ﷺ قال : (لم يكن رسول الله ﷺ بالطويل الممغَّط ، ولا بالقصير المتردّد ، وكان ربْعة من القوم ، ولم يكن بالجَعْد القَطَط ، ولا بالسبْط ، كان جعْداً رَجِلاً ، ولم يكن بالمطهم ولا بالمُكَلْثم ، وكان في وجهه تدوير ، أبيضُ[1] ، مُشْرب بحمرة ، أدعج العينين ، أهدب الأشفار ، جليلُ المشاش والكَتَد ، أجردُ ، ذو مَسْربُةٍ ، شثن الكفين والقدمين ، إذا مشى تقلعَ كأنما ينحطُّ من صَبَبٍ ، وإذا التفتَ التفتَ معاً ، بين كتفيه خاتَم النبوَّة وهو خاتم النبيين ، أجودُ الناس صدراً ، وأصدقُ الناس لهجةً ، وألينهم عريكةً ، وأكرمهم عِشْرَةً ، من رآه بديهةً هابه ، ومن خالطه معرفةً أحبه ، يقول ناعته : لم أرَ قبلَه ولا بعدَه مثلَه)[2] .

(١) وأما ما ورد في بعض الأحاديث أنه ﷺ كان أسمر ، فقد أعله الحافظ العراقي بالشذوذ ، وقال : هذه اللفظة ـ يعني أسمر ـ انفرد بها حميد عن أنس ، ورواه غيره من الرواة عن أنس بلفظ « أزهر اللون » وقد ورد وصف لونه ﷺ بالبياض عن خمسة عشر صحابياً كما نبه عليه المحققون .

(٢) قال الحافظ أبو عيسى الترمذي بعدما روى هذا الحديث : سمعت أبا جعفر محمد بن الحسين يقول : سمعت الأصمعي يقول في تفسير صفة النبي ﷺ :
الممغط : الذاهب طولا ، وقال : سمعت أعرابياً يقول في كلامه : تمغط في نشابته أي : مدها مداً شديداً ، فهو اسم مفعول من التمغيط ، كما حكاه في =

وروى البيهقي وغيره[1] أن رسول الله ﷺ ليلة هاجر من مكة إلى المدينة هو وأبو بكر وعامر بن فُهَيْرة مولى أبي بكر ، ودليلهم عبد الله بن أُريقط الليثي ، فمرُّوا بخيمة أمِّ معبدٍ عاتكة بنت خالد الخزاعية ـ وكانت أمُّ معبد امرأةً برزة[2] جلدة ـ أي : قوية ـ تحتبي وتجلس بفناء

= (جامع الأصول) عن المحدثين . وقال القسطلاني : المَمَّغِط بتشديد الميم الثانية وبكسر الغين ، اسم فاعل ، وأصله : منمغط ، فقلبت النون ميماً وأدغمت . اهـ من (شرح المواهب) باختصار ٤ : ١٩٩ .
المتردد : الداخل بعضه في بعض قصراً ، **وأما القطط** : فالشديد الجعودة .
والرجل : الذي في شعره حجونة أي : تثن قليلا .
وأما **المطهم** : فالبادن الكثير اللحم . **والمكلثم** : المدور الوجه ، **والمشرب** : الذي في بياضه حمرة ، **والأدعج** : الشديد سواد العين .
والأهدب : **الطويل الأشفار** ، أي : طويل شعر الأشفار ، لأن الأشفار هي الأجفان التي تنبت عليها الأهداب .
والكتد : مجتمع الكتفين ، وهو الكاهل . **والمسربة** : هو الشعر الدقيق الذي كأنه قضيب من الصدر إلى السرة . **والشثن** : الغليظ الأصابع من الكفين والقدمين . **والتقلع** : أن يمشي بقوة . **والصبب** : الحدور ، يقال : انحدرنا في صبوب وصبب . وقوله : **جليل المشاش** يريد رؤوس المناكب .
والعشرة : الصحبة ، والعشير : الصاحب . **والبديهة** : المفاجأة . يقال بدهته بأمر أي : فجأته به . اهـ .

(١) ورواه الحاكم وصححه وصاحب الغيلانيات وابن عبد البر وابن شاهين وابن السكن والطبراني وغيرهم . اهـ من الزرقاني على المواهب .
وقال ابن كثير : وقصة أم معبد الخزاعية مشهورة مروية من طرق يشد بعضها بعضاً اهـ . ثم أورد هذا الحديث .

(٢) عفيفة جليلة مسنة .

الخيمة فتطعم وتسقي (مَن يمر بها) فسألوها هل عندها لحم أو لبن يشترونه منها ؟ فلم يجدوا عندها شيئاً من ذلك ، وقالتْ : والله لو كان عندنا شيء ما أعوزناكم القِرى ـ أي : ما أحوجناكم بل كنا نضيفكم ـ وإن القوم مُرمِلون مُسنتون[1] .

فنظر رسول الله ﷺ فإذا شاة في كِسر ـ أي : جانب ـ خيمتها فقال : « ما هذه الشاة يا أمَّ معبد ؟ » .

فقالتْ : شاة خلّفها الجهد[2] عن الغنم .

فقال ﷺ : « فهل فيها من لبن ؟ » .

فقالت : هي أجهد ـ أي : أضعف ـ من ذلك .

فقال : « أتأذنين لي أن أحلبها » ؟

فقالت : إن كان بها حَلْب فاحلُبْها ـ وفي رواية : قالت : نعم ، بأبي أنت وأمي إن رأيت بها حلْباً فاحلُبها ـ .

فدعا رسول الله ﷺ بالشاة فمسحها ، وذكر اسم الله ومسحَ ضرعها ـ وفي رواية : ظهرها ـ وذكر اسم الله ، ودعا بإناءٍ لها يُريض الرهط ـ أي : يشبع الجماعة حتى يُريضوا[3] ـ وتفاجّت[4] ، واجترّت ـ وفي

(١) أي : أصابتهم السنة الجدباء .
(٢) أي : منعها الهزال عن لحوق الغنم للمرعى .
(٣) أي : حتى يرووا من اللبن ويثقلوا فيناموا .
(٤) أي : فتحت ما بين رجليها .

رواية : ودرّت ـ فحلب فيه ثجاً[1] حتى ملأه .

فسقى أمّ معبد وسقى أصحابه فشربوا عَلَلاً بعد نَهَل ، حتى إذا رووا شرب ﷺ آخرهم وقال : « ساقي القوم آخرهم شرباً » .

ثم حلب ﷺ فيه ثانياً عوداً على بدءٍ فغادره ـ أي : تركه ـ عندها ـ وفي رواية : قال لها ﷺ : « ارفعي هذا لأبي معبدٍ إذا جاءك » ـ ثم ارتحلوا .

فقلما لبث ـ أي : ما لبث إلا قليلاً ـ أن جاء زوجها أبو معبدٍ يسوق أعنزاً عِجافاً يتساوكن هُزلاً ، مخّهنَّ[2] قليل ، فلما رأى اللبن عجب وقال : من أين هذا اللبن يا أم معبد ولا حلوب في البيت ، والشاء عازب[3] ؟! .

فقالت : لا والله إلَّا أنه مرَّ بنا رجل مبارك ، كان من حديثه كذا وكذا ـ وفي رواية : كيت وكيت ـ

فقال : صفيه لي يا أمّ معبد .

فقالت : رأيتُ رجلاً ظاهر الوضاءة ، حسن الخَلقِ ، مليح الوجه ، لم تَعِبْه ثَجْلة[4] ، ولم تُزْرِ بِهِ صَعْلة[5] ، قسيم وسيم[6] ، في

(١) الثج : هو السيلان .
(٢) المخ : هو الودك الذي في العظم .
(٣) أي : بعيدة عن المرعى .
(٤) الثجلة : بفتح الثاء وسكون الجيم : عِظَمُ البطن .
(٥) الصعلة : بفتح الصاد وسكون العين : صغر الرأس .
(٦) صفتان تدلان على الحسن .

عينيه دَعَج [1] ، وفي أشفاره وَطَف [2] ، وفي صوته صَحَل [3] ، أحْور [4] ، أكحل [5] ، أزجُّ [6] ، أقرن [7] ، في عنقه سطع [8] ، وفي لحيته كثاثة ، إذا صمت فعليه الوقار ، وإذا تكلم سما وعلاه البهاء ، حلو المنطق ، كلامه فصل لا نزر [9] ولا هذر [10] ، كأن منطقه خرزات نظم يتحدرن ، أبهى الناس وأجمله من بعيد ، وأحسنه من قريب ، ربعة ، لا تَشْنَؤه [11] عين من طول ، ولا تقتحمه [12] عين من قصر ، غصن بين غصنين ، فهو أنضر الثلاثة منظراً ، وأحسنهم قداً ،

(١) الدعج : شدة سواد حدقة العين .
(٢) الوطف : مفتوح الطاء : كثرة شعر الحاجبين والعينين .
(٣) الصحل : بفتح الصاد والحاء : وهو كالبحة في الصوت .
(٤) الحور : أن يشتد بياض بياض العين وسواد سوادها ، وهو المحمود والمحبوب .
(٥) الكحل : بفتحتين : سواد في أجفان العين خلقة .
(٦) الأزج : هو دقيق طرف الحاجبين .
(٧) الأقرن : هو مقرون الحاجبين ، ولكن هذا مخالف لحديث هند بن أبي هالة الذي سيأتي ، وفيه أنه ﷺ أزج الحواجب سوابغ من غير قرن ، وهو المشهور ، وقد يجاب عن هذا : بأن بين الحاجبين الشريفين شعراً خفيفاً يظهر إذا وقع عليه غبار السفر ، وحديث أم معبد كان في حال السفر . اهـ . ملخصاً من شرح المواهب .
(٨) أي : ارتفاع وطول .
(٩) النزر : بسكون الزاي : هو القليل .
(١٠) الهذر : بفتح الذال : الكثير .
(١١) أي : لا يبغض لفرط طوله ، والمراد ليس فيه طول مبغوض إلى النفوس .
(١٢) أي : لا تتجاوزه إلى غيره احتقاراً .

له رفقاء يَحفون به ، إن قال استمعوا لقوله ، وإن أمر تبادروا لأمره ، محفود محشود [1] ، لا عابس ولا مفنِّد [2] .

فقال أبو معبد : هذا والله صاحب قريش الذي تطلب ، ولو صادفتُه لالتمست أن أصحبه وفي رواية : لو رأيته لاتبعته ـ ولأجهدنَّ إن وجدت إلى ذلك سبيلا ـ ثم هاجرت مع زوجها إلى النبي ﷺ وأسلما [3] .

وروى مسلم والترمذي عن الجُرَيري ـ بالتصغير ـ أنه قال لأبي الطفيل : رأيتَ رسول الله ﷺ ؟ فقال : نعم . قلت : كيف رأيته ؟ ـ وفي رواية الترمذي : فقلت : صفه لي ـ فقال : كان رسول الله ﷺ أبيضَ مليحَ الوجه ـ وفي رواية : أبيض [4] مليحاً مقصَّداً [5] .

تلألؤ وجهه المنير وإشراق مُحياه

كان ﷺ أحسن الناس وجهاً ، وأنورهم مُحيًّا ، اجتمعت كلمة الصحابة الذين وصفوا رسول الله ﷺ ، على أنه ﷺ ، كان منير الوجه ، مُشرِق المحيا ، يتلألأ بالنور الباهر ، والضياء الزاهر ، والبهاء الظاهر .

(١) محفود : أي: مخدوم ، والمحشود الذي عنده حشد وهم الجماعة .
(٢) المفند : الذي يكثر اللوم .
(٣) انظر شرح المواهب وتاريخ ابن كثير .
(٤) يعني أيضاً مشرباً بحمرة كما دلت عليه بقية الروايات .
(٥) أي : متوسطاً في جميع أوصافه ، والوسط هو مجمع كمال الطرفين المتقابلين .

فمن الصحابة من ضرب المثل لبهاء نوره ﷺ بالشمس ، ومنهم من شبّه ذلك بالقمر ، ومنهم من شبّه لمعة إشراقات وجهه الشريف بلمعة القمر ، وجميع هذا مما يثبت لنا إشراقات وجهه الظاهرة ، وأنواره الباهرة ﷺ .

وإليك الأحاديثَ الساطعة والأدلةَ القاطعة :

روى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : (ما رأيت شيئاً أحسن من رسول الله ، كأنَّ الشمس تجري في وجهه)[1] .

قال الإمام الغزالي رضي الله عنه : وكانوا يقولون : هو كما وصفه صاحبه أبو بكر رضي الله عنه :

أمينٌ مصطفى للخير يدعـو
كضـوء البدر زايله الـظلام

وعن أبي عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر قال : قلت للرُّبيِّع بنت معوِّذ : صفي لنا رسول الله ﷺ .

فقالت : (يا بنيَّ لو رأيتَه لرأيتَ الشمس طالعة) رواه الترمذي .

(١) ورواه الإمام أحمد والبيهقي وابن حبان وابن سعد .
قال عمرو بن سالم الخزاعي حين قدم على رسول الله ﷺ المدينة وهو ﷺ بين أصحابه في المسجد ـ يستنصره على قريش لما نقضوا العهد :

يـا رب إني نـاشـد محمـداً حـلف أبينـا وأبيـه الأتـلدا
قـد كنتم ولـداً وكنـا والـداً ثمـة أسلمنا ولم ننـزع يـدا
فانصر هداك الله نصراً أبداً وادع عبـاد الله يـأتـوا مـددا
فيهم رسـول الله قـد تجـردا أبيض مثل البدر يسمو صعدا

والبيهقي وغيرهما .

وروى الترمذي من حديث هند بن أبي هالة من رواية الحسن بن علي رضي الله عنهما قال : سألت خالي هند بن أبي هالة ـ وكان وصافاً ـ عن حلية النبي ﷺ وأنا أشتهي أن يصف لي منها شيئاً أتعلق به .

فقال : (كان رسول الله ﷺ فخماً مفخماً ، يتلألؤ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر . .) الحديث كما سيأتي .

وعن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال : (رأيت رسول الله ﷺ في ليلة إضحِيان[1] وعليه حُلة حمراء ، فجعلتُ أنظر إليه وإلى القمر فلهوَ عندي أحسن من القمر) رواه الترمذي .

وعن أبي إسحاق السَّبيعي أنه قال : سأل رجل البراء بن عازب : أكان وجه رسول الله ﷺ مثلَ السيف ؟[2] .

فقال : (لا ، بل مثل القمر) رواه البخاري والترمذي .

وروى مسلم عن جابر بن سمرة رضي الله عنه وقال رجل : كان وجه رسول الله ﷺ مثل السيف ؟

فقال جابر : (لا بل مثل الشمس والقمر ، وكان مستديراً)[3] .

وفي صحيح البخاري من حديث كعب بن مالك أنه قال : (كان

(١) يقال : ليلة ضحيا وإضحيان وهي : المقمرة من أولها إلى آخرها .
(٢) أي : أهو مثل السيف في اللمعان والإضاءة ؟
(٣) يعني أن وجهه ﷺ مثل الشمس في الإشراق والضياء ، ومثل القمر في الملاحة والبهاء ، وفيه استدارة ، ﷺ ، كما في شرح المواهب .

رسول الله ﷺ إذا سُرَّ استنار وجهه كأنه قطعة قمر . .) الحديث .

وروى البيهقي عن أبي إسحاق الهَمْداني[1] عن امرأة من همْدان سماها (أبو إسحاق) قالت : حججتُ مع رسول الله ﷺ مراتٍ ، فرأيتُه على بعيرٍ له يطوف بالكعبة ، بيدهِ محجن عليه بُردان أحمران ، يكادُ يَمَسُّ شعره منكبه إذا مرَّ بالحجر استلمه بالمحجن ، ثمَّ يرفعه إلى فيه فيقبِّله ، قال أبو إسحاق : فقلتُ لها : شبهيه ﷺ فقالت : (كالقمر ليلة البدر ، لم أرَ قبله ولا بعده مثله) .

ولما قدم ﷺ المدينة جعل أهلها يتناشدون :

طلع البدر علينا
من ثنيات الوداعِ
وجب الشكر علينا
ما دعا لله داعِ
أيها المبعوث فينا
جئت بالأمر المطاعِ

فوجهه ﷺ المشرق بالأنوار ، والفياض بالمعاني والأسرار ، دليل ساطع وبرهان قاطع على أنه رسول الله تعالى حقاً وصدقاً .

قال عبد الله بن سلام رضي الله عنه : أوَّل ما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس إليه ـ أي : أسرعوا إليه ـ فكنت فيمن جاءه ، فلما تأملت وجهه ﷺ واستبنته ـ أي : تحققته وتبينته ـ عرفتُ أن وجهه ليس

(١) هو السبيعي المتقدم ، وهو تابعي جليل روى له الأئمة الستة .

بوجه كذاب ـ أي : بل هو وجه إمام المرسلين ـ قال : فكان أول ما سمعت من كلامه أن قال : « أيُّها الناس : أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصِلوا الأرحام ، وصَلُّوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام » رواه الترمذي وصححه .

ومن أجل ذلك قال عبد الله بن رواحة :

لو لم تكن فيه آياتٌ مبيِّنةٌ
كانت بديهتُه تُنبيك بالخبرِ

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : (كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهاً ، وأنورهم لوناً ، لم يصفه واصفٌ قطُّ إلا شبه وجهه بالقمر ليلة البدر ، وكان عرقُه في وجهه مثلَ اللؤلؤ ، وأَطيبَ من المسك الأذفَر) رواه أبو نعيم وغيره .

وفي ذلك يقول أبو طالب :

وأبيض يُستسقى الغمام بوجهه
ثمال اليتامى عصمة للأرامل

وروى ابن عساكر وأبو نعيم والخطيب بسند حسن ، عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : كنت قاعدة أغزل والنبي ﷺ يخصف نعله ، فجعل جبينه يعرق ، وجعل عرقه يتولد نوراً ، فبهت ، فقال : « مالك بهت » ؟ قلت : جعل جبينك يعرق ، وجعل عرقك يتولد نوراً ولو رآك أبو كبير الهُذَلي لعلم أنك بِشعره أولى حيث يقول :

ومُبَرّأً من كل غُبرَ حيضَةٍ
وفسادِ مرضعَةٍ وداءٍ مغيل[1]
وإذا نَظرتَ إلى أسِرَّةِ وجهه
بَرِقتْ بُروقَ العارض المتهلل

وذكر ابن أبي خيثمة : (كان ﷺ أجلى الجبين ، إذا طلع جبينه بين الشعر أو طلع من فلق الشعر ، أو عند الليل ، أو طلع بوجهه على الناس ، تراءى جبينه كأنه هو السراج المتوقّد يتلألؤ ، وكانوا يقولون : هو ﷺ كما قال شاعره حسان رضي الله عنه :

متى يبدُ في الليل البهيم جبينُه
يَلُح مثلَ مصباحِ الدُّجى المتوقِّدِ
فمن كان أو من قد يكون كأحمدٍ
نظامُ لحقٍّ أو نكالٌ للحد

وفي حديث طارق بن عبد الله المحاربي ـ كما في (سنن الدارقطني) ـ قال : قالت الظعينة : (لا تلاوموا ، فقد رأيت وجه رجل ما كان ليحقركم ، ما رأيت وجه رجل أشبه بالقمر ليلة البدر من وجهه) تعني بذلك وجه رسول الله ﷺ .

عرقه الشريف وطيب رائحته

كان من صفاته ﷺ : أنه طيِّب الرائحة وإن لم يمسّ طيباً ، ومع ذلك كان يستعمل الطيب في كثير من الأوقات ، ليسنَّ ذلك لأمته

(١) أي : لم تحمل به في بقية حيض ، ولا حملت بغيره حالة رضاعه فيفسد رضاعه ـ كما في شرح المواهب .

فيتبعوه ، ولأنه حُبِّب إليه الطيب ، كما في الحديث الذي رواه الترمذي أن النبي ﷺ قال : « حُبِّب إليَّ من دنياكم : الطيب والنساء ، وجُعلتْ قرَّة عيني في الصلاة » .

ومما يدل على أن طيب الرائحة كان صفة له ﷺ وهي أطيب الطيب كله ، وأن رائحته الزكية أطيب من النفحات العنبرية والمسكية : ما ورد في الحديث عن أنس رضي الله عنه قال : (ما شممتُ عنبراً قطُّ ، ولا مسكاً ، ولا شيئاً أطيب من ريح رسول الله ﷺ ، ولا مسستُ شيئاً قط : ديباجاً ولا حريراً ألين مساً من رسول الله ﷺ) رواه الشيخان وغيرهما .

وفي رواية الترمذي : قال أنس : (ولا شممتُ مسكاً قطّ ولا عطراً كان أطيب من عرق رسول الله ﷺ) .

وعن أنس رضي الله عنه قال : (كان رسول الله ﷺ أزهر اللون ، كأنّ عرقه اللؤلؤ ، إذا مشى تكفأ ، ولا مسستُ دِيباجةً ولا حريرة ألين من كف رسول الله ﷺ ، ولا شممت مسكة ولا عنبرة أطيب من رائحة رسول الله ﷺ) رواه مسلم .

وروى أبو نعيم والخطيب أن آمنة أم رسول الله ﷺ لما ولدته قالت : (ثم نظرت إليه فإذا هو كالقمر ليلة البدر ، ريحه يسطع كالمسك الأذفَر) .

وعن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال : صليت مع رسول الله ﷺ صلاة الأولى ـ يعني : صلاة الظهر ـ ثم خرج إلى أهله وخرجت معه ،

فاستقبله ولدانٌ ـ أي : صبيان ـ فجعل ﷺ يمسح خدَّيْ أحدهم واحداً واحداً .

قال جابر : وأما أنا فمسح خدِّي فوجدت ليده برداً وريحاً كأنما أخرجها من جُؤنة عطار[1] . رواه مسلم .

وفي(مسند)الإمام أحمد من حديث أبي جُحيفة: (أن النبي ﷺ توضَّأَ وصلى الظهر ثم قام الناس ، فجعلوا يأخذون يده فيمسحون بها وجوههم ، قال : فأخذت يده فوضعتها على وجهي فإذا هي أبرد من الثلج ، وأطيب ريحاً من المسك) ـ وأصل الحديث في الصحيحين .

فانظر يا أخي في هذه الأحاديث فإنها تدل دلالة واضحة على طيب رائحته طيباً ذاتياً محمدياً صِرفاً ، أكرمه الله تعالى به في جملة صنوف الإكرام والإنعام .

تطيُّب الصحابة بعرق النبي ﷺ وتبرُّكهم به

روى الإمام مسلم عن أنس رضي الله عنه قال : (دخل علينا النبي ﷺ فَقَالَ[2] عندنا ، فعرِق فجاءت أمي ـ أُم سُلَيم بنت مِلحان ـ بقارورة[3] فجعلت تسلت العرق فيها ، فاستيقظ النبي ﷺ فقال :

(١) جؤنة العطار : بضم الجيم وهمزة بعدها وقد تخفف بإبدالها واواً ، وهي : سليلة مستديرة مغشاة كالسفط يجعل فيها العطار عطره .
(٢) أي : فنام وقت القيلولة وهي : نصف النهار .
(٣) وهي : إناء من زجاج يوضع فيه الطيب وقد يطلق على غير الزجاج .

« يا أم سُلَيم ما هذا الذي تصنعين ؟ » قالت : هذا عرقك نجعله في طيبنا ، وهو من أطيب الطيب) .

وروى مسلم أيضاً عن أنس رضي الله عنه قال : (كان النبي ﷺ يدخل بيت أم سليم فينام على فراشها[1] وليست فيه ، قال : فجاء ذات يوم فنام على فراشها ، فأُتِيَتْ فقيل لها : هذا النبي ﷺ نام في بيتك على فراشك ، قال : فجاءت وقد عرق واستنقع عرقه ﷺ على قطعة أديم على الفراش ، ففتحت أم سُليم عتيدتها[2] فجعلت تنشف ذلك العرق فتعصره في قواريرها ، ففزع[3] النبي ﷺ فقال : « ما تصنعين يا أم سُليم ؟ » ، فقالت : يا رسول الله نرجو بركته لصبياننا . فقال : « أصبت » .

وروى مسلم عن أنس عن أم سليم أن النبي ﷺ كان يأتيها فيَقيل عندها ـ أي : ينام في وقت القائلة ـ فتبسط له نِطْعاً فيقيل عليها[4] .

(١) وكانت مَحرماً له ﷺ .
(٢) هو كالصندوق الصغير تجعل المرأة فيه ما يعز عليها من متاعها .
(٣) أي : استيقظ من نومه .
(٤) قال الإمام النووي في شرحه على هذا الحديث : إنها كانت محرماً له ﷺ ، ففيه الدخول على المحارم والنوم عندهن اهـ . وقال أيضاً في (تهذيب الأسماء) : أم سليم : اختلف في اسمها ، فقيل : سهلة ، وقيل : رملة ، وقيل : أنيسة ، وقيل : رميثة ، وقيل : الرميصاء ، وهي بنت ملحان ـ بكسر الميم وقيل : بفتحها ـ وهي أم أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ لا خلاف في هذا بين أهل العلم ، ثم قال : وكانت أم سليم هذه وأختها =

وكان النبي ﷺ كثير العرق ، فكانت تجمع عرقه فتجعله في الطيب والقوارير ، فقال النبي ﷺ : « يا أم سليم ما هذا ؟ » قالت : عرقك أدوف[1] به طيبي ـ وفي رواية أحمد : فدعا لها بدعاء حسن .

وعن أم عاصم امرأة عتبة بن فرقد السلمي قالت : (كنا عند عتبة أربع نسوة ـ أي : زوجات له ـ فما منا امرأة إلا وهي تجتهد في الطيب لتكون أطيب من صاحبتها ، وما يمسُّ عتبة الطيب إلا أن يمسّ دهناً يمسح لحيته ، ولهو أطيب ريحاً منا ، وكان إذا خرج إلى الناس قالوا :

= خالتين لرسول الله ﷺ من جهة الرضاع ، وكانت من فاضلات الصحابيات اهـ .

فلا ينبغي أن يتوهم من حديث أم سليم أنه ﷺ كان يخلو بامرأة أجنبية عنه ، فإن أم سليم كانت محرماً له ، خالته من الرضاع .

بل إنه ﷺ قد تبرأ من ذلك الوهم ونفى عنه أن يظن به ذلك ، ففي الصحيحين عن علي بن الحسين رضي الله عنهما أن صفية زوج النبي ﷺ ورضي الله عنها قالت : كان النبي ﷺ معتكفاً فأتيته أزوره ليلاً ، فحدثته ، ثم قمت لأنقلب ـ أي : أرجع ـ فقام معي ليقلبني ـ أي : يودعني من حيث جئت ـ فمر رجلان من الأنصار ، فلما رأيا النبي ﷺ أسرعا ، فقال النبي ﷺ : « على رسلكما ـ أي : مهلكما دون إسراع ـ إنها صفية بنت حيي » .

فقالا : سبحان الله يا رسول الله ، فقال ﷺ : « إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم ؛ وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شراً ـ أو قال : شيئاً » .

وفي هذا تشريع لأمته من بعده أن أحدهم مهما ارتفعت درجته وطابت نفسيته فإنه لا يجوز له أن يخلو بامرأة أجنبية أصلاً .

(١) بالدال المهملة وبالمعجمة كما قال النووي .

ما شممنا ريحاً أطيب من ريح عتبة ، فقلتُ له يوماً : إنا لنجتهد في الطيب ولأنت أطيبُ ريحاً منا ، فممَّ ـ أي : من أيّ سبب ـ ذلك ؟

فقال عتبة : أخذني الشَّرَى[1] على عهد رسول الله ﷺ ، فأتيته فشكوت ذلك إليه ﷺ ، فأمرني أن أتجرّد ، فتجرّدت عن ثوبي ، وقعدت بين يديه وألقيت ثوبي على فرجي[2] فَنَفَثَ رسول الله ﷺ في يده ثم مسح ظهري وبطني بيده ، فعبق[3] بي هذا الطيب من يومئذٍ)[4] .

وأخرج أبو يعلى والطبراني من حديث أبي هريرة في قصة الذي استعان بالنبي ﷺ على تجهيز ابنته فلم يكن عنده شيء فاستدعى ﷺ بقارورة ـ أي : إناء صغير ـ فسَلَتَ له فيها من عرقه وقال له : « مُرها فلتتطيبْ به » فكانت إذا تطيبت به شمَّ أهل المدينة رائحة ذلك الطيب فسُمُّوا بيت المطيّبين . اهـ من (فتح الباري) .

طيبه العبق ﷺ ينفح كل شيء مسه وكل طريق مرّ فيه

روى الطبري والبيهقي عن وائل رضي الله عنه قال : (لقد كنت أصافح رسول الله ﷺ أو يمسُّ[5] جلدي جلده ، فأتعرّفه[6] بعدُ في

(١) هو مرض في الجلد يورث الحكة .
(٢) يعني أنه ستر عورته كلّها .
(٣) لازمه ولزق به .
(٤) رواه الطبراني في (الكبير والصغير) .
(٥) (أو) للتنويع فهو يخبر عن حالتين .
(٦) أي : فأعرف أثره بعد مفارقته لي .

يدي ، وإنه لأطيب رائحة من المسك) .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : (كانت كفُّ رسول الله ﷺ ألين من الحرير ، وكأنَّ كفه كفُّ عطارٍ ـ مسها بطيب أو لم يمسها ، يصافح المصافح فيظل يومه يجد ريحها ، ويضع يده على رأس الصغير فيُعرف من بين الصبيان بريحها) رواه أبو نعيم والبيهقي .

وعن أنس رضي الله عنه قال : (كان رسول الله ﷺ إذا مر في طريق من طرق المدينة ، وجدوا منه رائحة الطيب ، وقالوا : مرَّ رسول الله من هذا الطريق) رواه أبو يعلى والبزار بإسناد صحيح .

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : (كان في رسول الله ﷺ خصال لم يكن يمرُّ في طريق فيتبعه أحد إلاَّ عرف أنه ﷺ سلكه ؛ من طيب عرقه وعَرْفه[1] ، ولم يكن يمرُّ بحجر إلاَّ سجد له) رواه الدارمي والبيهقي وأبو نعيم[2] .

ويرحم الله القائل :

ولـو أن ركباً يَمّـوك لقـادهم
نسيمك حتى يَستدلّ به الركب

وفي (المسند) عن وائل بن حجر: (أن النبي ﷺ أُتي بدلوٍ من ماء فشرب منه ، ثم مجّ في الدلو ، ثم في البئر ، ففاح منه مثل ريح المسك) .

---

(١) عرقه : بالقاف ، وعرفه بالفاء ، وهو ريحه الطيب .

(٢) انظر المواهب .

حول خصائص ريقه الشريف ﷺ

لقد أعطى الله تعالى رسوله ﷺ خصائص كثيرة في ريقه الشريف ، ومن ذلك : أن ريقه ﷺ فيه شفاء للعليل ، ورواء للغليل ، وغذاء وقوة وبركة ونماء . . .

فكم داوى ﷺ بريقه الشريف من مريض فبرىء من ساعته ! .

جاء في الصحيحين عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال : (قال رسول الله ﷺ يوم خيبر : « لأعطينَّ الراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه ، يحب الله ورسولَه ، ويحبه الله ورسولُه » .

فلما أصبح الناس غدَوْا على رسول الله وكلُّهم يرجو أن يُعطاها ، فقال ﷺ : « أين عليّ بن أبي طالب ؟ » فقالوا : هو يا رسول الله يشتكي عينيه ، قال : « فأرسِلوا إليه » ، فأُتي به ـ وفي رواية مسلم : قال سلمة : فأرسلني رسول الله ﷺ إلى عليّ ، فجئت به أقوده أرمد ـ فبصق رسول الله ﷺ في عينيه ، فبرىء كأنه لم يكن به وجع . . .) الحديث .

وفي زوائد ابن حبان عن عبد الله بن بريدة قال : سمعت أبي يقول : إن رسول الله ﷺ تَفَل في رِجل عمرو بن معاذ حين قُطعتْ رجله فبرأ .

وإن ريقه الشريف ﷺ غذاء للمغتذي .

كما روى البيهقي في (الدلائل) أن النبي ﷺ كان يوم عاشوراء يدعو برضعائه ـ أي : صبيانه الذين ينسبون إليه ـ وبرُضعاء ابنته السيدة فاطمة رضي الله عنها ، فيتفل في أفواههم ويقول للأمهات : « لا ترضعنهم إلى الليل . . . » فكان ريقه ﷺ يكفيهم عن الرضاع .

وأعطى النبي ﷺ الحسن بن علي رضي الله عنه لسانه ، وكان قد اشتدَّ عليه الظمأ ، فمصه حتى روي ، كما رواه ابن عساكر .

وروى الطبراني وأبو نعيم أن عميرة بنت مسعود الأنصارية وأخواتها دخلن على النبي ﷺ يبايعنه ، وهنَّ خمس ، فوجدنْه يأكل قديداً ، فمضغ لهن قديدةً ، قالت عميرة : (ثم ناولني القديدة فقسمتها بينهن ، فمضغت كل واحدة قطعة فلقينَ الله تعالى وما وجد لأفواههنَّ خلوف) ـ أي : تغيُّر رائحة فم .

* * * *

نظافته ﷺ وأمره بالنظافة

كان ﷺ أنظفَ خلق الله تعالى بدناً وثوباً وبيتاً ومجلساً ، فلقد كان بدنه الشريف ﷺ نظيفاً وضيئاً ، كما تقدم في حديث هند بن أبي هالة أنه ﷺ « أنور المتجرِّد » وذلك أن أعضاءه المتجرّدة عن الشعر والثوب هي في غاية الحسن ، ونصاعة اللون ، وفي هذا دليل نظافته ﷺ ، وكما ورد في الحديث : « كأنَّ عنقه جيد دُمية في صفاء الفضة » .

وروى الترمذي عن أبي الطفيل أنه قال : (كان رسول الله ﷺ أبيضَ مليحاً مقصّداً) ـ أي : متوسطاً بين الطول والقصر .

وروى الترمذي عن ابن أبي جحيفة عن أبيه قال : (رأيت النبي ﷺ وعليه حلة حمراء ، كأني أنظر إلى بريق ساقيه) .

وذلك لأن ثوبه ﷺ كان إلى أنصاف ساقيه تحت الركبة ـ وإن طيب عَرْفه وعرقه ﷺ لهو أكبر دليل على نظافة جسمه ﷺ .

وفي الصحيحين عن أنس رضي الله عنه قال : (ما مسست حريراً ولا ديباجاً ألينَ من كف النبي ﷺ ، ولا شممت ريحاً قطّ أو عَرْفاً ـ وفي رواية : أو عرقاً ـ أطيب من ريح أو عرف النبي ﷺ)[1] .

وعن أبي قِرصافة قال : لما بايعنا رسول الله ﷺ أنا وأمي وخالتي ، ورجعنا من عنده منصرفين ، قالت لي أمي وخالتي : (يا بني ما رأينا مثل هذا الرجل ، ولا أحسنَ منه وجهاً ، ولا أنقى ثوباً ، ولا ألين

(١) العرف هو الريح الطيب .

كلاماً ، ورأينا كأنَّ النور يخرج من فِيْهِ)[1] .

فهو ﷺ أنظف خلق الله بدناً ، وأنقاهم ثوباً .

وكان ﷺ يستاك حين خروجه ودخوله منزله .

أمره ﷺ بالنظافة

كان ﷺ يأمر بالنظافة ويحثّ عليها ، ويحذّر من الوساخة ، وقد جاء ذلك منه على وجوه متعدّدة .

أولاً : بيانه ﷺ أن من مبادىء الإسلام النظافة :

روى الترمذي عن سعد رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « إن الله تعالى طيِّب[2] يحب الطيِّب ، نظيف[3] يحب النظافة ، كريم يحب الكرم ، جَواد[4] يحب الجود ، فنظِّفوا أفنيتكم ولا تشَبَّهوا باليهود » .

وعن سليمان بن صُرَد أن رسول الله ﷺ قال : « استاكوا ؛

(١) قال في (مجمع الزوائد) : رواه الطبراني وفيه من لم أعرفهم اهـ .

(٢) أي : منزه عن النقائص ومقدس عن الآفات والعيوب ، يحب الطيب أي : الحلال الذي يعلم أصله وجريانه على الوجه الشرعي العاري عن ضروب الحيل وشوائب الشبه . اهـ من (فيض القدير) .

(٣) قال العلامة الخفاجي : وإطلاق « النظيف » على الله تعالى في الحديث ولم يذكره أحد من أسمائه تعالى ، كما قيل وقع للمشاكلة ، والمتقدمون يسمونها ازدواجاً أيضاً ، فلا وجه للاعتراض عليه ، وقيل : إنه بمعنى القدوس ، اهـ ملخصاً .

(٤) بالتخفيف أي : كثير الجود والعطاء . اهـ (فيض القدير) .

وتنظفوا ؛ وأوْتروا فإنَّ الله عز وجلّ وتر يحب الوتر »[1] .

وروى الخطيب وغيره عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال : « إنَّ الإسلام نظيف ؛ فتنظفوا ، فإنه لا يدخل الجنة إلا نظيف » .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً « تنظفوا بكل ما استطعتم فإن الله تعالى بنى الإسلام على النظافة ، ولن يدخل الجنة إلا كل نظيف »[2] .

ثانياً : حثُّه ﷺ على نظافة البدن بشتى وسائل النظافة :

فمن ذلك : أمره ﷺ بالغُسل وتحذيره من ترك ذلك .

روى الإمام أحمد عن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « على كلِّ رجلٍ مسلم في كل سبعة أيام غُسل يوم ، وهو يوم الجمعة »[3] .

ومن ذلك : حثه ﷺ على تعهد أطراف البدن بالنظافة ، وإزالة الأوساخ عنها ، وأن ذلك من الفطرة الدينية التي جاءت بها جميع الرسالات الإلهية .

روى مسلم عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال : « عشر من الفطرة[4] : قصّ الشارب ، وإعفاء اللحية ، والسواك ، واستنشاق

(١) رواه ابن أبي شيبة والطبراني ، وأفاد المناوي أنه حسن لغيره .

(٢) عزاه الخفاجي في (شرح الشفاء) إلى الرافعي في (تاريخ قزوين) وقال : وبما ذكرناه من أن الحديث روي من طرق متعددة تجبر ضعفه ، عُلم أنه خرج من الضعف إلى مرتبة الحسن ، ومعناه صحيح موافق للشرع اهـ .

(٣) ورواه النسائي وابن حبان .

(٤) أي : من الفطرة الدينية التي فطر الله تعالى العباد عليها ، قال تعالى:=

الماء ، وقصُّ الأظفار ، وغسل البراجم[1] ، ونتف الإبط[2] ، وحلق العانة ، وانتقاص[3] الماء » .

وقد حذَّر النبي ﷺ من إهمال ذلك مدة طويلة ، ففي سنن أبي داود عن حسن رضي الله عنه قال : وَقَّتَ لنا رسول الله ﷺ في قص الشارب ، وتقليم الأظفار ، ونتف الإبط وحلق العانة ، أن لا تُترك أكثر من أربعين ليلة ـ يعني أنه إذا دعت الحاجة إلى الترك أو لم يتمكن من الغسل والقص والتقليم في كل أسبوع ، فلا يجوز له أن يؤخر أكثر من أربعين ليلة ، فإنه حينئذٍ آثم ، كما نصَّ الفقهاء على ذلك[4] .

ثالثاً : حَثُّه ﷺ على التنظف من آثار الطعام والشراب :

روى الحكيم الترمذي عن عبد الله بن بُسْر عن النبي ﷺ أنه قال :

= ﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ﴾ وهي : من الأمور التي جاءت بها جميع الرسل واتفقت عليها جميع الشرائع السماوية .

(١) البراجم : عقد الأصابع في ظهر الكف ، والرواجب عقدها من بطنها .

(٢) أي : نتف شعر الإبط ولا بأس بحلقه .

(٣) قال الشيخ علي القاري في (شرح الشفاء) : انتقاص الماء هو الاستنجاء ، وهو بالفاء والمهملة أو المعجمة ، والمذكور في اللغة أنه بالقاف والمهملة ، وأما بالفاء فنضحه على الذكر اهـ .

(٤) ويستحب دفن الأظفار والشعر ، لما روى الحكيم الترمذي عن عائشة رضي الله عنها : (أن النبي ﷺ كان يأمر بدفن سبعة أشياء من الإنسان : الشعر ، والظفر ، والدم ، والحيضة ، والسن ، والقلفة ، والمشيمة) وقد روى بعض ذلك الطبراني أيضاً ؛ كما في (الفتح الكبير) .

« قصُّوا أظافركم ، وادفنوا قلاماتكم ، ونقّوا براجمكم ، ونظفوا لِثاتكم من الطعام ، واستاكوا ، ولا تدخلوا عليَّ قُحْراً بُخْراً »[1] .

وروى الترمذي عن سلمان رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « بركة الطعام : الوضوء قبله ، والوضوء بعده » .

والمراد هنا الوضوء اللغوي وهو غسل اليدين ، لا الوضوء الشرعي وهو غسل الأعضاء المفروضة ، كما دلَّ على ذلك حديث الترمذي عن ابن عباس بسند صحيح أن النبي ﷺ قُرِّبَ إليه طعام ، فقالوا : ألا نأتيك بوَضوء ؟ فقال : « إنما أمرتُ بالوضوء إذا قمت إلى الصلاة » .

رابعاً : حثُّه ﷺ على نظافة الثياب :

كما روى الطبراني وأبو نعيم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إن من كرامة المؤمن على الله نقاء ثوبه ورضاه باليسير » أي : من أمور الدنيا .

وروى أبو نعيم عن جابر أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً وسخة ثيابه فقال : « أما وجد هذا شيئاً ينقي به ثيابه ؟ » .

وفي هذا يوبخ ﷺ على وساخة الثياب ، ولم يخاطب ذلك الرجل بخاصَّته لئلا يكسر خاطره بمقابلته بما يكره ، وليبين أن الحكم لا يختص

---

(١) كذا في (الجامع الصغير) وفسر المناوي في شرحه الكبير « قحراً » : مصفرة من شدة الخلوف ، وبخراً : من البَخَر بفتحتين ، وهو نتن الفم ، ثم قال : هكذا الرواية ، لكن قال الحكيم : المحفوظ عندي قحلا فلجاً ولا أعرف القحر . اهـ .

به ، بل توبيخه موجه لكل من ترك ثيابه وسخةً .

وكان ﷺ ينهى عن تعريض الثياب للوسخ ، فعن الأشعث بن سليم أنه قال سمعت عمتي تحدث عن عمها قال : بينا أنا أمشي في المدينة إذا إنسان خلفي يقول : « ارفع إزارك ، فإنه أنقى[1] ـ وفي رواية : أتقى ـ وأبقى » فإذا هو رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله إنما هي بُرْدة مَلْحاء[2] .

فقال : « أما لك فيَّ أسوة ؟! » فنظرت فإذا إزاره ﷺ إلى نصف ساقيه[3] . أخرجه الترمذي في الشمائل بهذا اللفظ .

خامساً : حثُّه ﷺ على تنظيف البيوت والأفنية ـ كما تقدم في الحديث : « فنظِّفوا أفنيتكم ، ولا تشبهوا باليهود » .

سادساً : حثُّه ﷺ على تنظيف الجوامع ، وأن ذلك من القُرُبات وكبار الحسنات .

---

(١) من النقاء ، وهو النظافة ، كما أن رواية « أتقى » تدل على التنزه عن الأوساخ لما أن في ذلك تقوى الله تعالى للبعد عن الخيلاء والكبر . اهـ شرح الزرقاني .

(٢) تأنيث أملح ، والملحة : بياض يخالطه سواد ، على ما في الصحاح . قيل : الملحاء هي التي فيها خطوط من سواد وبياض ـ والمراد أنه ثوب لا يلبس في المجالس والمحافل ، إنما هو ثوب مهنة لا ثوب زينة . اهـ كما في شروح الشمائل .

(٣) وفي هذا إرشاد اللابس إلى الرفق بما يلبسه ، وحفظه وتعهده ، لأن إهماله تضييع وإتلاف .

روى أبو داود والترمذي عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « عُرضتْ عليَّ أجور أمتي حتى القَذاة يُخرجها الرجل من المسجد ، وعُرِضَتْ علي ذنوب أمتي ، فلم أرَ ذنباً أعظم من سورةٍ من القرآن أو آيةٍ أوتيها رجل ثم نسيها » .

وفي صحيح مسلم وغيره عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « عُرضت عليَّ أمتي بأعمالها ، حسنِها وسيئها ، فرأيت في محاسن أعمالها : إماطة الأذى عن الطريق ، ورأيت من سيء أعمالها النخامة في المسجد لم تدفن » .

فتنظيف المسجد حتى من القذاة ـ وهي : أصغر من الأذى ـ فيه أجر كبير ، وترك النخامة والأوساخ في المسجد فيه وزر كبير .

وإذا كان المؤمن مأموراً أن يزيل النخامة من المسجد ؛ ولا يجوز له أن يتركها إذا رآها ؛ فكيف يجوز له أن يتنخم فيه أو يوسخ المسجد ؟! فإن ذلك أعظم ذنباً .

فعلى المسلمين أن يتنظفوا وينظفوا مساجدهم ، حذراً من الوزر وطمعاً في الأجر .

كما وأنه ﷺ حثَّ على تبخير المساجد وتنظيفها وصيانتها :

فعن عائشة رضي الله عنها قالت : (أمرنا رسول الله ﷺ ببناء المساجد في الدور ، وأن تُنَظَّف وتُطيَّب)[1] .

---

(١) قال المنذري : ورواه أحمد والترمذي وصححه وأبو داود وابن ماجه .

وعن سمرة بن جندب : (أمرنا رسول الله ﷺ أن نتخذ المساجدَ في ديارنا وأمرنا أن ننظفها)[1] .

فكان ﷺ يأمر بنظافة المساجد العامة ؛ والمساجد الخاصة التي تُبنى في الدار ليصلي فيها الإنسان نوافله وقيامه ؛ ويعبد ربه فيها ؛ وهي من السنة المطلوبة ؛ كما نص عليه الفقهاء .

سابعاً : حثُّه ﷺ على نظافة الطرق والساحات العامة ونهيُه عن تلويثها بالأوساخ والمضارِّ ؛ وبيانه أن ذلك يعتبر شعبةً من شعب الإيمان التي لا يتم الإيمان إلَّا بها :

ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « الإيمان بضع وسبعون ـ وفي رواية : وستون ـ شعبة ، **فأفضلها** : قول لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق » .

فإذا كان المؤمن لا يجوز له بمقتضى إيمانه أن يترك أذىً رآه في الطريق ويمكنه أن يزيله ، وليس ثمة غيره يزيله ، فمن باب أولى وأَحَقُّ وأوجب أنه لا يجوز له أن يلقي الأذى في الطريق .

فاعتبر يا مسلم واعلم بأن نظافة الطريق والشوارع من الإيمان ، وليست هي من التفضل ولا من باب الامتنان .

وقد أمر ﷺ بتنحية الأذى عن الطريق فقال ـ كما روى ابن حبان عن أبي برزة ـ : « نَحِّ الأذى عن طريق المسلمين » .

(١) رواه أحمد والترمذي وصححه . كما في (الترغيب) .

وأوعد من آذى المسلمين في طريقهم ، كما روى الطبراني بإسناد حسن عن حذيفة بن أسيد رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « مَنْ آذى المسلمين في طرقهم وجبت عليه لعنتهم » .

وروى الطبراني والبيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « مَن غسل سَخيمته[1] على طريق من طرق المسلمين ، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » .

وروى مسلم وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « اتقوا اللاعنَيْن » .

قالوا : وما اللاعنان يا رسول الله ؟ .

قال « الذي يتخلى في طرق الناس أو في ظلهم » أي : ساحات مجتمعهم وجلوسهم .

وأثنى ﷺ على الرجل يزيل الأذى عن الطريق .

روى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « بينما رجل يمشي بطريق وجد غصن شوك فأخره ، فشكر الله له ، فغفر الله له » .

فأكرِمْ وأعظِم بهذا النبي الكريم ﷺ الذي جاء بسعادة الدنيا ونظافتها ، وسعادة الآخرة ونضارتها .

---

(١) المراد بالسخيمة هنا الأقذار والأوساخ ، وإذا كانت حضارة الأمم تطالبهم بنظافة الأبدان والبلدان ، فإن إيمان المؤمنين وشرعهم وحضارتهم الإسلامية تطالبهم بالنظافة على أكمل وجوهها .

ثامناً : إن مشروعية الوضوء والغسل اللذين جاء بهما رسول الله ﷺ لهي أكبر شاهد على أن النظافة هي أصل أصيل في دين الإسلام ، وأنها من أهم المبادىء التي جاء بها رسول الله ﷺ ، فإن في الوضوء والغسل إزالة للنجس ، ورفعاً للحدث ، ونظافة من الوسخ والدنس ، إلى ما هناك من بقية الحِكَم الشرعيَّة ، وفي إزالتهما آثار الذنوب والخطايا ، كما ورد في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إذا توضأ العبدُ المسلم ـ أو المؤمن ـ فغسل وجهه خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينه مع الماء ـ أو مع آخر قطرِ الماء ـ فإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة كان بطشتها يداه مع الماء ـ أو مع آخر قطر الماء ـ فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء ـ أو مع آخر قطر الماء ـ حتى يخرج نقياً من الذنوب »[1] .

وهناك حِكَم طبِّيَّة جمَّة مترتبة على مشروعية الوضوء والغسل من استجمام القوى ، واستعادة النشاط للبدن ، وإزالة آثار الإفرازات الجسمية ، إلى ما وراء ذلك مما يطول شرحه .

تاسعاً : إنَّ الأحاديث النبوية الواردة في الحثِّ على السواك وبيان آثاره والتحذير من تركه ، لهي أكبر دليل على أن النظافة والرعايات الصحية هي من مبادىء الإسلام .

أما آثاره :

---

(١) قال الحافظ المنذري في (الترغيب) : رواه مالك ومسلم والترمذي ، وليس عند مالك والترمذي غسل الرجلين . اهـ .

فقد روى النسائي وغيره عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « السواك مَطْهَرة للفم مرْضاة للربِّ » .

وروى أحمد عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « عليكم بالسواك ، فإنه مَطْيبة للفم ، مَرْضاة للرب تبارك وتعالى » .

وأما حثه عليه ﷺ .

فقد قال : « لولا أن أشقّ على أمتي لأمرتهم بالسواك ـ أي : لفرضته عليهم ـ مع كل صلاة » رواه البخاري واللفظ له .

ومسلم بلفظ : « عند كل صلاة » .

والنسائي وابن ماجه وابن حبان بلفظ : « لأمرتهم بالسواك مع الوضوء عند كل صلاة » .

وفي رواية أحمد : « لأمرتهم بالسواك مع كل وضوء » .

وفي رواية البزار والطبراني : « لفرضتُ عليهم السواك عند كل صلاة ، كما فرضت عليهم الوضوء » .

وعن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ركعتان بالسواك أفضل من سبعين ركعةً بغير سواك » رواه أبو نعيم بإسناد حسن كما في (ترغيب) المنذري .

ولذا كان ﷺ يكثر من استعمال السواك ، ففي صحيح مسلم وغيره عن شُريح بن هانىء قال : قلت لعائشة رضي الله عنها : بأي شيءٍ كان يبدأ النبي ﷺ إذا دخل بيته ؟ قالت : (بالسواك) .

عاشراً : حثه ﷺ على التنظُّف والتخلُّل بعد تناول الطعام :

فعن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه قال : خرج علينا رسول الله ﷺ فقال : « حبّذا المتخلِّلون من أمتي » .

قال : وما المتخللون يا رسول الله ؟

فقال : « المتخللون في الوضوء ، والمتخللون في الطعام ـ أما تخليل الوضوء : فالمضمضة والاستنشاق ، وبين الأصابع ، وأما تخليل الطعام : فمن الطعام ، إنه ليس شيء أشدّ على الملكين من أن يريا بين أسنان صاحبهما طعاماً وهو قائم يصلي » رواه الطبراني في (الكبير) ، ورواه الإمام أحمد مختصراً ، كما في (الترغيب) .

جماله ﷺ

إن الله تعالى خلق سيدنا محمداً ﷺ في أجمل صورة بشرية ، وأكمل خِلْقة آدمية ، انطوت فيه جميع المحاسن المبدَعات ، والفضائل والكمالات .

قال الله تعالى : ﴿ يزيد في الخَلْق ما يشاء إن الله على كل شيءٍ قدير ﴾ فهو سبحانه يزيد في كمال الخَلق وجماله ما يشاء أن يزيد ، وقد زاد سبحانه في جمال خَلْقِ هذا النبي الكريم ﷺ ومحاسنه ، حتى اعتلى ذروة الخَلْق الحسن الكريم ، كما زاد سبحانه في كمال خُلُقه ﷺ حتى اعتلى ذروة الخُلُق العظيم ، قال سبحانه : ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ .

ولقد أجمعتْ كلمة الصحابة الذين وصفوه على أنه لم يُرَ قبله ولا بعده مثلَه ﷺ .

قال أمير المؤمنين علي كرم الله تعالى وجهه : (كان رسول الله ﷺ ليس بالقصير ولا بالطويل ، ضخم الرأس ، شَثْن الكفين والقدمين والكراديس[١] ، مُشْرباً وجهُه بحمرة ، طويل المسرُبة ، إذا مشى تكفأ كأنما يقلع من صخر ، لم أرَ قبله ولا بعده مثله)[٢] .

وقال البراء بن عازب : (كان النبي ﷺ أحسن الناس وجهاً ، وأحسنهم خُلُقاً ليس بالطويل البائن ، ولا بالقصير . . .) متفق عليه .

وقال أبو هريرة رضي الله عنه : (ما رأيتُ أحسنَ من رسول الله ﷺ ، كأنَّ الشمس تجري في وجهه ﷺ) رواه الترمذي .

تجمله ﷺ وأمره بذلك

كان ﷺ يتجمل ، ويأمر أصحابه بالتجمل ، وكان يؤكد ذلك في المجتمعات والمقابلات عامّة ، وفي الجُمَع والأعياد خاصةً .

روى البيهقي أنه ﷺ كانت له حُلة يلبسها للعيدين والجمعة .

وروى ابن السني عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ خرج ذات يوم إلى إخوانه فنظر في كوز من ماء إلى لُمته ـ أي : إلى شعره ـ وهيئته ثم قال : « إنَّ الله جميل يحب الجمال ، إذا خرج أحدكم إلى إخوانه فليتهيأ في نفسه »[٣] .

والتجمل هو : الأخذ بما يحفظ على الإنسان جماله ، والبعد عما

(١) أي : عظيم الكفين والقدمين والكراديس وهي رؤوس العظام .
(٢) رواه أحمد بهذا اللفظ وقد تقدم نحو هذا في رواية الترمذي .
(٣) انظر شرح المناوي على (الجامع الصغير) الجزء الثالث .

يَشينه في مَنظره وهيئته .

وأخرج أبو نعيم والواقدي عن جندب بن مَكِيث أن النبي ﷺ كان إذا قدم عليه وفد لبس أحسن ثيابه ، وأمر أصحابه بذلك ، فرأيته وفَد عليه وفْد كِنْدة ، وعليه حُلة يمانِيَّة ، وعلى أبي بكر وعمر مثل ذلك [1] .

وقد بيَّن النبي ﷺ أن حسن السَّمْت والزِيّ الحسن من شمائل الأنبياء وخصالهم الأصيلة .

روى الترمذي عن عبد الله بن سَرجِس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « إن الهَدْي الصالح ، والاقتصاد ، جزء من خمسة وعشرين جزءاً من النبوَّة » .

وفي رواية مالك في الموطأ : « القَصْد والتؤدة وحسن السمت جزء من خمسة وعشرين جزءاً من النبوَّة »[2] .

وكان ﷺ ينكر على من عرّض هيئته للشّين ، ففي (الموطأ) : **باب ما جاء في لبس الثياب للجمال بها** : ثم أسند إلى جابر بن عبد الله

---

(١) انظر الجزء الأول من (التراتيب) .

(٢) **أما السمت الحسن فهو** ـ كما قال المناوي ـ حسن الهيئة والمنظر ، وأصل السمت : الطريق ، ثم استعير للزي الحسن ، والهيئة المثلى في الملبس وغيره ، **وأما الهدي الصالح** : فهو السيرة السوية ، والسير الحسن ، **وأما الاقتصاد أو القصد** : فهو التوسط في الأمور والتحرز في طرفي الإفراط والتفريط ، كالجود فإنه وسط بين البخل والإسراف ، والشجاعة وسط بين الجبن والتهور ، وهكذا دواليك . **وأما التؤدة** : فهي التأني في الأمور ، وعدم الاستعجال فيها ، ليتبين له عواقبها ، وشرها وخيرها .

رضي الله عنهما أنه قال : (خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزوة أنمارٍ ، قال جابر : فبينا أنا نازل تحت شجرة إذا رسول الله ﷺ أقبل ، فقلت : يا رسول الله هَلمَّ إلى الظل ، قال : فنزل رسول الله ﷺ فقمت إلى غَرارةٍ ـ ظرف شبيه العدل ـ فالتمست فيها شيئاً فوجدتُ جِروَ قِثَّاءٍ [1] فكسرته ، ثم قرَّبته إلى رسول الله ﷺ ، فقال : « من أين لكم هذا ؟ » فقلت : خرجنا به يا رسول الله من المدينة .

قال جابر : وعندنا صاحب لنا نجهِّزه يذهب يرعى ، قال : فجهَّزته ثم أدبر يذهب في الظهر ، وعليه بُردان له قد خَلِقا ـ أي بَليا ـ قال : فنظر رسول الله ﷺ إليه فقال : « أما له ثوبان غيرُ هذين ؟ » فقلت : بلى يا رسول الله ، له ثوبان في العَيْبة [2] كسوته إياهما ، قال : « فادعه ، فمرْه فليلبسهما » قال : فدعوته فلبسهما ، ثم ولى يذهب ، فقال رسول الله ﷺ : « ما له ؟ ضُرِب عنقه ، أليس هذا خيراً له ؟ » قال : فسمعه الرجل فقال : يا رسول الله في سبيل الله ؟ ـ أي : ضرب الله عنقه في سبيل الله ـ .

فقال رسول الله ﷺ : « في سبيل الله » قال : فقتل الرجل في سبيل الله .

وعن مالك أنه بلغه أن عمر بن الخطاب قال : (إني لأحبُّ أن أنظر إلى القارىء أبيضَ الثياب) .

وقال عمر بن الخطاب : (إذا أوسع الله عليكم فأوسعوا على أنفسكم : جمع رجل عليه ثيابه) ـ أي : إن جمع عليه ثيابه فحسن .

---

(١) أي : وجد في العدل من القثاء ، وهو اسم لما يقال له الخيار والعجور والفقوس ، اهـ ، كما في شرح الزرقاني على (الموطأ) .

(٢) بفتح العين وسكون التحتية فموحدة : المستودع للثياب .

وروى أبو نعيم وابن لال وغيرهما عن ابن عمر مرفوعاً : « إن المؤمن أخذ عن الله أدباً حسناً ، إذا وسَّع عليه وسَّع على نفسه »[1] .

وروى الحاكم بإسناده عن سهل بن الحنظلية عن النبي ﷺ أنه قال : « أحسنو لباسكم ، وأصلحوا رحالكم ، حتى تكونوا كأنكم شامةٌ في الناس »[2] .

وروى الطبراني والبيهقي عن عمران بن حصين رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : « إن الله إذا أنعم على عبد نعمة يحب أن يرى أثر نعمته على عبده » .

وروى البيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إن الله تعالى إذا أنعم على عبد نعمة يحب أن يرى أثر النعمة ، ويكره البؤس والتباؤس ، ويُبغض السائل المُلحِف ، ويحب الحييّ العفيف المتعفف » .

قوة بصره الشريف ﷺ

قال الله تعالى : ﴿ ما زاغَ البصرُ وما طغى ﴾ .

فقد وصفه الله تعالى ـ وهو ﷺ في المشهد الأعلى ـ بأنه ما زاغ بصره ؛ أي : لم يحَرْ ، وما طغى ؛ أي : لم يجاوز المنظور إليه ، المتجلِّي عليه ، وفي هذا دليل قوة بصره وثباته ، لأنَّ البصر إذا بهره النور الساطع : إما أن يزيغ ويحار ، وإما أن يجاوز المنظور إلى غيره كللاً

(١) انظر شرح الزرقاني على (الموطأ) .
(٢) انظر (الفتح الكبير) .

وضعفاً منه ، فلم يقع منه ﷺ شيء من ذلك ، لما أعطاه الله تعالى من القوة في بصره .

ومن خصائصه البصرية : أنه كان يرى ما لا يرى غيره ، كما في سنن الترمذي وغيرها عن أبي ذر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « إني أرى ما لا ترون ، وأسمع ما لا تسمعون . . » الحديث .

فكان يرى جبريل والملائكة الكرام دون أن تتمثل بصورة :

روى الإمام أحمد عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال : (رأى رسول الله ﷺ جبريل في صورته ، وله ستمائة جناح ، كلُّ جناحٍ منها قد سدَّ الأفق ، يسقط من جناحه من التهاويل والدّر والياقوت ، ما الله به عليم) .

أما رؤيته الملائكة : فمن ذلك ما جاء عن أنس رضي الله عنه قال : (كنت مع النبي ﷺ جالساً في الحلقة ، إذ جاء رجل فسلم على النبي ﷺ والقوم ، فقال : السلام عليكم ورحمة الله .

فردَّ النبي ﷺ : « وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته » .

فلما جلس الرجل قال : الحمد لله حمداً كثيراً طيِّباً مباركاً فيه ، كما نحبُّ ربُّنا أن يُحمد وينبغي له .

فقال له ﷺ : « كيف قلت ؟ » فردَّ عليه كما قال .

فقال النبي ﷺ : « والذي نفسي بيده ، لقد ابتدرها ـ أي : أسرع إليها ـ عشرة أملاك ، كلُّهم حريصٌ على أن يكتبها ، فما دَرَوْا كيف يكتبونها ، حتى رفعوها إلى ذي العزَّة ، فقال : اكتبوها كما قال

عبدي »)[1] .

ومن ذلك رؤيته الملائكة تغسِّل حنظلة الشهيد رضي الله عنه ، ورؤيته جعفر ابن أبي طالب رضي الله عنه يطير في الجنة مع الملائكة بجناحين .

كما وأنه ﷺ كان يرى الأبعاد الشاسعة بقوة وعناية ربانية :

ففي الصحيحين عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لما كذبتني قريش قمتُ في الحِجْر ، فجلى لي الله ـ أي : أظهر لي ـ بيت المقدس ، فطفقتُ أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه » .

فهو ﷺ في مكة عند الحِجْر يرى بيت المقدس جلياً

كما وأنه ﷺ أراه الله تعالى مشارق الأرض ومغاربها :

ففي صحيح مسلم وغيره عن ثوبان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله زَوَى ـ أي : جمع ـ لي الأرض ، فرأيت مشارقها ومغاربها ، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زُوِيَ لي منها . . » الحديث .

وروى الطبراني عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « إنَّ الله تعالى قد رفع ليَ الدنيا ، فأنا أنظر إليها وإلى ما هو كائن فيها إلى يوم القيامة ، كأنما أنظر إلى كفي هذه »[2] .

---

(١) قال الحافظ المنذري : رواه أحمد ورواته ثقات ، والنسائي وابن حبان في (صحيحه) إلا أنهما قالا : «كما يحب ربنا ويرضى» .

(٢) انظر شرح الزرقاني على (المواهب) الجزء السابع .

وكان ﷺ يرى من ورائه كما يرى من أمامه :

ففي الصحيحين ـ واللفظ لمسلم ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « هل تَرَون قِبلتي ها هنا ؟ فو الله ما يخفى عليَّ ركوعكم ولا سجودكم إني لأراكم من وراء ظهري » .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : صلى بنا رسول الله ﷺ يوماً ثم انصرف ، فقال : « يا فلان ألا تحسن صلاتك ؟ ألا ينظر المصلي إذا صلى كيف يصلي ؟! فإنما يصلي لنفسه ؟! إني والله لأبصر من ورائي كما أبصر من بين يديَّ » .

وروى مسلم عن أنس رضي الله عنه قال : صلى بنا رسول الله ذات يوم ، فلما قضى الصلاة أقبل علينا بوجهه فقال : « يا أيها الناس إني إمامُكم فلا تسبقوني بالركوع ولا بالسجود ، ولا بالقيام ولا بالانصراف[1] ، فإني أراكم أمامي ومن خلفي ، ثم قال : والذي نفس محمد بيده لو رأيتم ما رأيتُ لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً » قالوا : وما رأيتَ يا رسول الله ؟ قال : « رأيت الجنة والنار » .

حول قوة سمعه الشريف ﷺ

إنَّ الله تعالى أعطى رسوله سيدنا محمداً ﷺ قوة في السمع خاصةً ، فكان يسمع ما لا يسمع غيره :

فعن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إني أرى

---

(١) بالتسليم آخر الصلاة ، أو المراد به : الخروج من المسجد بعد السلام ، لاحتمال التذكير أو التنبيه على أمر يهمهم .

ما لا ترون ، وأسمع ما لا تسمعون ، أطّتِ[1] السماء ، وحُقَّ لها أن تَئِطَّ ، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وفيه ملك واضعٌ جبهته لله تعالى ساجداً ، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ، ولبكيتم كثيراً ، ولخرجتم إلى الصُّعُدات تجأرون إلى الله تعالى »[2] .

ومن ذلك سماعه ﷺ فتح باب السماء :

روى الطبراني بإسناد حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان رسول الله ﷺ ذات يوم وجبريل على الصفا ، فقال : « يا جبريل والذي بعثك بالحق ما أمسى لآل محمد سَفة من دقيق ، ولا كفّ من سويق » فلم يكن كلامه بأسرعَ من أن سمع هدَّةً في السماء أفزعته ، فقال ﷺ : « أمر الله تعالى القيامة أن تقوم ؟ » فقال ـ جبريل ـ : « لا ، ولكن أمر إسرافيل ، فنزل إليك بمفاتيح خزائن الأرض ، وأمرني أن أعرض عليك ، أُسيِّر معك جبال تِهامة زمرداً وياقوتاً ، وذهباً وفضة ، فإن شئتَ نبيّاً ملِكاً ، وإن شئتَ نبيّاً عبداً » فأومأ إليه جبريل : أن تواضع ، فقال : « بل نبياً عبداً ـ ثلاثاً ـ فلو أني قلت : نبيّاً ملِكاً لسارت الجبال معي ذهباً »[3] .

---

(١) أي : ظهر لها صوت من كثرة الملائكة فوقها ، وهو مشتق من الأطيط : صوت الرحل .

(٢) رواه الترمذي وأحمد وغيرهما ، ومعنى تجأرون : تستغيثون وتلجأون .

(٣) قال الحافظ المنذري : رواه الطبراني بإسناد حسن ، والبيهقي في (الزهد) وغيره ، ونحو ذلك أيضاً في شرح الزرقاني ، ثم أورد المنذري رواية ابن حبان في (صحيحه) أيضاً .

ومن ذلك سماعه عذاب المشركين في قبورهم :

روى مسلم عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال : بينا رسولُ الله ﷺ في حائط لبني النجار ونحن معه ، إذ جادتْ به بغلته فكادت تُلقيه ، وإذا أقبُرُ ستة أو خمسة ، فقال ﷺ : « من يعرف أصحاب هذه القبور ؟ » فقال رجل : أنا .

فقال ﷺ : « متى ماتوا ؟ » قال : في الشرك ، فقال ﷺ : « إن هذه الأمة تُبْتَلى في قبورها ، فلولا أنْ لا تَدافَنُوا ، لدعوتُ الله أن يُسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع منه . . . » الحديث .

فكان ﷺ يسمع عذاب المعذَّبين في قبورهم ، وبيَّن أنه لولا خشية أن لا يَدفن بعضهم بعضاً إذا سمعوا عذاب القبرِ : لدعا الله أن يسمعهم ذلك ، ولكن إذا سمعوا عذاب القبر اعتراهم الخوف والفزع ، وذلك مما يؤدّي إلى ترك دفن بعضهم مخافةً من سماع ذلك .

ومن ذلك سماعه ﷺ هدَّة صخرة هوتْ من شفير جهنم :

فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : سمع رسول الله ﷺ صوتاً هالَه ـ أي : أفزعه ـ فأتاه جبريل عليه السلام ، فقال رسول الله ﷺ : « ما هذا الصوت يا جبريل ؟ » فقال : « هذه صخرة هوَتْ من شفير جهنم ، من سبعين عاماً ، فهذا حين بلغت قعرها ، فأحبَّ الله أن يسمعك صوتها ، فما رُؤِيَ رسول الله ﷺ ضاحكاً مِلء فيه حتى قبضه الله عز وجلَّ »[1] .

---

(١) عزاه الحافظ المنذري للطبراني بهذا اللفظ ، وعزاه الحافظ الزرقاني إلى ابن أبي =

ومن ذلك سماعه ﷺ عذاب المقبورين النمامين والغيابين ، والذين لا يستنزهون ولا يسترون من البول :

روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ مرَّ بحائط من حيطان مكة أو المدينة ، فسمع صوت إنسانين يُعَذَّبان في قبورهما ، فقال النبي ﷺ : « إنهما ليعذبان وما يعذَّبان في كبير[1] ، ثم قال : بلى كان أحدهما لا يستتر من بوله ، وكان الآخر يمشي بالنميمة » .

وروى الإمام أحمد عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : مرَّ النبي ﷺ في يوم شديد الحر نحو بقيع الغَرْقَد ، وكان الناس يمشون خلفه ، قال : فلما سمع صوت النعال وَقَرَ ذلك في نفسه ، فجلس حتى قدَّمهم أمامه ، فلمّا مرَّ ببقيع الغرقد إذا بقبرين قد دفنوا فيهما رجلين ، قال : فوقف النبي ﷺ فقال : « مَنْ دفنتم ههنا اليوم ؟ » قالوا : فلان وفلان .

قالوا : يا نبي الله وما ذاك ؟! قال : « أما أحدهما فكان لا يتنزَّه من البول ، وأمّا الآخر فكان يمشي بالنميمة » .

وأخذ جريدةً رطبةً فشقها ، ثم جعلها على القبرين ، قالوا : يا نبي الله لِمَ فعلتَ هذا ؟ قال : « ليُخَففَ عنهما » قالوا : يا رسول الله

= شيبة برجال ثقات .

(١) قال العلامة الخَطابي قوله : « وما يعذبان في كبير » : إنهما لم يعذبا في أمر كان يكبر عليهما أويشق فعله لو أرادا أن يفعلاه وهو التنزه من البول وترك النميمة ـ ولم يرد أن المعصية في هاتين الخصلتين ليست بكبيرة في حق الدين ، وأن الذنب فيهما هين سهل اهـ .

حتى متى هما يعذبان ؟ فقال : « غيب لا يعلمه إلا الله ، ولولا تمزُّعُ ـ أي : تَقَطُّعُ ـ قلوبكم وتزيُّدكم في الحديث لسمعتم ما أسمع » .

حول صوته الشريف ﷺ

كان صوت النبي ﷺ على غايةٍ من الحسن ، وقد أعطاه الله تعالى قدرة في الإسماع ، وبلوغ صوته المسافات الشاسعة ، والأماكن الواسعة ، التي لا يبلغها صوت غيره .

روى الترمذي عن أنس رضي الله عنه قال : (ما بعثَ الله نبياً إلا حسنَ الوجه حسن الصوت ، وكان نبيكم أحسنهم وجهاً[1] وأحسنهم صوتاً) .

وفي الصحيحين عن البراء بن عازب رضي الله عنه : (قرأ رسول الله ﷺ في العشاء ﴿ والتين والزيتون ﴾ فلم أسمع صوتاً أحسنَ منه) .

وروى أبو الحسن بن الضحاك عن جبير بن مطعم قال : (كان

(١) وأما قوله ﷺ في حديث المعراج ، في يوسف : « فإذا أنا برجل ـ أي : يوسف عليه السلام ـ أحسن ما خلق الله ، قد فضل الناس بالحسن ، كالقمر ليلة البدر على سائر الكواكب » ـ كما في رواية البيهقي والطبراني وابن عائذ ـ فيحمل ذلك على أن المراد غير النبي ﷺ » ، ويؤيده القول بأن المتكلم لا يدخل في عموم خطابه ، ويشهد له قوله ﷺ في رواية مسلم : « فإذا هو ـ يوسف ـ قد أعطي شطر الحسن » . قال ابن المنير : المراد أن يوسف أعطي شطر الحسن الذي أوتيه نبينا ﷺ . انظر كلام الحافظ ابن حجر في (فتح الباري) .

النبي ﷺ حسن النغمة[1]) .

وفي حديث أم معبد المتقدم : كان في صوته ﷺ صَحَل[2] .

وكان صوته ﷺ يبلغ حيث لا يبلغه صوت غيره :

فعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال : (خطبنا رسول الله ﷺ حتى أسمع العواتق في خدورهنَّ)[3] .

وعن عبد الرحمن بن معاذ التيمي رضي الله عنه قال : خطبنا رسول الله ﷺ بمنى ففتّحت أسماعنا حتى كنا نسمع ما يقول ، ونحن في منازلنا ، فطفِق يعلمهم مناسكهم ، حتى بلغ الجمار فوضع أصبعيه السبابتين ثم قال : « ارموا بحصى الخَذْف »[4] .

وروى أبو نعيم عن عائشة رضي الله عنها قالت : جلس رسول الله ﷺ يوم الجمعة على المنبر فقال للناس : « اجلسوا » فسمعه

(١) انظر شرح المواهب .

(٢) قال ابن الأثير : الصحل ـ بفتح الصاد والحاء ـ كالبحة ، وأن لا يكون حاد الصوت .

(٣) رواه البيهقي ، والعواتق : جمع عاتق وهي الشابة أول ما تدرك ، وقيل : التي لم تنفصل عن والديها ولم تتزوج ، وقد أدركت وشبت . وأما الخدور : فجمع خدر وهو الستر ، ويطلق على البيت إن كان فيه امرأة ؛ وإلا فلا ، وإنما خصهن البراء بالذكر لبعدهن واحتجابهن في البيوت ، فسماعهن صوت النبي ﷺ ـ وهو في المسجد وهن في خدورهن ـ آية دالة على قوة صوته ﷺ وبلوغه حيث لا يبلغه صوت غيره اهـ كما في شرح الزرقاني على (المواهب) .

(٤) رواه أبو داود والنسائي وأحمد ، كما في شرح (المواهب) .

عبد الله بن رواحة وهو في بني غَنْم[1] فجلس مكانه[2] .

وروى ابن ماجه عن أم هانىء رضي الله عنها قالت : كنا نسمع قراءة النبي ﷺ في جوف الليل عند الكعبة وأنا على عريشي ـ أي : على سريري ـ .

فسماعها ذلك ـ وهي داخل بيتها البعيد عن مكان القراءة ـ دليل على أن صوته الشريف كان يبلغ مكاناً لا يبلغه غيره ـ فسبحان من خصه بالخصائص الكبرى والآيات العظمى ﷺ ! .

حلاوة منطقه ﷺ

كان رسول الله ﷺ حلوَ المنطق ، حسنَ الكلام ، إذا تكلّم أخذ بمجامع القلوب ، وسبى الأرواح والعقول .

وكان إذا تكلم يخرج النور من بين ثناياه .

فعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : (كان رسول الله ﷺ أفلج الثَّنِيَّتين ، إذا تكلم رىء[3] كالنور يخرج من بين ثناياه)[4] .

(١) بمعجمه مفتوحة فنون ساكنة فميم ، بطن من الخزرج ، كما في شرح (المواهب) .

(٢) وهذا مبادرة في امتثال أمره ﷺ مع أنه ليس مأموراً بذلك ، لأن أمره ﷺ موجه للحاضرين للخطبة بالجلوس ، ولكن كمال الأدب يقتضي ذلك ، فانظر أدب الصحابة معه ﷺ .

(٣) على وزن « قيل » على الأفصح ، ويقال : بضم الراء وكسر الهمزة اهـ ، كما في شرح (المواهب) .

(٤) عزاه الحافظ الزرقاني إلى الترمذي والدارمي والطبراني .

وعن أبي قِرْصافة أنه قال : لما بايعنا رسول الله ﷺ أنا وأمي وخالتي ورجعنا من عنده منصرفين ، قالت لي أمي وخالتي : يا بني ما رأينا مثلَ هذا الرجل أحسنَ منه وجهاً ، ولا أنقى منه ثوباً ، ولا ألين كلاماً ، ورأينا كأنَّ النور يخرج من فيه[1] ﷺ .

فصاحة لسانه وبلاغة كلامه ﷺ

كان رسول الله ﷺ أفصحَ خلق الله تعالى لساناً ، وأوضحهم بياناً ، أُوتي جوامع الكلم ، وبدائع الحِكم ، وقوارع الزجر ، وقواطع الأمر ، والقضايا المحكمة ، والوصايا المبرمة ، والمواعظ البالغة ، والحجج الدامغة ، والبراهين القاطعة ، والأدلة الساطعة .

جاء في (المسند) وغيره عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً كالمودّع فقال : « أنا محمد النبي الأمي ـ قالها ثلاثاً ـ ولا نبي بعدي ، أوتيت فواتحَ الكَلِم ، وخواتمه ، وجوامعه . . » الحديث .

فكيف لا يكون أفصح خلق الله تعالى ، وقد آتاه الله تعالى الكلم الجامع للمعاني الكثيرة ، في الألفاظ اليسيرة .

وفي حديث عمر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال وهو على المنبر : « يا أيها الناس إني قد أعطيتُ جوامع الكلم وخواتيمه ، واختُصِرَ ليَ اختصاراً ، ولقد أتيتكم بها ـ أي: الشريعة ـ بيضاءَ نقيَّةً ، فلا تَهَوَّكوا ،

(١) قال في (مجمع الزوائد) : رواه الطبراني وفيه ما لم يسم .

ولا يضرَّنَّكم المتهوِّكون . . » الحديث[1] .

وروى أبو نعيم في (تاريخ أصبهان) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال عمر : يا نبيَّ الله مالَكَ أَفْصَحَنا ولم تخرج من بين أظهرنا ؟ فقال ﷺ : « كانت لغة إسماعيل قد دَرَسَتْ ، فجاءني بها جبريل ، فحفظتها »[2] .

قال الحافظ الزرقاني : بل زاد رسول الله ﷺ على ذلك ، فكان يخاطب كلَّ ذي لغة بلغته ، اتساعاً في الفصاحة ـ أي : واتساعاً في اطلاعه ﷺ على جميع لغات العرب ، ولهجاتهم الفصيحة ، كما ورد في (المسند) وغيره : عن كعب بن عاصم الأشعري رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ليس من امبر امصيام في امسفر »[3] .

ومن ذلك حديث عطية بن عروة السّعدي أن النبي ﷺ قال فيما قال له : « فإن اليد العليا هي المنطية ، والسفلى هي المنطاة » قال : فكلَّمنا

(١) وقد أورد الحافظ ابن كثير الحديث بطوله معزواً لأبي يعلى ، ثم قال : ورواه ابن أبي حاتم وله شواهد ، والتهوك : التَحَيّر ، أو الدخول في كل أمر .

(٢) قال الحافظ الزرقاني : رواه أبو نعيم في (تاريخ اصبهان) بإسناد ضعيف ، وكذا ابن عساكر وأبو أحمد الغطريف بلفظ : « إن لغة إسماعيل كانت درست ، فأتاني بها جبريل فحفظتها » اهـ من شرح المواهب ، وفيه : أخرج الزبير بن بكار بسند جيد عن أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه مرفوعاً : « أول من فتق الله لسانه بالعربية البينة إسماعيل » .

(٣) بإبدال اللام ميماً في الثلاثة ، على لغة بعض أهل اليمن ، حيث خاطبهم النبي ﷺ بلغتهم ، وأصل هذا الحديث في الصحيحين .

رسول الله ﷺ بلغتنا ، أي : بلغة بني سعد ، وهي إبدال العين نوناً[1] .

آدابه في الكلام ﷺ

كان ﷺ يتكلم بكلام مفصَّل مبيّن ، بحيث لو أراد مستمعه أن يعدّه لأمكنه ذلك ، لوضوحه وبيانه .

قالت السيدة عائشة رضي الله عنها : (ما كان رسول الله ﷺ يسرد الحديث كسردكم هذا ، يحدِّث حديثاً لو عدَّه العادُّ لأحصاه) رواه الشيخان وزاد الإسماعيلي في روايته : إنما كان حديث رسول الله ﷺ فَهْماً تفهمه القلوب .

وروى أبو داود عن عائشة رضي الله عنها قالت : (كان كلامه ﷺ فصلاً يفهمه كل من سمعه) .

وروى عن جابر رضي الله عنه قال : (كان في كلامه ﷺ ترتيل أو تَرْسيل) .

وفي الصحيحين عن أنس : (أن النبي ﷺ كان إذا تكلَّم بكلمة أعادها ثلاثاً[2] حتى تُفهَم عنه ، وإذا أتى على قوم فسلَّم عليهم ، سلَّم

(١) وقد أورد هذا الحديث بتمامه في شرح المواهب ، وعزاه إلى عبد البر والحاكم ، قال الحافظ القسطلاني : وقد كان هذا من خصائصه ﷺ : أن يكلم كل ذي لغة بلغته ، على اختلاف لغة العرب ، وتراكيب ألفاظها وأساليب كلمها ، اهـ .

(٢) ومن حكمة ذلك : أن تكون الأولى للإسماع ، والثانية للوعي ، والثالثة للفكرة . أو : الأولى للإسماع ، والثانية للتنبيه ، والثالثة للأمر ؛ على أن الثلاثة فيها غاية الاعذار والبيان ، فمن لم يفهم بها لا يفهم بما زيد عليها .

عليهم ثلاثاً ، وكان ﷺ يتكلَّم بكلام فَصْل لا هَزْر ولا نَزْر ، ويَكره الثرثرة في الكلام ، والتشدق به) .

وكان ﷺ يكره التنطُّعَ في الكلام والتكلفَ في فصاحته ، كما ورد في (سنن) أبي داود والترمذي بالسند الجيد عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « إنَّ الله عز وجل يُبغض البليغ من الرجال : الذي يتخلَّل بلسانه كما تتخلَّل البقر بلسانها »[1] .

وكان ﷺ إذا خطب لا يُخِلّ ولا يُمِلّ :

روى مسلم عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال : (كنت أصلي مع النبي ﷺ فكانت صلاته قَصْداً ، وخطبته قَصْداً) ـ أي : وسطاً .

وروى أبو داود عن جابر بن سمرة رضي الله عنه : (كان رسول الله ﷺ لا يُطيل الموعظة يوم الجمعة ، إنما هي كلمات يسيرات) .

وروى الإمام أحمد وأبو داود من حديث حكيم بن حزام رضي الله عنه قال : (شهدت مع رسول الله ﷺ الجمعة ، فقام متوكئاً على عصاً ـ أو قوس ـ فحمد الله وأثنى عليه ، كلمات خفيفات ، طيبات ، مباركات) .

حاله ﷺ وهو يخطب :

كان ﷺ يتغير حاله عند الموعظة ، اهتماماً وإعظاماً ، ويُعْرف ذلك في وجهه ﷺ .

(١) قال في (النهاية) : هو الذي يتشدق في الكلام ، ويفخم به لسانه ، ويلفه ، كما تلف البقرة الكلأ بلسانها لفاً اهـ .

روى مسلم عن جابر رضي الله عنه : كان رسول الله ﷺ إذا خطب اشتدَّ غضبه ، وعلا صوته ، واحمرَّت عيناه ، كأنه منذرُ جيشٍ يقول : صبَّحكم ومسَّاكم .

وروى الطبراني والبزار عن جابر : كان النبي ﷺ إذا أتاه الوحي أو وعظ : قلتَ نذير قوم أتاهم العذاب ، فإذا ذهب عنه ذلك رأيتَه أطلقَ الناس وجهاً ، وأكثرهم ضحكاً ، وأحسنهم بِشْراً[1] .

وروى الإمام أحمد عن الزبير بن العوّام قال : كان رسول الله ﷺ يخطبنا ، فيذكّرنا بأيام الله ، حتى يعرف ذلك من وجهه ، وكأنه نذير قوم يُصَبِّحهم الأمر غدوة ، وكان إذا كان حديثَ عهد بجبريل ، لم يتبسَّم ضاحكاً حتى يرتفع عنه .

قوَّة وعظه وتذكيره وتأثيره في الصحابة :

كان ﷺ إذا وعظ أثر في قلوب السامعين ، وطيَّب نفوسهم ، حتى إنهم لتذرِفُ دموعهم ، وترِقُّ وتخشع قلوبهم ، ويرتقي الحال بهم إلى المشاهدات والمعاينات .

فعن حنظلة بن الربيع قال : (لقيني أبو بكر الصديق فقال لي : كيف أنت يا حنظلة ؟ فقلت له : نافَق حنظلة . فقال لي : انظر ما تقول !!! فقلت له : نكون عند رسول الله ﷺ يذكّرنا بالنار والجنة كأنا رأي عين ، فإذا خرجنا من عنده عافَسْنا الأزواج والأولاد والضَّيْعات ، ونسينا كثيراً) الحديث .

(١) انظر (جامع العلوم والحكم) .

وروى الترمذي عن العِرْباض بن سارية أنه قال : (وَعَظنا رسول الله ﷺ موعظةً وجِلت منها القلوب ، وذرَفت منها العيون) .

وفي رواية لغير الترمذي : (وعظنا رسول الله ﷺ موعظة مضَّت - احترقت - منها الجلود ، وذرفت منها العيون ، ووجِلت منها القلوب) .

فقلنا : (كأن هذه موعظة مودع يا رسول الله ، فماذا تعهد إلينا ؟) .

فقال : « أنِ اتقوا الله ، وأنْ تتبعوا سنتي وسنة الخلفاء الهادية المهدية من بعدي ، عضُّوا عليها بالنواجذ ، فإنَّ كلَّ بدعة ضلالة »[1] .

وقال أُسَيْد بن حُضير : لو أني أكون على أحوالٍ ثلاثة من أحوالي ، لكنت من أهل الجنة : حين أقرأ القرآن وحين أسمعه ، وإذا سمعت خطبة رسول الله ﷺ ، وإذا شهدت جنازة .

بل كانت خُطَبه ومواعظه ﷺ تؤثر في الجمادات ، كما ورد في المسند - وأصله في مسلم - عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : (إن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر ﴿ وما قدَرُوا الله حقَّ قدْره ، والأرْضُ جميعاً قبضتُهُ يومَ القيامة ، والسَّمواتُ مطويَّاتٌ بيمينه ، سُبحانَهُ وتعالى عمَّا يُشرِكون ﴾ ورسول الله ﷺ يقول هكذا بيده : يحركها ، يقبل بها ويدبر :

يمجِّدُ الرَّبُّ نفسَه : أنا الجبار ، أنا المتكبر ، أنا المَلِك ، أنا العزيز ،

(١) وانظر الجزء الثالث من (المطالب العالية) .

أنا الكريم ، فرجف برسول الله ﷺ المنبر ، حتى قلنا ليخرَّنَّ به ! أساقط هو برسول الله ﷺ ؟) كما في رواية مسلم .

فالمنبر يهتز تأثراً بوعظه وتذكيره ﷺ فويل للقلوب التي لا تهتزُّ بمواعظه ﷺ .

تنبيهه ﷺ الخطباء والواعظين إلى مسئوليتهم عند رب العالمين :

لما كانت مواقف الخطابة والوعظ والتذكير مواقف مهمة خطيرة ، لذلك كان ﷺ ينبه الخطباء إلى إخلاص النية في خطبهم ، وأن وراء ذلك مسؤوليةً عند رب العالمين :

روى ابن أبي الدنيا والبيهقي مرسلاً بإسناد جيد[1] عن مالك بن دينار عن الحسن رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من عبد يخطب خطبة إلا الله سائله عنها يوم القيامة ، ما أراد بها ؟ » .

قال : فكان مالك بن دينار إذا حدَّث بهذا الحديث بكى ثم يقول : تحسبون أنَ عيني تَقَرُّ بكلامي عليكم ، وأنا أعلم أنَّ الله عزَّ وجل سائلي عنه يوم القيامة : ما أردتَ به ؟ فأقول : أنت الشهيد على قلبي ، لو لم أعلم أنه أحبُّ إليك ، لم أقرأ به على اثنين أبداً .

كما وأنه ﷺ حذَّر من تصنع الكلام ليسبيَ به قلوب الرجال :

فروى أبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَن تعلَّم صَرْفَ الكلام ليَسبيَ به قلوب الرجال ـ أو

(١) كما في ترغيب المنذري ١ : ١٢٥

الناس ـ لم يقبل الله منه يوم القيامة صَرْفاً ولا عَدْلاً »[1] .

مدحه ﷺ الفصاحة وكراهيته اللحن

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قلنا : يا رسول الله ما رأينا أفصَح منك ؟ فقال : « إنَّ الله تعالى لم يجعلني لحّاناً[2] ، اختار لي خير الكلام : كتابَه القرآن »[3]

وفي (المستدرك) عن علي بن الحسين رضي الله عنهما : أقبل العباس رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ وعليه حُلَّتان ، وله ضفيرتان ، وهو أبيض ، فلما رآه تبسَّم ، فقال العباس : يا رسول الله ما أضحكك ؟ أضحك الله سنَّك .

فقال : « أعجبني جمالُ عم النبي » ﷺ .

فقال العباس : ما الجمالُ ؟ قال : « اللسان »[4] .

وعند العسكري : ما الجمال في الرجل ؟ قال : « فصاحة لسانه »[5] .

(١) قال في (النهاية) : قد تكررت هاتان اللفظتان في الحديث : فالصرف : التوبة ، وقيل : النافلة ، والعدل : الفدية ، وقيل : الفريضة .

(٢) أي : بل جعل لساني لساناً عربياً مبيناً .

(٣) عزاه في (الجامع الصغير) وشرحه إلى الشيرازي في (الألقاب) وإلى الديلمي في (الفردوس) .

(٤) قال الحافظ الزرقاني : وهو حديث مرسل .

(٥) ورواه القضاعي والخطيب ، وروى الديلمي من حديث جابر مرفوعاً : « الجمال : صواب المقال ، والكمال : حسن الفعال بالصدق » . وروى =

وقد جمع علماء السلف رضي الله عنهم الدواوين الجامعة لبعض جوامِعِ كَلِمِه ﷺ ، ونحن نذكر منها أربعين حديثاً ، لعل الله تعالى يكتب لنا أجر ما ورد في الحديث الذي رواه ابن النجار عن أبي سعيد رضي الله عنه أنَّ النبي ﷺ قال : « مَن حفظ على أمتي أربعين حديثاً من سنتي ، أدخلته يوم القيامة في شفاعتي » .

وفي رواية ابن عدي عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال : « مَنْ حفظ على أمتي أربعين حديثاً من السنة كنت له شفيعاً وشهيداً يوم القيامة »[1] .

= العسكري عن ابن عمر : مر عمر بقوم يرمون ، فقال : بئسما رميتم ، فقالوا : إنا متعلمين ، فقال عمر : لذنبكم في لحنكم أشد علي من ذنبكم في رميكم ، سمعت النبي ﷺ يقول : « رحم الله امرءاً أصلح من لسانه » اهـ ، كما في شرح المواهب .

(١) قال الإمام النووي : طرقه كلها ضعيفة ، وقال ابن عساكر : الحديث روي عن علي وعمر وأنس ، وابن عباس وابن مسعود ، ومعاذ ، وأبي أمامة ، وأبي الدرداء ، وأبي سعيد ، بأسانيد فيها كلها مقال ، ليس للتصحيح فيها مجال ، لكن كثرة طرقه تقويه ، وأجود طرقه خبر معاذ مع ضعفه ، اهـ كما في شرح (فيض القدير) وانظر كلام العلامة ابن حجر المكي في شرحه على الأربعين .

وعلى القول بأنه ضعيف ـ مع تعدد طرقه ـ فإن الجمهور على أن الضعيف يعمل به في فضائل الأعمال ، كما هو مفصل في شرحنا على (البيقونية) .

الحديث الأول

في وصيته ﷺ لابن عباس

يبين له فيها ما يجب أن يكون عليه المؤمن مع الله تعالى

روى الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كنت خلف النبي ﷺ يوماً فقال لي : « يا غلام إني أعلمك كلماتٍ : احفَظِ الله يحفَظْك ، احفَظِ الله تجِدْهُ تُجاهَك ، إذا سألتَ فاسألِ الله ، وإذا استعنْتَ فاستعِنْ بالله ، واعلمْ أنَّ الأمَّةَ لو اجتمعتْ على أن ينفعوكَ بشيءٍ ، لم ينفعوك إلا بشيءٍ قد كتبه الله لك ؛ وإن اجتمعتْ على أن يضرُّوك بشيءٍ لم يضروك إلا بشيءٍ قد كتبه الله عليك ، رُفِعت الأقلامُ وجفَّت الصُّحُف » .

زاد الإمام أحمد في روايته : « تعرَّفْ إلى الله في الرَّخاءِ يعْرِفْك في الشدَّة ؛ واعلم أنَّ الصبر على ما تكره خير كثير ؛ وأنَّ النصر مع الصَّبر ، وأنَّ الفَرَجَ مع الكَرْب ، وأنَّ مع العُسرِ يُسراً » .

الحديث الثاني

في وصيته ﷺ لابن عمر رضي الله عنهما

روى الترمذي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي[1] فقال : « كُنْ في الدُّنيا كأنَّك غريبٌ ، أو عابرُ سبيل ، وعُدَّ نفسك من أهل القبور » .

---

(١) يروى بالإفراد والتثنية .

وفي رواية النسائي وأحمد زيادة في أوله : « اعْبُدِ الله كأنَّك تراه » .

وهذه الوصية فيها بيان مراحل السير والسلوك إلى مقام ملك الملوك ، وقد تضمَّنت هذه المراحلُ الثلاثة ؛ جميع منازل السائرين ، ومقامات الواصلين ، ولنا في شرح هذا الحديث بحث واسع نفيس ، نذكره فيما بعد إن شاء الله تعالى .

الحديث الثالث

يبين فيه النبي ﷺ العمل الذي يجعل المسلم محبوباً عند الله ، وعند الناس

روى ابن ماجه عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله دُلَّني على عملٍ إذا عملتُه أحبَّني الله وأحبَّني الناسُ .

فقال : « ازهدْ في الدُّنيا يحبُّك الله ، وازهدْ فيما في أيدي الناس يحبُّك الناس »[1] .

(١) قد رواه ابن أبي الدنيا عن الشيخ إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه ، معضلا ، كما في (ترغيب) المنذري .

الحديث الرابع

يوصي فيه النبي ﷺ أن لا يكون الإنسان كَلًّا على الناس طامعاً فيما عندهم وأن يتوجه بكليته إلى كلٍّ من صلواته ، لأنها ربما كانت آخر صلاته

عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله أوصني .

فقال ﷺ : « عليك بالإياس مما في أيدي الناس ، وإياك والطَّمعَ ، فإنه الفقر الحاضر ، وصلِّ صلاتَك وأنت مُودِّع ، وإيَّاك وما يُعتذر منه »[1] .

الحديث الخامس

يوصي فيه النبي ﷺ بالمبادرة إلى الأعمال الصالحة وعدم التسويف والكسل عنها قبل أن تشغله الشواغل ، أو تمنعه الموانع

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « بادروا

(١) قال الحافظ المنذري : رواه الحاكم والبيهقي في (الزهد) وقال الحاكم ـ واللفظ له ـ صحيح الإسناد ، ورواه الطبراني من حديث ابن عمر . اهـ .

بالأعمالِ سبعاً ![1] هل تنتظرون إلَّا فقراً مُنسياً ، أو غنىً مُطغِياً ، أو مرضاً مُفْسِداً ، أو هرماً مُفْنِداً[2] ، أو موتاً مُجْهِزاً[3] ، أو الدَّجَّالَ فشرُّ غائبٍ يُنتظَر ، أو الساعةَ فالساعةُ أدهى وأمرُّ »[4] .

الحديث السادس

ينهى فيه النبي ﷺ أن يكون الإنسان إمَّعة ، بل يكون محسناً متبعاً للحق

عن حذيفة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تكونوا إمَّعةً[5] : تقولون : إنْ أحسن الناس أحسَنَّا ، وإن ظلموا ظلمنا ـ ولكن وطِّنوا أنفسكم إن أحسنَ الناسُ أن تحسنوا ، وإن أساءوا أن لا تظلموا »[6] .

---

(١) أي : سابقوا وقوع أحد هذه السبعة فيكم ، وذلك باهتمامكم بالأعمال الصالحة واشتغالكم بها ، كما في : (فيض القدير) .

(٢) أي : موقعاً في الكلام المنحرف عن سنن الصحة من الخرف والهذيان .

(٣) أي : سريعاً .

(٤) رواه الترمذي وحسنه ، والحاكم وصحح إسناده كما في (ترغيب) المنذري و (فيض القدير) .

(٥) قال في (النهاية) : الإمعة ـ بكسر الهمزة وتشديد الميم ـ الذي لا رأي له فهو يتابع كل أحد على رأيه ، والهاء فيه للمبالغة ، وقيل : هو الذي يقول لكل أحد : أنا معك . اهـ .

(٦) رواه الترمذي وحسنه ، كما في (الترغيب) وغيره .

الحديث السابع

يوصي فيه النبي ﷺ بالصدق ، ويبين عواقبه الحسنة ويحذِّر من الكذب ، ويبين عواقبه السيئة

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « عليكم بالصِّدق ، فإن الصِّدق يهدي إلى البرِّ ، والبرُّ يهدي إلى الجنَّة ، وما يزالُ الرجلُ يصدُق ويتحرى الصِّدقَ حتى يُكتبَ عند الله صدِّيقاً .

وإيَّاكُم والكذبَ فإنَّ الكذبَ يهدي إلى الفجور ، والفجورُ يهدي إلى النار ، وما يزالُ العبدُ يكذبُ ويتحرَّى الكذبَ حتى يُكتب عند الله كذَّاباً »[1] .

فقد أوصى ﷺ بالصدق : صدقِ الأقوال بموافقتها لواقع الأمر الشرعي ، وصدقِ الأفعال بإخلاص النية فيها لله تعالى ، وصدقِ الأحوال بحصولها عن مراقبةٍ لله تعالى ، ثم بيَّن ﷺ أن التحققَ بالصدق يوصل صاحبه إلى البرِّ ، ومعناه في اللغة : سعة الخير وكثرته ، والمراد به هنا سعة الخير الإيماني ، والتحقق بشُعب الإيمان الكثيرة العظيمة :

قال الله تعالى : ﴿ ولكنَّ البرَّ مَن آمنَ بالله واليوْمِ الآخِرِ ، والملائكةِ والكتابِ والنَّبيِّين ، وآتى المالَ على حبِّه ذوي القُربى واليتامى والمساكين وابنَ السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزَّكاةَ والموفون

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي وصححه ؛ واللفظ له ، كما في (الترغيب) وغيره .

بعهْدِهم إذا عاهدوا والصَّابرين في البأساءِ والضرَّاءِ وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هُم المتَّقون ﴾ .

فانظر في قوله تعالى : ﴿ أولئك الذين صدقوا ﴾ بعدما عدَّد شُعَب البرِّ ، واقْرِنْ بين ذلك وبين الحديث النبوي الذي نحن فيه تفهمِ المراد .

كما بين ﷺ أن من تحقق بالبر الإيماني فإن ذلك يوصله إلى الجنة .

ثم حذَّر النبي ﷺ من الكذب في الأقوال والأعمال والأحوال ، وبين أن ذلك ينتهي بصاحبه إلى الفجور ، ومعناه في الأصل : مجاوزة الشيء حَدَّه ، والمراد هنا أن الكذب يؤدي بصاحبه إلى مجاوزة حدوده الشرعية ، التي حدَّها الله تعالى وأوقفه عندها ، وأن ذلك الفجور يوصل صاحبه إلى النار لا محالة ، فجميع الأقوال والأعمال والأحوال والمقامات ، مرتبط بعضها ببعض ، ويوصل بعضها إلى بعض ، ولها آثارها ، ولها نتائجها في الخير وفي الشرِّ .

الحديث الثامن

في فضل المحبة الإيمانية وأثرها

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله كيف ترى في رجل أحبَّ قوماً ولم يلحق بهم ؟ ـ أي : ولم يستطع أن يعمل بعملهم ـ .

فقال رسول الله ﷺ : « المرء مع من أحبَّ » رواه الشيخان .

وروى الترمذي عن أنس رضي الله عنه قال : رأيت أصحاب رسول الله ﷺ فرحوا بشيء لم أرهم فرحوا بشيءٍ أشدَّ منه .

قال رجل : يا رسول الله : الرجلُ يحب الرجل على العمل من الخير يعمل به ، ولا يعمل بمثله ؟

فقال رسول الله ﷺ : « المرء مع مَنْ أَحَبَّ »[1] .

الحديث التاسع

يحذر فيه النبي ﷺ من سوء الظن ، ويبين ما يجب على المسلم نحو أخيه

عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إياكم والظنَّ فإنَّ الظنَّ أكذبُ الحديث ؛ ولا تحسَّسوا ، ولا تَجَسَّسوا ، ولا تنافسوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، وكونوا ـ عباد الله ـ إخواناً كما أمركم الله .

المسلم أخو المسلم : لا يظلمه ، ولا يخْذُله ، ولا يحقِره ، التقوى ههنا ، التقوى ههنا ، التقوى ههنا ـ ويشير إلى صدره ثلاث مرات ـ بحسب امرئٍ من الشرِّ أن يَحْقِرَ أخاه المسلم ، كلُّ المسلم على المسلم حرام : دمُه وماله وعرضه »[2] .

---

(١) انظر (الترغيب) للحافظ المنذري .

(٢) قال الحافظ المنذري : رواه مالك والبخاري ومسلم ـ واللفظ له ، وهو أتم الروايات ـ وأبو داود والترمذي ، اهـ . والمراد بقول المنذري « وهو أتم =

وفي رواية لمسلم : « إن الله تعالى لا ينظر إلى صُوَرِكم وأموالِكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » .

الحديث العاشر

يوصي فيه النبي ﷺ المؤمن أن يكون حريصاً على ما ينفعه في دينه ودنياه ، مستعيناً على ذلك بالله تعالى وينشطه للعمل ويحذره من العجز والكسل

روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « المؤمنُ القويُّ خير وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير ، احْرِصْ على ما ينفعك ، واستَعِنْ بالله ولا تعجز ، وإن أصابك شيءٌ فلا تقل : لو أني فعلت : كان كذا وكذا ، ولكن قل : قدَّر الله وما شاء فعل ، فإنَّ « لو » تفتح عمل الشيطان » .

الحديث الحادي عشر

في وصيته ﷺ بتقوى الله في السر والعلانية

عن معاذ رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : « اِتَّقِ الله حيثما كنتَ ، وأَتبِعِ السيئةَ الحَسنَةَ تَمْحُها ، وخالِقِ الناسَ بخُلُقٍ حسن » . رواه الترمذي وقال : حسن صحيح .

= الروايات » أي : بعد جمعها إلى بعضها كما يتبين ذلك لمن راجع صحيح مسلم .

وروى الطبراني بإسناد رواته ثقات عن أبي سلمة عن معاذ رضي الله عنه قال : قلت : يا رسول الله أوصني .

قال : « اعبُدِ الله كأنَّكَ تراه ، واعدُدْ نفسَكَ في الموتى ، واذكر الله عند كل حجر ، وعند كل شجر ، وإذا عملتَ سيئةً فاعمل بجنبِها حسنةً : السرُّ بالسرِّ ، والعلانيَةُ بالعلانِيَة »[1] .

الحديث الثاني عشر

في وصيته ﷺ ببر الوالدين والعفة عن التطلع إلى النساء

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « بِرُّوا آباءَكُم ، تَبَرَّكُمْ أَبناؤكُم ، وَعِفُّوا تَعِفَّ نساؤكُمْ »[2] .

الحديث الثالث عشر

يبين فيه النبي ﷺ الصفات التي تجعل صاحبها في ظلِّ الله تعالى

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « سبعةٌ يُظِلُّهُم الله في ظلِّه ، يومَ لا ظِلَّ إلاَّ ظِلُّه : الإمام العادل ، وشاب نشأ في عبادة الله عزَّ وجل ، ورجل قلبه معلَّقٌ بالمساجد ، ورجلان تحابَّا في الله : اجتمعا على ذلك ، وتفرَّقا عليه ، ورجل دعتْه امرأةٌ ذاتُ منصب وجمال فقال : إني أخافُ الله ، ورجلٌ تصدَّق بصدقةٍ

---

(١) كذا في (الترغيب) ، قال : وأبو سلمة لم يدرك معاذاً .

(٢) قال الحافظ المنذري : رواه الطبراني بإسناد حسن ، ورواه أيضاً هو وغيره من حديث عائشة رضي الله عنها . اهـ .

فأخفاها ، حتى لا تعلم شماله ما تُنفِق يمينُه ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضتْ عيناه »[1] .

الحديث الرابع عشر

يحذّر فيه النبي ﷺ الإنسان أن يتكلم بالكلمة دون أن يتبين ما فيها

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إنَّ العبدَ يتكلَّم بالكلمة ما يتبينّ فيها[2] يَزِلُّ بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب » رواه الشيخان .

ورواه الترمذي بلفظ : « إنَّ الرجل ليتكلم بالكلمة لا يرى بها بأساً ، يهوي بها سبعين خريفاً » .

ورواه الحاكم بلفظ : « إنَّ الرجل يتكلم بالكلمة ما يظنُّ أن تبلغ ما بلغتْ ، يهوي بها سبعين خريفاً في النار » .

ورواه البيهقي بلفظ : قال رسول الله ﷺ : « إنَّ العبد ليقول الكلمة ، لا يقولها إلا ليُضحكَ بها المجلسَ يهوي بها أبعد ما بين السماء

(١) رواه الشيخان وغيرهما ، وقد ذكر النبي ﷺ في عدة من الأحاديث ، جملة واسعة من الذين يظلهم الله تعالى في ظله ، جمعها بعض المحدثين فارجع إليها إن شئت .

(٢) قال الحافظ المنذري : قوله « ما يتبين فيها » أي : ما يتفكر هل هي خير أم شر ؟ اهـ .

والأرض ، وإنَّ الرجل ليَزلّ عن لسانه ، أشَدَّ مما يَزِلُّ عن قدميه » .

ورواه أبو الشيخ بإسناد حسن عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « ألا هل عسى رجل منكم أن يتكلَّم بالكلمة ، يُضحِكُ بها القومَ ، فيسقطَ بها أبعد من السماء ، ألا هل عسى رجل منكم يتكلم بالكلمة ، يُضحكُ بها أصحابَه فيَسخطَ اللهُ بها عليه ، لا يرضى عنه حتى يدخله النار »[1] .

الحديث الخامس عشر

يبين فيه النبي ﷺ أحوال الناس في الدنيا وعواقبهم في الآخرة

عن أبي كبشة الأنماري رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « ثلاثٌ أُقسِمُ عليهنَّ وأُحدِّثكم حديثاً فاحفظوه :

قال : ما نَقَصَ مالٌ من صدقةٍ ، ولا ظُلِمَ عبدٌ مظْلَمَةً صبرَ عليها إلاَّ زاده الله عزّاً ، ولا فتح عبد بابَ مسألة[2] إلا فتح الله عليه باب فقرٍ .

قال : وأُحدِّثكم حديثاً فاحفظوه : إنما الدنيا لأربعَةِ نَفَرٍ :

عبدٌ رزقَهُ الله مالاً وعلماً ؛ فهو يتَّقي فيه ربَّه ، ويصلُ فيه رحِمَه ، ويعلم أنَّ لله فيه حقاً ، فهذا بأفضلِ المنازلِ .

(١) انظر جميع هذه الروايات في (الترغيب) للمنذري .

(٢) أي : شحاذة وسؤال مال الناس ؛ ولم يك مضطراً ، أما المضطر : فله أن يسأل قدر الضرورة ، إذا لم يجد ما يسد حاجته بعمل ونحوه .

وعبدٌ رزقَهُ الله علماً ولم يرزقه مالاً ، فهو صادقُ النيَّة يقول : لو أنَّ لي مالاً لعملتُ بعملِ فلان[1] ، فهو بنيَّته ، فأجرهما سواء .

وعبدٌ رزقه الله مالاً ولم يرزقْه علماً ، يخبط في ماله بغير علم ، ولا يتَّقي فيه ربَّه ، ولا يصل فيه رحمه ، ولا يعلم لله فيه حقاً ، فهذا بأخبث المنازل .

وعبدٌ لم يرزقه الله مالاً ولا علماً فهو يقول : لو أنَّ لي مالاً لعملتُ فيه بعملِ فلان ، فهو بنيَّته[2] ، فوِزْرُهما سواء »[3] .

الحديث السادس عشر

يبين فيه النبي ﷺ أنواع عمل الخير وآثارها

عن أبي أُمامة رضي الله عنه قال : قال رسولُ الله ﷺ : « صنائع المعروف : تقي مصارعَ السُّوءِ ، وصدقة السِّرِّ : تطفىءُ غَضَبَ الربِّ ، وصِلة الرحمِ : تزيدُ في العُمُرِ »[4] .

وجاء في رواية أمِّ سلمة رضي الله عنها زيادة على ذلك : « وكلُّ

(١) أي : لتصدقت وعملت من الخيرات ، كما يعمل فلان الغني التقي السخي .

(٢) يعني : أنه نوى أن لو كان عنده مال لخبط فيه وهتك ، وفسق وعمل ما عمل فلان ، أي : في إسرافه على نفسه وفسقه ، فهو بنيته لذلك يلحقه إثم ذلك .

(٣) رواه الترمذي وابن ماجه ، وقال الترمذي : حسن صحيح .

(٤) إلى هنا رواية الطبراني في (الكبير) بإسناد حسن .

معروف صدقة ، وأهل المعروف في الدُّنيا هم أهل المعروفِ في الآخرة ، وأهلُ المنكر في الدُّنيا هم أهلُ المنكر في الآخرة ، وأوَّلُ من يدخل الجنَّة أهل المعروف »[1] .

الحديث السابع عشر

يبين فيه النبي ﷺ وجوب محبته فوق محبة كل مخلوق

عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يؤمِنُ احدُكم حتى أكُونَ أحبَّ إليه من والدِه وولدِه والنَّاسِ أجمعين » متفق عليه .

الحديث الثامن عشر

يبين فيه النبي ﷺ الصفات التي يجد بها المؤمن حلاوة الإيمان

عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « ثلاثٌ مَن كُنَّ فيه وجدَ بهنَّ حلاوَةَ الإيمان : مَن كان الله ورسولُه أحبَّ إليه مما سواهما ، ومن أحبَّ عبداً لا يُحِبُّه إلا لله ، ومَنْ يكرهُ أن يعودَ في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يُقذَف في النَّار » .

وفي رواية : « ثلاثٌ مَن كنَّ فيه وجد حلاوةَ الإيمان وطعمَه : أن يكونَ الله ورسولهُ أحبَّ إليه ممَّا سواهما ، وأن يحبَّ في الله ويبغضَ في

(١) هذه الزيادة رواية الطبراني في (الأوسط) وقد رواها الحافظ المنذري بصيغة « رُوي » .

الله ، وأنْ توقد نارٌ عظيمةٌ فيقعَ فيها ، أحبُّ إليه من يُشركَ بالله شيئاً »[1] .

الحديث التاسع عشر

فيما ورد من حقوق المسلمين على بعضهم

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول ﷺ : « حَقُّ المسلمِ على المسلم ست » قيل : وما هنَّ يا رسول الله ؟

قال : « إذا لقيتَه فسلِّمْ عليه ، وإذا دعاك فأجِبه ، وإذا استنصَحَكَ فانصحْ له ، وإذا عطس فحمِدَ الله تعالى فشَمِّتْه ، وإذا مرضَ فعُدْه ، وإذا ماتَ فاتْبَعْه »[2] .

الحديث العشرون

في التحذير من الحسد والبغضاء
وأن ذلك هو الداء الذي هلكت به الأمم

عن الزبير بن العوام رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « دَبَّ إليكم داءُ الأمم قبلكم : الحسد والبغضاء ، والبغضاءُ هي الحالقة ، لا حالقة الشعر ولكن حالقة الدِّين ، والذي نفسُ محمدٍ بيده :

(١) رواه الشيخان والترمذي والنسائي .
(٢) رواه البخاري بلفظ : « خمس » ومسلم بهذا اللفظ .

لا تدخُلوا الجنَّةَ حتى تؤمِنوا ، ولا تُؤمنوا حتى تحابُّوا ، ألا أُنبِّئكم بشيءٍ إذا فعلتموه تحاببتم ؟ » .

قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : « أفْشوا السَّلامَ بينكم »[1] .

الحديث الحادي والعشرون

في بيان حقوق الطريق وآدابه

عن أبي سعيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إياكم والجلوسَ في الطرقات » .

قالوا : يا رسول الله ما لنا من مجالسنا بُد نتحدَّثُ فيها[2] .

قال : « فإن أبيتم إلَّا المجالسَ ، فأعْطوا الطريقَ حقَّها » .

قالوا : يا رسول الله ، وما حَقُّ الطريق ؟

قال : « غَضُّ البصر ، وكَفُّ الأذى ، وردُّ السلام ، والأمرُ بالمعروف والنهيُ عن المنكر » رواه الشيخان .

وفي رواية أبي داود زيادة : « وإرشادُ السبيل » .

وعند الطبراني : « وإغاثةُ الملهوف » .

(١) رواه الترمذي وأحمد ، ورواه البزار بسند جيد كما في (ترغيب) المنذري و (مجمع الزوائد) ، وصدر الحديث في (صحيح) مسلم وغيره .
(٢) يعنون أنهم قد يضطرون إلى الجلوس فيها للتحدث في أمر مهم .

الحديث الثاني والعشرون

في بيان أن من خاف الله تعالى سعى إلى النجاة من عذابه وذلك بطاعة الله تعالى

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من خاف أدْلج [1] ومن أدلج بلغ المنزل ، ألا إن سلعة الله غالية ، ألا إنَّ سلعة الله الجنَّة »[2] .

الحديث الثالث والعشرون

فيه بيان فضل التفريج عن المسلم والستر عليه ، والتيسير والعون له ، وفضل : طلب العلم والاجتماع على تلاوة كتاب الله تعالى ومدارسته

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ نفَّسَ عن مؤمنٍ كُرْبةً من كُرَبِ الدُّنيا ، نفَّسَ الله عنه كربةً مِنْ كُرَبِ يوم

(١) قال العلامة المناوي : « أدلج » بسكون الدال مخففاً : سار من أول الليل ، وأما التشديد فمعناه سار من آخره اهـ . والمعنى : أن من مشى في الصحراء ، وأقبل عليه الليل ، فإن خوفه من سباع الصحراء وضياعها ، يحمله على أن لا يبيت ، بل يتابع سيره حتى يبلغ منزله ومأمنه ـ وفي هذه عبرة للسائرين والسالكين .

(٢) رواه الترمذي وقال : حسن غريب ، ورواه الحاكم وصححه ، وأقره الذهبي .

القيامة ، ومن سترَ مسلماً ستره الله في الدُّنيا والآخرة ، ومَنْ يسَّرَ على معسرٍ يسَّرَ الله عليه في الدُّنيا والآخرة ، والله في عوْنِ العبد ما كان العبدُ في عون أخيه ، ومَنْ سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهَّل الله له به طريقاً إلى الجنَّة ، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله ، يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم ، إلَّا نزلتْ عليهم السكينة ، وغشيتهم الرَّحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده ، ومن بَطَّأ به عمله ، لم يُسْرِعْ به نسبُه »[1] .

الحديث الرابع والعشرون

في بيان وجوه مسؤولية العبد يوم القيامة

عن أبي بَرْزَة الأسلمي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تَزُولُ قدما عبدٍ يوم القيامة حتى يُسألَ عن أربع : عن عُمُرِه فيمَ أَفناه ، وعن علمه ما عمل به ، وعن ماله من أين أكتسبه ، وفيمَ أنفقه ، وعن جِسمه فيمَ أبلاه » رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

ورواه البزار والبيهقي والطبراني بإسنادٍ صحيح[2] عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لن تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن أربع خصالٍ : عن عُمره فيما أفناه ، وعن شبابه

(١) رواه مسلم وأصحاب السنن .

(٢) كما في مواضع متعددة من (الترغيب) للمنذري .

فيما أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه ، وعن علمه ماذا عمل فيه » .

الحديث الخامس والعشرون

خطبته ﷺ يحض فيها على التمسك بكتاب الله تعالى والاهتداء بهديه ﷺ

عن جابر رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ إذا خطب احمرَّت عيناه ، وعلا صوته ، واشتدَّ غضبه ، كأنه منذر جيش ، يقول : « أمّا بعدُ ، فإنَّ أصدقَ الحديثِ كتابُ الله ، وإنَّ أفضل الهدي هديُ محمدٍ ، وشرَّ الأمور مُحدثَاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكلَّ بدعة ضلالة ، وكلَّ ضلالة في النَّار ، أتتكم الساعةُ بغتةً ، بُعثْتُ أنا والساعة هكذا ، صبحَتكم الساعة ومسَّتكم ، أنا أولى بكل مؤمنٍ من نفسه ، مَنْ تركَ مالاً فلأهله ، ومَن تركَ دَيْناً أو ضَياعاً : فإليَّ وعليَّ ، وأنا وليُّ المؤمنين »[1] .

الحديث السادس والعشرون

خطبته ﷺ في أول جمعة صلاها في المدينة المنورة[2]

« الحمدُ لله أَحمده ، وأستعينه وأستغفره ، وأستهديه ، وأومن به

(١) رواه الإمام أحمد ومسلم والنسائي وأبو داود كما في (الجامع الصغير وشرحه الكبير) .

(٢) قال الحافظ ابن جرير الطبري : حدثني يونس بن عبد الأعلى ، أخبرنا ابن =

ولا أكفرُه ، وأعادي مَن يكفره ، وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأنَّ محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ، والنُّورِ والموعظة ، على فترةٍ من الرسل ، وقلَّةٍ من العلم ، وضلالةٍ من الناس ، وانقطاعٍ من الزمن ، ودنوٍّ من الساعة ، وقربٍ من الأجل ، ومنْ يُطِعِ الله ورسُولَه فقد رشَد ، ومن يعصِهما فقد غوى وفَرَّط وضلَّ ضلالاً بعيداً .

وأُوصيكم بتقوى الله ، فإنه خير ما أوصى به المسلمُ المسلمَ أن يحضَّه على الآخرة ، وأن يأمره بتقوى الله .

فاحذرُوا ما حذَّرَكم الله من نفسه ، ولا أفضلَ من ذلك نصيحة ، ولا أفضلَ من ذلك ذكرى ، وإنه تقوى لمن عمل به على وجلٍ ومخافةٍ ، وعونُ صدقٍ على ما تبتغون من أمرِ الآخرة ، ومن يُصلح الذي بينه وبين الله تعالى من أمر السرِّ والعلانية ـ ولا ينوي بذلك إلاَّ وجه الله تعالى ـ يكن له ذكراً في عاجل أمره ، وذخراً فيما بعد الموت ، حين يفتقر المرءُ إلى ما قدمَّ ، وما كان من سوى ذلك يودُّ لو أنَّ بينه وبينه أمداً بعيداً ، ويُحذركم الله نفسه ، والله رؤوفٌ بالعباد .

والذي صدق قوله ، وأنجز وعده لا خُلْفَ لذلك ! فإنه يقول تعالى : ﴿ ما يُبَدَّلُ القولُ لديَّ وما أنا بظلاَّمٍ للعبيد ﴾ .

وَاتَّقُوا الله في عاجلِ أمركم وآجِلِه في السرِّ والعلانية ، فإنه مَن

= وهب عن سعيد بن عبد الرحمن الجمحي أنه بلغه عن خطبة النبي ﷺ في أول جمعة صلاها بالمدينة في بني سالم بن عمرو بن عوف رضي الله عنهم أنه قال : وذكر هذه الخطبة .

يتَّقِ الله يُكَفِّرْ عنه سيئاته ويُعظِمْ له أجراً ، ومَن يتَّقِ الله فقدْ فازَ فَوْزاً عظيماً .

وإنَّ تقوى الله تَقِي مَقْتَه ، وتَقي عقوبَتَه ، وتقي سَخَطه .

وإنَّ تقوى الله تُبَيِّضُ الوجهَ وترفعُ الدرجة .

خُذوا بحظِّكم ولا تُفَرِّطُوا في جنبِ الله ؛ قدْ علَّمَكُم الله كتابه ، ونهَجَ بكم سبيلَه ، ليعلمَ الذين صدَقوا وليعلمَ الكاذبين .

فأحْسِنُوا كما أَحْسَن الله إليكم ، وعادوا أعداءه ، وجاهدوا في الله حقَّ جهادِه ؛ هو اجتباكُم وسمّاكم المسلمين ، ليهلِكَ مَنْ هَلَكَ عن بَيِّنةٍ ، ويحيى مَن حَيَّ عن بيِّنَةٍ ، ولا قوَّة إلَّا بالله ، فأكثروا ذكرَ الله ، واعملوا لما بعدَ الموتِ ، فإنه مَن أَصلح ما بينه وبين الله يكْفِه الله ما بينَه وبين الناس ؛ ذلك بأنَّ الله يقضي على الناس ، ولا يقضون عليه ؛ ويملك من النَّاس ولا يملكونَ منه ، الله أكبر ؛ ولا قوَّة إلَّا بالله العليِّ العظيم » .

قال الحافظ ابن كثير : هكذا أوردها ابن جرير ، وفي السند إرسال ، وقال البيهقي : باب أول خطبة خطبها رسول الله ﷺ حين قدم المدينة ، ثمَّ أورد ابن كثير إسناد البيهقي إلى أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف قال : كانت أولَ خطبة خطبها رسول الله ﷺ بالمدينة أن قام فيهم ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثمَّ قال :

« أما بعد ـ أيهاالنَّاس ـ فَقَدِّمُوا لأنفسكم ، تعلمُنَّ والله لِيُصعقنَّ أحدُكم ثمَّ ليدعنَّ غنمه ليس لها راعٍ ، ثمَّ ليقولنَّ له ربُّه ـ ليس له

ترجمان ولا حاجبٌ يحجبُه دونه ـ : ألم يأتك رسُولي فبلَّغك ، وآتيتُك مالاً ، وأفضلتُ عليك ، فما قدَّمتَ لنفسك ؟ .

فينظر ـ أي : العبد ـ يميناً وشمالاً ، فلا يرى شيئاً ، ثم ينظر قدَّامه فلا يرى غير جهنم ، فمن استطاعَ أن يقيَ وجهَهُ من النَّار ولو بِشِقِّ تمرةٍ فليفعل ، ومن لم يجد فبكلمةٍ طيِّبةٍ ؛ فإنَّ بها تُجزى الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعفٍ ـ والسلام (عليكم[1]) وعلى رسول الله ورحمة الله وبركاته » .

ثمَّ خطب رسول الله ﷺ مرةً أخرى : فقال : « إنَّ الحمدَ لله أحمده ، وأستعينه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، . وسيئات أعمالِنا ، مَن يهْدِهِ الله فلا مضلَّ له ، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هادِيَ له ، وأشهدُ أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريكَ له .

إنَّ أحسنَ الحديث كتابُ الله ، قد أفلحَ مَنْ زيَّنَهُ الله في قلبه ، وأدخله في الإسلام بعد الكفر ، واختاره على ما سواه من أحاديث الناس ، إنه أحسنُ الحديثِ وأبلغُه ، أَحِبُّوا مَنْ أَحَبَّ الله ، أحِبُّوا الله من كل قلوبكم ، ولا تَمَلُّوا كلامَ الله وذكرَه ، ولا تَقْسُ عنه قلوبكم ، فإنه من يختارُ الله ويصطفي فقد سمّاه خيرته من الأعمال ، وخيرته من العباد ، والصالحَ من الحديث ، ومن كل ما أُوتيَ الناسُ من الحلالِ والحرامِ .

فاعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، واتَّقوه حقَّ تُقاتِه ، واصدقوا الله

(١) هذه الكلمة زيادة من سيرة ابن هشام .

صالحَ ما تقولونَ بأفواهِكم ، وتحَابُّوا بروحِ الله بينكم ، إنَّ الله يغضبُ أن يُنْكَثَ عهده ـ والسلام عليكم ورحمةُ الله وبركاتُه » .

قال ابن كثير بعد ما أورد ذلك : وهذه الطريق أيضاً مرسلة ، إلاَّ أنها مقوِّية لما قبلها ، وإن اختلفت الألفاظ . اهـ انظر (البداية والنهاية) .

الحديث السابع والعشرون

خطبته ﷺ في الحث على التوبة ، وصلة العبد بينه وبين ربه والتحذير من ترك صلاة الجمعة ، وخطر ذلك

عن جابر رضي الله عنه قال : خطبنا رسولُ الله ﷺ فقال : « يا أيها الناس توبوا إلى الله قبل أن تموتوا ، وبادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تُشغَلُوا ، وصِلوا الذي بينكم وبين ربكم : بكثرةِ ذكركم له ، وكثرةِ الصدقة في السرِّ والعلانية ، تُرْزَقُوا وتُنْصَرُوا وتُجبَرُوا ، واعلموا أنَّ الله افترَضَ عليكم الجمعة في مقامي هذا ، في يومي هذا ، في شهري هذا ، من عامي هذا ، إلى يوم القيامة ، فمن تركها في حياتي أو بعدي ، وله إمام عادل أو جائر ، استخفافاً بها ، وجحوداً بها ، فلا جَمَعَ الله له شمله ، ولا باركَ له في أمره ، ألا ولا صلاةَ له ، ألا ولا زكاةَ له ، ألا ولا حجَّ له ، ألا ولا صومَ له ، ألا ولا برَّ له حتى يتوب ، فمن تابَ تابَ الله عليه »[1] .

(١) قال في (الترغيب) : رواه ابن ماجه ، ورواه الطبراني في (الأوسط) من حديث أبي سعيد الخدري أخصر منه اهـ .

الحديث الثامن والعشرون

خطبته ﷺ يذكر فيها أنواعاً من التذكير والتحذير

روى الترمذي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : صلى بنا رسولُ الله ﷺ يوماً صلاة العصر ، ثم قام خطيباً ، فلم يدَعْ شيئاً يكونُ إلى قيام السّاعة إلاَ أخبرنا به ، حَفِظه من حفِظه ، ونسيه من نسيه ، وكان فيما قال :

« إنَّ الدنيا خَضِرَةٌ حُلوة ، وإنَّ الله مستخلفكم فيها ، فناظرٌ كيف تعملون ، ألا فاتقوا الدنيا ، واتقوا النساء ، ألا لا تمنعنَّ رجلاً هيبةُ الناس أن يقولَ بحقٍّ إذا عَلِمَه ، ألا إنه يُنصَبُ لكل غادرٍ لواءٌ يوم القيامة بقدر غَدرَتِه ، ولا غَدرةَ أعظم من غدرة إمامِ عامّةٍ يُركَزُ لواؤه عند أسته .

ألا إنَّ بني آدم خُلِقوا على طبقاتٍ شتى : فمنهم مَن يولد مؤمناً ويحيا مؤمناً ويموتُ مؤمناً ، ومنهم مَنْ يولَدُ مؤمِناً ويحيا مؤمِناً ويموتُ كافراً ، ومنهم مَنْ يولَدُ كافراً ويحيا كافِراً ويموتُ مؤمِناً ، ومنهم مَنْ يُولَدُ كافراً ويحيا كافراً ويموتُ كافراً .

ألا وإن منهم البطيءَ الغضب سريعَ الفيءِ[1] ، والسريعَ الغضب سريعَ الفيءِ ، فتلك بتلك ، ألا وإنَّ منهم بطيءَ الفيءِ سريعَ الغضب ، ألا وخيرهم بطيء الغضب سريع الفيءِ ، وشرهم سريع الغضب بطيء الفيءِ .

(١) أي : سريع الرجوع عن الغضب إلى الرضا .

ألا وإنَّ منهم حسنَ القضاءِ ، حسنَ الطلب ، ومنهم سيء القضاء حسن الطلب ، فتلك بتلك ، ألا وإنَّ منهم سيء القضاء سيء الطلب ، ألا وإن خيرهم الحسنُ القضاءِ الحسنُ الطلب ، وشرَّهم سيء القضاءِ سيء الطلب .

ألا وإنَّ الغضبَ جمرةٌ في قلب ابن آدم ، أما رأيتم في حُمرة عينيه ، وانتفاخِ أوداجِه ؟ فَمَنْ أَحسَّ بشيءٍ من ذلك فليلْصَقْ بالأرْض » .

قال أبو سعيد : وجعلنا نلتفت إلى الشمس هل بقي من النهار شيء ، فقال رسول الله ﷺ : « ألا وإنه لم يبقَ من الدنيا فيما مضى منها ، إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه » .

ورواه الإمام أحمد بزيادة : « إنكم تُتِمُّون سبعين أمة ، أنتم خيرها وأكرمها على الله تعالى » .

الحديث التاسع والعشرون

خطبة النبي ﷺ يذكر فيها عظمة الله تعالى وقيّوميته وتصرفه سبحانه في مخلوقاته بالقسط

روى الإمام مسلم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أنه قال : قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات فقال : « إن الله تعالى لا ينام ، ولا ينبغي له أن ينام ، يخفِض القسط ويرفعه ، يُرفع إليه عملُ الليل قبل عمل النهار ، وعملُ النهار قبل عمل الليل ، حجابه النور ، لو كشفه لأحرقَتْ سُبُحاتُ وجهه ما انتهى إليه بصَرهُ من خلقه » .

الحديث الثلاثون

خطبة النبي ﷺ يحثُّ فيها على الحياء من الله تعالى حقَّ الحياء

رُوِي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : قال رسول الله ﷺ على المنبر والناس حوله : « أيها الناس ! استحيوا من الله حقَّ الحياء » .

فقال رجل : يا رسول الله إنا لنستحيي من الله تعالى !

فقال ﷺ : « مَنْ كان منكم مستحيياً فلا يَبيتَنَّ ليلةً إلا وأجلُه بين عينيه ، ولْيحفظ البطن وما حوى[1] ، والرأس وما وعى[2] ، وليذكر الموت والبِلى ، وليترك زينة الدنيا » رواه الطبراني في (الأوسط) .

ويشهد لهذا الحديث ما رواه الترمذي وغيره عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « استحيوا من الله حقَّ الحياء » .

قلنا : يا نبي الله إنا لنستحيي من الله والحمد لله !

قال : « ليس ذلك ، ولكن الاستحياء من الله حق الحياء:أن تحفظ الرأس وما وعى ، وتحفظ البطن وما حوى ، ولتذكر الموت والبِلى ، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا ، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حقَّ الحياء » .

---

(١) أي : وما حواه البطن من الطعام والشراب ، ومن الشهوات ، وذلك أن يكون حلالا في حلال .

(٢) وما وعاه الرأس من المدارك السمعية والبصرية ، والقوى العقلية والفكرية والكلامية ، ونحو ذلك فيصرفها فيما شرعه الله تعالى ورضيه .

الحديث الحادي والثلاثون

خطبة النبي ﷺ يصف فيها أولياء الله تعالى ويذكر فيها عظم الكبائر

عن عبيد بن عمير الليثي عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ في حجة الوداع : « إنَّ أولياء الله المصلُّون ، ومن يُقيمُ الصلواتِ الخمسَ التي كتبهنَّ الله عليه ويصومُ رمضانَ ويحتسب صومَه ، ويؤتي الزكاةَ محتسِباً طيِّبَةً بها نفسُه ، ويجتنبُ الكبائرَ التي نهى الله عنها » .

فقال رجل من أصحابه : يا رسول الله وكم الكبائر ؟

فقال : « تسعٌ أعظمُهُنَّ : الإشراكُ بالله ، وقتلُ المؤمن بغير حق ، والفرارُ من الزَّحْف ، وقَذفُ المحصَنة ، والسِّحرُ ، وأكلُ مالِ اليتيم ، وأكلُ الرِّبا ، وعقوقُ الوالدين المسلمَين ، واستحلالُ البيتِ الحرام قبلتِكم أحياءً وأمواتاً .

لا يموتُ رجلٌ لم يعملْ هؤلاءِ الكبائرَ ، ويقيمُ الصَّلاةَ ويؤتي الزكاةَ إلَّا رافقَ محمداً ﷺ في بُحْبوحة [1] جنةٍ أبوابُها مصاريعُ الذهب » [2] .

الحديث الثاني والثلاثون

خطبة النبي ﷺ يحذِّر فيها من الظلم والشُّحِّ والفحش

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : خطبَنا رسولُ الله ﷺ

(١) بحبوحة المكان : وسطه .

(٢) قال الحافظ المنذري : رواه الطبراني في (الكبير) بإسناد حسن . اهـ .

فقال : « إيّاكُم والظُّلمَ ، فإنَّ الظلمَ ظلماتٌ يومَ القيامة ، وإيَّاكُم والفحشَ والتَّفحُّشَ ، وإيَّاكم والشُّحَّ ، فإنما هَلَكَ مَن كان قبلَكم بالشُّحِّ ، أمرَهم بالقَطيعة [1] فقطَعوا ، وأمرَهم بالبُخل فبخِلوا ، وأمرَهم بالفُجُورِ فَفَجَروا » .

فقام رجلٌ فقال : يا رسولَ الله أيُّ الإسلامِ أفضلُ ؟

قال ﷺ : « أَنْ يَسلَمَ المسلمون من لسانِك ويدِك » .

فقال ذلك الرجلُ أو غيرُه : يا رسولَ الله أيّ الهجرَةِ أفضلُ ؟

قال : « أَنْ تَهجُرَ ما كَرِهَ رَبُّك » [2] .

الحديث الثالث والثلاثون

خطبة النبي ﷺ يحذر فيها من إيذاء المسلمين وتتبع عوارتهم

روى الترمذي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : صعِدَ النبيُّ ﷺ المنبر ، فنادى بصوتٍ رفيع ـ أي : مرتفع ـ فقال : « يا معشرَ مَنْ أسلمَ بلسانِه ولم يُفْضِ الإيمانُ إلى قلبِه ! لا تُؤذُوا المسلمين ، ولا تَتَّبعوا عوراتهم ـ أي : زلاتهم وعثَراتهم ـ فإنه من تتبَّعَ عورةَ أخيه المسلم ، تتبَّعَ الله عورتَه ، ومَن تتبَّعَ الله عورتَه يفضحْه ولو في جوفِ رَحْلِه » .

(١) أي : بقطيعة الرحم وقطع الرحمة للعباد .

(٢) قال المنذري في (الترغيب) : رواه أبو داود مختصراً ، والحاكم ـ واللفظ له ـ وقال صحيح على شرط مسلم . اهـ .

ونظر ابنُ عمر يوماً إلى الكعبة فقال : ما أعظَمَكِ وما أعظمَ حرمتَكِ ! والمؤمنُ أعظمُ حُرمةً عند الله منكِ .

قال في (الترغيب) : ورواه ابن حبان في (صحيحِه) إلاَّ أنه قال فيه : « يا معشرَ مَنْ أسلمَ بلسانِهِ ، ولمْ يدخُلِ الإيمانُ قلبَه لا تُؤذوا المسلمين ولا تعَيِّرُوهم ، ولا تطَلَّبوا عثراتِهم . . » الحديث .

الحديث الرابع والثلاثون

خطبة النبي ﷺ يحذِّر فيها أمته أن يتنافسوا على الدنيا وينسوا دينهم

روى الشيخان عن عقبة بن عامر رضي الله عنه أن النبي ﷺ خرج يوماً فصلى على أَهلِ أُحُد صلاتَه على الميت ، ثم انصرَف إلى المنبر فقال : « إني فَرَطٌ لكم ، وأنا شهيدٌ عليكم ، وإني ـ والله ـ لأنظر إلى حوضي الآن ، وإني أُعطِيتُ مفاتيحَ خزائنِ الأرض ـ أو مفاتيح الأرض ـ وإني ـ والله ـ ما أخافُ عليكم أن تُشركوا بعدي ، ولكن أخافُ عليكم أَن تَنافَسوا فيها » .

وفي رواية : صلى رسول الله ﷺ على قتلى أُحد بعد ثمانِ سنين ، كالمودِّعِ للأحياء والأموات ، ثم طلع المنبر فقال : « إني بين أيديكم فَرَطٌ وأنا شهيدٌ عليكم ، وإنَّ موعدكم الحوض ، وإني لأنظر إليه من مقامي هذا ، وإني لست أخشى عليكم أن تُشركوا ، ولكن أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوا فيها » .

وفي رواية : « ولكني أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوا فيها ، وتَقْتَتِلوا وتهلِكوا كما هلك مَنْ كان قبلكم » .

قال عقبة : فكانت آخرَ ما رأيتُ رسول الله ﷺ على المنبر .

الحديث الخامس والثلاثون

خطبة النبي ﷺ يحثُّ فيها على الاستعداد للآخرة

عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ خطب يوماً فقال في خطبته : « ألا وإنَّ الدنيا عرضٌ حاضرٌ ، يأكل منه البرُّ والفاجر ، ألا وإنَّ الآخرةَ أجلٌ صادق ، ويقضي فيها ملكٌ قادر ، ألا وإنَّ الخيرَ كله بحذافيره في الجنَّة ، ألا وإنَّ الشرَّ كله بحذافيره في النار ، ألا فاعملوا وأنتم من الله على حذرٍ ، واعلموا أنكم معرضون على أعمالكم ، فمن يعملْ مثقال ذرَّةٍ خيراً يَرَه ، ومَنْ يعمَلْ مثقالَ ذرَّةٍ شراً يَرَه »[1] .

(١) في (المشكاة) : رواه الشافعي رضي الله عنه ، وروى نحوه أبو نعيم في (الحلية) عن شداد بن أوس مرفوعاً ، كما في (المشكاة والمواهب) وغيرهما .

الحديث السادس والثلاثون

خطبة النبي ﷺ يحذّر فيها من ترك الصلاة عليه ﷺ حين يُذكر ، ومن التقصير في شهر رمضان ومن التقصير مع الوالدين عموماً ؛ وخصوصاً عند الكِبر

عن كعب بن عُجْرَة رضي الله عنه قال : قال رسولُ الله ﷺ : « احضُروُا المنبر » فحضرنا ، فلما ارتقى درجةً قال : « آمين » فلما ارتقى الدرجة الثانية قال : « آمين » فلما ارتقى الدرجة الثالثة قال : « آمين » فلما نزلَ قلنا : يا رسول الله ، لقد سمعنا منك اليوم شيئاً ما كنّا نسمعه ؟ !

فقال : « إن جبريل عليه السلام عَرَضَ لي فقال : بَعُدَ مَن أدركَ رمضان فلم يُغفر له ! قلت : آمين ، فلما رَقَيْتُ الثانية قال : بَعُدَ مَن ذُكِرْتَ عنده فلم يُصلِّ عليك ! فقلتُ : آمين ، فلمّا رَقَيْتُ الثالثةَ قال : بَعُدَ من أدركَ أبويه الكِبَرُ عنده أو أحدَهما فلم يُدخِلاه الجنّةَ ! قلتُ : آمين »

رواه الحاكم وقال : صحيح الإسناد ، ورواه ابن حبان في (صحيحه) بلفظ :

عن الحسن بن مالك بن الحويرث عن أبيه عن جده رضي الله عنه قال : صعِد رسول الله ﷺ المنبر فلما رقي عتبةً قال : « آمين » ثم رقي أخرى فقال : « آمين » ثم رقيَ عتبةً ثالثةً فقال : « آمين » .

ثم قال : « أتاني جبريل عليه السلام فقال : يا محمد مَنْ أدركَ رمضان فلم يُغفر له فأبعده الله ! فقلت : آمين ، قال : ومَن أدرك والديه أو أحدهما فدخل النارَ فأبعده الله ! فقلت : آمين ، قال : ومَن ذُكِرتَ عنده فلم يصلِّ عليك فأبعده الله ! فقلت: آمين » .

ورواه ابن خزيمة وابن حبان في (صحيحه) أيضاً بلفظ :

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النبي ﷺ صعِد المنبر فقال : « آمين . آمين . آمين » .

قيل : يا رسول الله إنك صعِدت المنبرَ فقلتَ « آمين آمين آمين » ؟ فقال ﷺ :

« إن جبريل عليه السلام أتاني فقال : مَن أدرك شهرَ رمضان فلم يُغفَرْ له فأبعده الله ـ قل : آمين . فقلت : آمين . . . » ثم ذكر بقية الحديث .

الحديث السابع والثلاثون

خطبة النبي ﷺ يحذر فيها من الدعوى في العلم والقرآن

عن ابن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قام ليلةً بمكة من الليل فقال : « اللهم هل بلَّغتُ » ثلاث مرات .

فقام عمر بن الخطاب ـ وكان أوَّاهاً ـ فقال : اللهم نعم وحرّضتَ وجهدتَ ونصحتَ .

فقال ﷺ : « ليَظهرنَّ الإيمانُ حتى يَردَّ الكفرَ إلى موطنه ، ولتُخاضنَّ

البحارُ بالإسلام ، وليأتينَّ على الناس زمانٌ يتعلمون فيه القرآن ، يتعلمونه ويقرؤونه ثم يقولون : قد قرأنا وعَلِمنا ، فمن ذا الذي هو خير منا ؟

قال ﷺ : فهل في أولئك من خير ؟

قالوا : يا رسول الله : مَنْ أولئك ؟

فقال : « أولئك منكم ـ أي : من هذه الأمة ـ وأولئك هم وَقُودُ النار » .

قال الحافظ المنذري : رواه الطبراني في (الكبير) وإسناده حسن إن شاء الله تعالى . اهـ .

ويشهد لهذا الحديث ما ورد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يظهر الإسلام حتى تختلف التجار في البحر ، وحتى تخوض الخيل في سبيل الله ، ثم يظهر قوم يقرؤون القرآن يقولون : من أقرأ منا ؟ من أعلمُ منا ؟ من أفقه منا ؟ »

ثم قال ﷺ لأصحابه : « هل في أولئك من خير ؟ » .

قالوا : الله ورسوله أعلم .

قال : « أولئك منكم من هذه الأمة ، وأولئك هم وَقود النار » .

قال الحافظ المنذري : رواه الطبراني في (الأوسط) ، والبزار بإسنادٍ لا بأس به ، ورواه أبو يعلي والبزار والطبراني أيضاً من حديث العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه . اهـ .

الحديث الثامن والثلاثون

خطبة النبي ﷺ يبين فيها أحوال الناس في المحشر

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يخطب على المنبر يقول : « إنكم ملاقو الله حُفاة عُراةً غُرْلاً ـ وفي رواية : مشاة ـ » .

وفي رواية : قال ابن عباس : قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال : « يا أيها الناس إنكم محشورون إلى الله تعالى حُفاةً عراةً غُرْلاً ﴿ كما بدأنا أوّلَ خلقٍ نُعيده ، وعداً علينا إنَّا كُنَّا فاعلين ﴾ .

ألا وإنَّ أوَّل الخلائق يُكْسى إبراهيم عليه السلام .

ألا وإنَّه سيُجاءُ برجال من أمَّتي ، فيؤخَذُ بهم ذات الشمال ، فأقول : يا ربِّ أصحابي ، فيقول : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك ، فأقولُ كما قال العبدُ الصالح : ﴿ وكنتُ عليهم شهيداً ما دُمتُ فيهم ﴾ إلى قوله ﴿ العزيز الحكيم ﴾ .

قال : فيُقال لي : إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتَهم ، فأقول : سُحقاً سُحقاً » رواه الشيخان والترمذي وغيرهم .

الحديث التاسع والثلاثون

خطبة النبي ﷺ يحثُّ فيها على نشر أحاديثه وتبليغها

ويدعو لمن فعل ذلك بنضارة الوجه

عن جُبير بن مُطعم قال : سمعتُ رسول الله ﷺ بالخَيفِ ـ خيفِ مِنى ـ يقول[1] : « نَضَّر الله عبداً سمع مقالتي ، فحفظها ووعاها ، وبَلَّغها مَنْ لم يسمعها ، فرُبَّ حاملِ فقهٍ إلى مَنْ هو أفقهُ منه ، ثلاثٌ لا يَغِلُّ عليهنَّ قلبُ مؤمنٍ : إخلاصُ العمل لله تعالى ، والنصيحةُ لأئمة المسلمين ، ولزوم جماعتهم فإن دعوتهم تحفظ مَنْ وراءهم »[2] .

وجاء في (صحيح) ابن حبان زيادة على ذلك : « ومَن كانت الدنيا نيَّتَه فرَّق الله عليه أمره ، وجعل فقره بين عينيه ، ولم يأتِه من الدنيا إلا ما كتب له ، ومن كانت الآخرةُ نيَّتَه جمعَ الله أمرَه ، وجعل غناه في قلبه ، وأتته الدنيا وهي راغمة »[3] .

(١) وجاء في رواية الطبراني في (الأوسط) عن أنس رضي الله عنه قال : خطبنا رسول الله ﷺ بمسجد الخيف من منى . . . الحديث ، كما في (ترغيب) المنذري .

(٢) قال الحافظ المنذري في (الترغيب) : رواه أحمد وابن ماجه والطبراني في (الكبير) مختصراً ومطولاً ، إلا أنه قال « تحيط » بياء بعد الحاء . رووه كلهم عن محمد بن إسحاق ، عن عبد السلام ، عن الزهري ، عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه ، وله عند أحمد طريق عن صالح بن كيسان عن الزهري ، وإسناد هذه حسن . اهـ .

(٣) انظر الجزء الأول من (الترغيب) .

الحديث الأربعون

في وصاياه ﷺ الجامعة للحِكم والآداب

عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه أنه قال : قلت يا رسول الله أوصني : قال : « أُوصيك بتقوى الله ، فإنها زَيْن لأمرك كله ـ وفي رواية ابن حبان ـ فإنه رأسُ الأمر كلِّه » .

قلتُ يا رسول الله : زدني ، قال : « عليكَ بتلاوةِ القرآن ، وذكرِ الله عزَّ وجلَّ ، فإنه ذِكْرٌ لك في السماء ، ونورٌ لك في الأرض » .

قلتُ يا رسول الله : زدني ، قال « عليك بطول الصَّمْت ، فإنه مَطْرَدَةٌ للشيطان ، وعونٌ لك على أمر دينك » .

قلتُ : زدني ، قال : « إياكَ وكثرةَ الضحك ، فإنه يميتُ القلب ، ويَذهبُ بنور الوجه » .

قلتُ : زدني ، قال : « قل الحقَّ وإن كان مُرّاً » .

قلتُ : زدني ، قال : « لا تخف في الله لومةَ لائم » .

قلتُ زدني ، قال « ليحجُزْكَ عن النَّاسِ ما تعلمُ من نفسك » .

رواه الإمام أحمد ، والطبراني ، وابن حبان في (صحيحه) ، والحاكم ـ واللفظ له ـ وقال : صحيح الإسناد[1] .

وجاء في رواية (صحيح) ابن حبان بعد قوله ﷺ : « وإياك وكثرةَ

(١) كما قال الحافظ المنذري في (الترغيب) .

الضحك » قلتُ : يا رسول الله زدني قال : « عليك بالجهاد فإنه رهبانيَّةُ أمتي » .

قلتُ : يا رسول الله زدني ، قال : « أَحِبَّ المساكين وجالِسْهم » .

قلتُ : يا رسول الله زدني ، قال : « انظر إلى مَنْ هو تحتك[1] ، ولا تنظر إلى مَنْ هو فوقك ، فإنه أجْدرُ أنْ لا تزدريَ نعمةَ الله عندك » .

قلت : يا رسول الله زدني ، قال : « قل الحقَّ وإن كان مُرّاً » .

قلتُ : يا رسول الله زدني ، قال : « لِيَرُدَّكَ عن الناس ما تعلمه من نفسك[2] ، ولا تجد عليهم فيما يأتون[3] ، وكفى بك عيباً أن تعرفَ من الناس ما تجهله من نفسك » .

وفي رواية الطبراني[4] : « وكفى بالمرء عيباً أن يكون فيه ثلاث خصال : أن يعرفَ من الناس ما يجهلُ من نفسه ، ويستحيي لهم مما هو فيه ، ويؤذي جليسه » ثم ضرب رسولُ الله ﷺ بيده على صدري

---

(١) أي : من الأمور الدنيوية .

(٢) أي : ليمنعك عن التكلم في الناس والوقيعة فيهم ، ما تعلم في نفسك من العيوب ، فقلما تخلو أنت من عيب يماثل عيوب الناس أو أقبح منه ، وأنت تشعر أو لا تشعر بذلك . كما في شرح المناوي .

(٣) أي : ولا تغضب عليهم فيما يفعلونه معك ، يقال : وجد عليه موجدة : غضب . اهـ شرح المناوي على (الجامع الصغير) .

(٤) كما في (الجامع الصغير) رامزاً إلى حسنه . وقال الشارح : ورواه أيضاً عن أبي ذر رضي الله عنه : ابن لال والديلمي .

فقال : « يا أبا ذرٍّ : لا عَقْلَ كالتدبير ، ولا وَرَعَ كالكَفِّ[1] ، ولا حَسَبَ[2] كحُسن الخُلُق » .

الحديث الحادي والأربعون

يبين فيه النبي ﷺ جملة من فضائله الكريمة

روى الإمام مسلم والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ قال : « فُضِّلتُ على الأنبياء بستٍّ : أعطيتُ جوامعَ الكَلِمِ ، ونُصرتُ بالرُّعب ، وأحِلَّت لي الغنائم ، وجُعلت لي الأرضُ مسجداً وطَهوراً ، وأُرسلتُ إلى الخلق كافةً ، وخُتم بيَ النبيُّون » .

فكان ﷺ كثيراً ما يتحدث بنعمة الله تعالى عليه ، بأنَّ الله تعالى أعطاه جوامع الكلم ، وذلك : قوة الإيجاز في الألفاظ مع بسطٍ وكثرةٍ في المعاني .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « بُعثت بجوامع الكلم ، ونُصرت بالرُّعب ، وبينا أنا نائم رأيتُني أُتيتُ بمفاتيح خزائن الأرض فوُضعتْ في يديَّ » .

وروى أبو يعلى في (مسنده) عن عمر مرفوعاً : « أُعطيتُ جوامعَ الكلم ، واختُصر لي الكلام اختصاراً » كما تقدم في جملة من الأحاديث الواردة في ذلك .

---

(١) أي : الامتناع عما يضطرب القلب في تحليله وتحريمه .

(٢) أي : ولا مجد ولا شرف مثل حسن الخلق .

أرجحية عقله الشريف ﷺ على سائر العقول

العقل مَوْهبَة إلهية وهبه الله تعالى للإنسان ، وشرَّفه به على جميع أنواع الحيوان ، به يَعرف العاقلُ حَسَنَ الأشياء وقبيحها ، وكمالها ونقصانها ، وبه يعلم خيرَ الخَيْرَيْنِ وشرَّ الشرَّيْن[1] .

ولقد بلغ سيدنا محمدٌ ﷺ رسولُ الله تعالى ، من أرجحيَّة العقل وكماله الغايةَ القصوى التي لم يبلغها أحد سواه ، وذلك بنعمة الله تعالى وفضله عليه ﷺ .

قال الله تعالى : ﴿ ن . والقلمِ وما يَسطُرون . ما أنتَ بنعمةِ ربِّك بمجنون ﴾ أي : أنت في أعلى مستوى كمال العقل وسمو الفكر ، فلقد أقسم سبحانه بقوله : ﴿ ن ﴾ وهو المَدَد الإلهي الفياض ، وبالقلم الأوَّل المستفيض ، وبما يسطِّرُه المسطرون في المستوى الأعلى ، الذي سمع رسول الله ﷺ صريفَ أقلامه ، وما تسطِّره الأقلام المستمدة من القلم الأول .

أقسم بهذا القسم العظيم على سعة عقل هذا الرسول الكريم ﷺ ،

(١) وقد ذكر الإمام الغزالي رضي الله عنه مراتب العقول ، وأن بعض مراتب العقل ينتهي إلى بعض ، إذا ارتفعت الحجب والقواطع ، فارجع إلى تفاصيل ذلك في كتبه .

وإنه ليس فيه شائبة جنون ، وإنما هو صاحبُ العقل الأكمل ، والعلم الواسع الأفضل ، وأنه كيف لا يكون عقله فوق كل العقول ، وقد أنعم الله عليه وأكرمه فخصَّه بالنبوَّة الجامعة والخاتمة ، والرسالة العامَّة ، ونزول القرآن الجامع للعلوم كلها ، فإنَّ هذه النعم لا يتحملها إلاَّ من خصَّه الله تعالى بأكمل العقول وأرجحها ولذا قال : ﴿ ما أنتَ بنعمةِ ربِّك بمجنون ﴾ أي : ما أنت بسبب نعمة ربك عليك بالنبوة والرسالة ، والقرآن الجامع لأنواع العلوم والحكمة ، ما أنت بمجنون ـ فهو ينفي ما اختلقه أعداؤه ﷺ ، ويُثبت له بالدليل القاطع أرجحيَّة العقل والحكمة .

وذلك أن من أُوحي إليه القرآن الجامع للعلوم والمعارف ، وأُوحي إليه الحكمة العالية التي هي فوق كل حكمة ، كيف يُتصوَّر أن يكون فيه شائبة خلل أو نقص ؟! .

﴿ وإن لك لأجراً ﴾ أي : بسبب صبرك على طعنهم بك .

﴿ غيرَ ممنون ﴾ غير مقطوع .

﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ فهو ﷺ أكمل خلق الله عقلاً كما قال ابن عباس رضي الله عنهما : أفضلُ الناس أعقلُ الناس ، وذلك نبيكم محمد ﷺ .

وقال وهب بن منبِّه التابعي الثقة ، الذي روى له الشيخان وغيرهما : (قرأتُ في أحدٍ وسبعين كتاباً ـ أي : من الكتب السابقة ـ فوجدتُ في جميعها ، أنَّ الله تعالى لم يعطِ جميعَ الناس من بدء الدنيا إلى

انقضائها ، من العقل في جنب عقل محمد ﷺ إلاَّ كحبة رمل من جميع رمال الدنيا ، وأن محمداً ﷺ أرجحُ الناس عقلاً ، وأفضلهم رأياً[1]) .

وإنَّ العقل الكامل هو الأصل الذي تنشأ عنه الخصال الحميدة ، والمواهب الرشيدة ، وبه تُقتبس الفضائل ، وتجتنب الرذائل ، وهو الذي يُسْلِم صاحِبَه إلى مجامع الخير والفضل ، كما ورد في حديث إسلام خالد بن الوليد ، حين دخل على رسول الله ﷺ ، فسلم عليه بالنبوَّة ، قال : (فردَّ عليَّ السلام بوجهٍ طَلْق ، فقلتُ : إني أشهد أن لا إله إلاَّ الله ، وأنك رسول الله .

فقال له ﷺ : « تعالَ » فأقبل .

فقال رسولُ الله ﷺ : « الحمدُ لله الذي هداكَ ، قد كنتُ أرى لكَ عقلاً ، رجوتُ أن لا يُسلمَك إلا إلى الخير . . » الحديث .

وروى الطبراني[2] عن قُرَّة بن هبيرة رضي الله عنه أنه أتى النبيَّ ﷺ فقال : (إنه كان لنا أربابٌ وربَّاتٌ نعبدُهنَّ من دون الله عزَّ وجل ، فدعوناهنَّ فلم يُجبن ، وسألناهنَّ فلم يُعطينَ ، فجئناك ، فهدانا الله بك ، فنحن نعبدُ الله) .

فقال رسول الله ﷺ : « قد أفلحَ مَن رُزقَ لُبّاً » .

فقال : (يا رسول الله ألْبسْني ثوبين من ثيابك قد لبستَهما) فكساه .

(١) كما في شرح المواهب .
(٢) قال في (مجمع الزوائد) : فيه راو لم يسم ، وبقية رجاله ثقات .

فلما كان بالموقف من عرفات ، قال رسول الله ﷺ : « أَعِدْ عليَّ مقالتَك » فأعاد عليه .

فقال رسولُ الله ﷺ : « قد أفلح مَنْ رُزِقَ لُبّاً » أي : عقلاً راجحاً اهتدى به إلى الإسلام ، وفعل المأمورات ، وترك المنهيات . قال تعالى : ﴿ إنما يتذكَّرُ أولوا الألباب ﴾ .

وفي هذا بيان منه ﷺ أن العقل الرجيح ، يُلزِم صاحبَه بالتمسك بهذا الدين الإسلامي ، لأنه دين كامل صحيح ، وهو غاية بغية العقل الرجيح ، كما رُوِيَ عنه ﷺ : « رأس العقل بعد الإيمان بالله : الحياءُ وحُسْنُ الخُلُق »[1] .

لأنَّ الإسلام هو الدين المحكم ، وهو المعقول المبرم ، قال الله تعالى : ﴿ إنا أنزلناه قُرآناً عربياً لعلكم تعقلون ﴾ أي : تعقلون معانيه وأوامره ومناهيه ، فتعلمون يقيناً أنه لا يأمركم إلا بما هو خيرٌ لكم ، ولا ينهاكم إلا عمّا هو شر لكم .

كما قال ابن مسعود : (إذا سمعتَ الله يقول : ﴿ يا أيها الذين امنوا ﴾ فأرْعِها سمعَك ، فكل من استمعَ إلى هذا الدين وعَقَلَه ووعاه وفهمه ، لا بد أن يُسلم له ويستسلم إليه) .

ولما دخل الأعرابيُّ الفطريُّ العاقلُ على رسول الله ﷺ وبيَّن له ﷺ أوامرَ الإسلام ومناهيه ، فخرج الأعرابيُّ وأعلن إسلامَه فقال له قومُه : بم عرفتَ أنَّه رسول الله ؟

(١) رواه صاحب (الفردوس) عن أنس ، وضعفه النسائي ، كما في (فيض القدير) .

فقال الأعرابي : ما أمر محمدٌ ﷺ بأمر قال العقل : ليته نهى عنه ، ولا نهى عن شيءٍ فقال : ليتَه أمرَ به .

وقد أدرك عبد المطلب حقيَّة الآخرة بعقله ، وذلك أنه قال يوماً : ما مِن ظالم يشتدُّ ظلمه إلا انتقم الله منه قبل أن يموت .

فقيل له : فلان جار وطغى !

فقال : انتقم الله منه يوم كذا .

فقيل له : فلان .

فقال : انتقم الله منه يوم كذا .

فقيل له : فلان جار وطغى ولم يُصبْه شيء !

ففكَّر طويلاً ثم قال : إذاً لا بدَّ من يوم آخر ينتقم الله منه .

وإلى ذلك نبَّه الله تعالى العقلاء فقال سبحانه : ﴿ أمْ حَسب الذين اجترحوا السَّيِّئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصَّالحات سواءً محياهم ومماتهم ؟! ساء ما يحكمون وخلق الله السَّموات والأرض بالحقِّ ولتُجزى كلُّ نفْس بما كسبَتْ وهم لا يُظْلَمون ﴾ .

ومن ثَمَّ قال تعالى مخبراً عمَّا يقول الكفَّارُ يوم القيامة : ﴿ وقالوا : لو كنَّا نسمعُ أو نعقلُ ما كنَّا في أصحاب السعير ﴾ يعني : أنهم لو سمعوا لهذا الدين لعلموا وعقلوا أوامره ، ومعانيه وحِكَمه وأحكامه ، لكنهم عمُوا وصمُّوا .

وعن الحسن البصري مرسلاً يرفعه : « لمَّا خلقَ الله العقلَ قال له :

أَقبِلْ فأقبلَ ، ثم قال له : أدبر فأدبَرَ ، فقال : ما خلقتُ خلقاً أحبَّ إليَّ منكَ ، بك آخذُ وبك أُعطي » .

فأحبُّ العقولِ إلى الله تعالى هو عقل سيدنا محمد ﷺ ، لأنه أكمل العقول وأرجحها وأوسعها .

ويتجلى لك كمالُ عقله ﷺ وسعةُ فكره ، في جميع قضاياه وأعماله وأقواله وأحواله ، ونحن نذكر لك أطرافاً موجزة هي قطرة من بحره ﷺ

أولاً - إن مواجهته ﷺ للعالم الذي انتشرت الجاهلية الجهلاء في جميع طبقاته ومللِه : عربهم وعجمهم ، حتى إنهم ضلَّت عقولهم ، وجهلوا دينَهم ، وصاروا يعبدون أوثاناً وأحجاراً نحتَتْها أيديهم ، وربما صنَع أحدُهم صنماً صغيراً من تمر أو عجوة فعبده مدة مديدة ، حتى إذا جاعَ أكله ! .

فمواجهة هذه العقلية الصخْرة المتحجِّرة المنحرفة ، وتحويلها إلى عقلية لطيفة سليمة صائبة ، لهو أمر كبير يحتاج إلى عقل رجيح ، وفكر صحيح ، وقوة بيان ، وفصاحة لسان ، وبرهان ساطع ، ودليل قاطع ، وتحمُّل وأناة ، وحلم وصفح ، وعلم واسع بمختلف الحجج وأنواع الأساليب .

ولا ريب أنَّ جميع ذلك كان بتعاليم أحكم الحاكمين ، وبوحي ربِّ العالمين ، فإنه سبحانه هو الذي خطَّ له طريق الدعوة ، وبين له أساليبها ، وأوضح له مناهجها ، ليسير عليها ، كما قال سبحانه : ﴿ ادْعُ إلى سبيلِ ربِّك بالحكمةِ والموعِظَةِ الحسنة وجادلهم بالتي هي

أحسنُ إنَّ رَبَّكَ هو أعلمُ بمَنْ ضلَّ عن سبيلِهِ ، وهو أعلم بالمهتدين ﴾ .

ولكنَّ التعاليمَ الإلهية والإيحاءآت الربانيَّة ، لا بدَّ لها من عقلٍ كبير ، مشرق منير ، قد أعدَّه الله تعالى لحملها ، ثم تطبيقها وتنزيلها في منازلها اللائقة بها ، فإن الناس تتفاوتُ مراتبهم .

فمنهم : من إذا عُرضتْ عليه الحكمة سلَّمَ لها ، واستسلم لأمرها .

ومنهم : من أخذت بنفسِه الشهواتُ المفرطةُ مأخذَها ، فيحتاج إلى وعظ وتذكير بسوء ما يعمل ، وعواقب ما يقترف .

ومنهم : من تسلطت على قلبه الشبهات الاعتقاديّة الفاسدة ، فهو يحتاج إلى ما يزيلها من قلبه بالحجج القاطعة ، والجدل بالتي هي أحسن .

ولذا نوَّعَ الله تعالى أساليبَ الدعوة ، لأنَّ كلَّ أسلوبٍ له موقعه وأثره وموضعه .

ومن هنا يُعلم يقيناً أن أعقلَ العقلاءِ هو سيدنا محمد ﷺ .

ثانياً ـ إنَّ من تأمل في أساليب حجته على عَبَدَةِ الأوثان ، ومن نظر في أدلته على اليهود النصارى ، وإلزامِهم الحجة وإفحامهم وإلقامهم حجر الخذلان ، تراءت له إشعاعاتٌ من عقليته الكبرى ﷺ ، وأيقن أنَّ عقله ﷺ أكمل العقول وأعلاها ، وأوسعها وأفضلها .

فهذا حُصَين والد عمران ، الذي يعبد سبعة أصنام في الأرض ، ويرى أنها آلهة ، وكان معظَّماً في قريش ، فجاؤوا إليه وقالوا له : كلِّم لنا هذا الرجل ـ أي : محمداً ﷺ ـ فإنه يذكر آلهتَنا ويسبُّهُم ، وجاؤوا معه

حتى جلسوا قريباً من باب النبي ﷺ .

فقال ﷺ : « أوسعوا للشيخ » أي : كبير السنِّ وهو حصين .

فقال حصين : ما هذا الذي بلغنا عنك : أنك تشتم آلهتَنا وتذكرهم ؟

فقال ﷺ : « يا حصين ، كم تعبد مِن إله ؟ » .

قال : سبعاً في الأرض ، وواحداً في السماء .

فقال ﷺ : « فإذا مسَّكَ الضرُّ من تدعو ؟ » .

فقال حصين : أدعو الذي في السماء .

فقال ﷺ : « فإذا هلك المال من تدعو ؟ » .

فقال حصين : أدعو الذي في السَّماء .

فقال ﷺ : « فيستجيبُ لك وحده وتُشركهم معه ؟!! أرضيتَه في الشكر أم تخاف أن يُغلب عليك ؟!! » .

فقال حصين : لا واحدة من هاتين .

فقال ﷺ : « يا حصين أسلم تسلمْ » .

فقال : إنَّ لي قوماً وعشيرةً ، فماذا أقول ؟

فقال : « قل : اللهمَّ أستهديك لأَرْشَدِ أمري ، وزدني علماً ينفعني » .

فقالها حصين ، فلم يقم حتى أسلم .

فقام إليه عمران ابنه فقبَّل رأسَه ويديْه ورجلَيه .

فلما رأى ذلك النبيّ ﷺ بكى ، وقال : « بكيت من صنيع عمران ،

دخل حصين ـ أبوه ـ وهو كافر ، فلم يقم إليه عمران ولم يلتفتْ ناحيته ، فلما أسلم قضى حقه ، فدخلني من ذلك الرقَّة » .

فلما أراد حصين أن يخرج قال ﷺ لأصحابه : « قومُوا فشيِّعوه إلى منزله » أي : إكراماً له .

فلما خرج من سُدَّة الباب رأتْه قريش وقد أسلم ، فقالوا ، صبأ ، وتفرَّقوا عنه[1] .

وانظر في أسلوب حجته ﷺ مع الرجل الذي جاء يطلب منه أن يرخِّصَ له بالزِّنا ، كما ورد في (المسند) أنه ﷺ جاءه رجل يستأذنه في الزنا .

فقال له ﷺ : « أترضى أن يزنيَ الناسُ بأمك ؟ » فقال : لا .

فقال ﷺ : « وكذلك الناس يكرهون ـ أترضى أن يزنيَ الناسُ بأختك ؟ » فقال : لا .

قال ﷺ : « فكذلك الناس يكرهون » .

ثم قال ﷺ : « أترضى أن يزنيَ الناسُ بابنتك ؟ » فقال : لا .

قال ﷺ : « فكذلك الناس يكرهون » .

فقال : يا رسول الله أُشهدك أنني تُبْتُ من الزنا .

فانظر في لطافة هذا الأسلوب في الحجة ، ودقَّتها وقوَّة تأثيرها في النفوس !

---

(١) عزاه في (الإصابة) إلى ابن خزيمة بإسناده .

ثالثاً ـ إن حسن تأليفه ﷺ بين قومه الذين كانوا أشتاتاً منقسمين على بعضهم ، ورفعَه الخلافَ من بينهم ، وإبعاده إياهم عن الشحناء والبغضاء ، لا سيما في محازِّ الاختلافات ، ومثار العصبيَّات والقَبَليَّات ، إنَّ هذا لمن أكبر الشواهد على سعة عقله ﷺ ، وسموِّ فكره ، وإليك حادثةَ وضع الحجر الأسود في موضعه ، وتنازع قبائل العرب وتنافسهم ، وتزاحمهم على ذلك حتى همُّوا ببعضهم ، فلم يخرجهم من ذلك إلَّا رأيه السديد ﷺ ، حتى إنهم أصبحوا راضين ، وكان ذلك قبل بعثته ﷺ ، وله من العمر خمس وثلاثون سنة !

وذلك أنَّ قريشاً لما جدَّدت بناء الكعبة تنازعوا في رفع الحجر الأسود ، وتنافسوا رجاءَ أن تنالَ كل قبيلة شرف رفْعِه ووضعه في موضعِه ، وعَظُم القيلُ والقال بينهم ، ثم إنهم قالوا : نُحكِّم أوَّلَ داخل من باب بني شيبة ، فكان ﷺ أوَّلَ مَنْ دخل منه ـ فأخبروه .

فأمر ﷺ بثوبٍ فجيء به ، فوضع الحجرُ وسط الثوب وأمرَ كلَّ فخذٍ من أفخاذِ العرب أن يأخذوا بطرف من الثوب ـ أي : بجانب منه ـ فرفعوه كلُّهم ، فلمّا أنهَوْه إلى مقرِّه ، أخذه ﷺ فوضعه بيده في موضعه[1] .

فانظر كيف سلك بهم رسول الله ﷺ طريقَ الإنصافِ ليرفع من بينهم الخلاف .

---

(١) وقد روى هذه القصة أبو داود الطيالسي وابن راهويه وغيرهما ، كما في الجزء الأول من شرح المواهب .

رابعاً ـ ومن أعظم ما يدلُّ على أرجحيَّة عقله الشريف ﷺ وفرط ذكائه مواقفه اليقِظة مع المتصدِّين له بالعداوة ، وأخذُه بأنواع الحذر منهم ، وردُّه مكرهم عليهم ، ويظهر ذلك في الوقائع معهم ، ونقدِّم إليك نماذجَ موجزة :

١ ـ أخذه بأسباب التحفظ من مكرهم وخديعتهم : كما ورد عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال : أُتي بي إلى النبي ﷺ مَقْدَمَه المدينة ـ أي حين : قدم المدينة ـ فقيل له ﷺ هذا من بني النجار ، وقد قرأ سبع عشرة سورة .

فقرأتُ عليه ﷺ ، فأعجبه ذلك .

فقال لي ﷺ : « تعلَّمْ كتابَ يهود ـ أي : كتابتهم ولغتهم ـ فإني ما آمنهم على كتابي » .

قال زيد : ففعلت ، فما مضى لي نصف شهر حتى حَذِقْتُه ، فكنتُ أكتب له إليهم ، وإذا كتبوا إليه قرأتُ له ﷺ[1] .

وقال في (الإصابة) : ورويناه في (مسند) عبد بن حُمَيد من طريق ثابت بن عبيد عن زيد بن ثابت قال : قال لي النبي ﷺ : « إني أكتب إلى قوم ، فأخاف أن يزيدوا أو ينقصُوا فتعلم السريانية » .

قال زيد : فتعلمتها في سبعة عشر يوماً .

وفي (خِطَط) المقريزي : كتابة السريانية قديمة ، لها أصل في

(١) عزاه الحافظ في (الإصابة) إلى البخاري تعليقاً ، وإلى البغوي وأبي يعلى موصولاً .

السنة ، فقد أخرج أبو بكر عبد الله بن أبي داود في كتاب (المصاحف) عن زيد بن ثابت قال : قال رسول الله ﷺ : « إنها تأتيني كتب لا أحب أن يقرأها كل أحد ، فهل تستطيعُ أن تَعَلَّم كتاب العبرانيَّة ـ أو قال السريانية ؟ » .

فقلت : نعم ، فتعلمتها في سبع عشرة ليلة .

فقد أمر ﷺ زيد بن ثابت أن يتعلم العبرانية ، ليكاتب اليهود بلغتهم ، وليأمن تلاعبهم في المكاتبات ؛ ولغير ذلك .

ومن ثَمَّ قيل : مَن تعلَّم لغةَ قومٍ أمِنَ مكرَهم .

٢ ـ إرساله ﷺ من يكشف عن عدد العدو وعدتِّه ، وأساليبه في معرفة ذلك :

فقد روى أبو داود الطيالسي وابن راهُوْيَهْ وغيرهما أنَّ النبي ﷺ بعث يوم بدر علياً كرَّم الله تعالى وجهه والزبير وسعد بن مالك في نفر إلى ماء بدر ، يلتمسون له الخبر عن العدو : عددِهم وعُدَّتِهم ـ فأصابوا راوية لقريش فيها غلام ـ أي : عبد مملوك ـ لبني الحجاج ، وغلام لبني العاص ، فجعلوا يسألونهما عن عدد القوم المشركين ، فطفِقَا يقولان : العدد كثير ، فأتَوْا بهما رسول الله ﷺ وهو يصلي ، فلمَّا سلَّم قال : « أخبِراني عن قريش » .

فقالا : هم وراء هذا الكثيب الذي تراه بالعُدْوة القصوى .

فقال ﷺ : « كم القوم ؟ » فقالا : كثير ،

فقال ﷺ « ما عِدَّتهم ؟ » قالا : ما ندري .

فقال ﷺ : « كم ينحرون ـ أي : من الإبل ـ كلَّ يوم ؟ » فقالا : يوماً تسعاً ويوماً عشراً .

فقال ﷺ لأصحابه : « القوم ـ أي : العدو ـ ما بين التسعمائة والألف » وكان الأمر كذلك[1] .

٣ ـ إرساله ﷺ من يكشف له عن خبر الأعداء ، من طريق خفي الحال والقال :

ومن ذلك إرساله حذيفةَ يوم الأحزاب ، وقوله : « يا حذيفة اذهب فادخل في القوم فانظر ماذا يفعلون ، ولا تُحْدِثْ شيئاً حتى تأتينا » .

وفي رواية : « اذهب فائتني بخبر القوم ولا تُحْدِثْ شيئاً حتى تأتيني »[2] .

٤ ـ إرساله ﷺ من يُخذِّل بين صفوف أعدائه مخادعة لهم ، واختياره الرجل المناسب لأن يتدخل بين العدو ، يخدعهم ويفرِّق شملهم

ومن ذلك : ما فعله ﷺ يوم الأحزاب ، حين أتاه نُعيم بن مسعود الأشجعي رضي الله عنه ، فقال : إني أسلمتُ ، وإن قومي لم يعلموا بإسلامي ، فَمُرْني بما شئت .

فقال ﷺ : « إنما أنتَ فينا رجل واحد ، فخذِّل عنا إن استطعتَ ، فإنَّ الحرب خدْعة ، فاذهب فثبِّت جموعَ العدو وألْقِ بينهم بدهائك » .

(١) انظر شرح المواهب .
(٢) عزاه في شرح المواهب وغيره إلى ابن إسحاق .

فخرجَ حتى أتى بني قُريظة ـ وهم طائفة من اليهود ـ وكان لهم نديماً ، فقال : قد عرفتم ودِّي إياكم ، وخاصةَ ما بيني وبينكم .

قالوا : صدقتَ لستَ عندنا بتُهم .

فقال لهم : إن قريشاً وغَطَفان[1] ليسوا كأنتم ـ أي : مثلكم ـ البلدُ بلدكم ، به أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم ، لا تقدرون أن تتحوَّلوا منه إلى غيره ، وإنهم جاؤوا لحرب محمد وأصحابه ، وقد ظاهرتموهم عليهم ، وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره ـ أي : بغير بلدكم ـ فإن رأوْا نُهْزةً أصابوها ، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم ، وخلَّوْا بينكم وبينه ـ أي : محمد وأصحابه ـ ببلدكم ، ولا طاقةَ لكم به إن خلا بكم ، فلا تقاتلوا معهم حتى تأخذوا منهم رهناً من أشرافهم ، يكونون بأيديكم ثقةً لكم ، على أن تقاتلوا معهم محمداً حتى تناجزوه .

فقالوا لنعيم : لقد أشرتَ بالرأي .

ثم أتى نُعيم بن مسعود قريشاً ،فقال لأبي سفيان ومن معه : قد عرفتم ودِّي لكم وفراقي محمداً ؛ وإنه قد بلغني أمر رأيتُ حقاً عليَّ أن أبلغكموه ، نصحاً لكم فاكتموه عني .

قالوا : نفعل

فقال نُعيم : إن يهودَ ندموا على ما صنعوا ، وأرسلوا إلى محمد : إنا

(١) وقد جاؤوا من مكة ، وتجمعوا على جانب المدنية المنورة ، لمحاربة النبي ﷺ وأصحابه ، وتحالفت معهم بنو قريظة من اليهود المقيمين في المدينة على ذلك .

قد ندمنا على ما فعلنا ، أيُرضيك أن نأخذ من أشراف قريش وغَطَفان رجالاً نضرب أعناقهم ، ثم نكون معك على من بقي منهم حتى نستأصلهم ؟

فأرسل إليهم ـ محمد ـ : نعم .

قال نُعيم : فإن بعثتْ إليكم يهودُ يلتمسون منكم رهناً فلا تدفعوا إليهم رجلاً واحداً .

ثم إن نعيماً أتى غَطفان فقال : إنكم أصلي وعشيرتي وأحبُّ الناس إليّ ولا أراكم تتهمونني ـ أي : بل أنا مصدَّقٌ عندكم ـ .

فقالوا : صدقتَ وما أنت عندنا بمتهم .

قال نعيم : فاكتموا عني .

قالوا: نفعل ، فقال لهم مثل ما قال لقريش .

وكان من صُنْعِ الله لرسوله ﷺ أن أبا سفيان ورؤوس غطفان أرسلوا إلى يهود من بني قريظة ، عكرمة في نفر من القبيلتين : إنا لسنا بدار مقام ، وقد هلك الخف والحافر ـ أي : الإبل والخيل ـ فاغدوا للقتال ، حتى نناجز محمداً ونفرغ مما بيننا وبينه .

فأرسلوا ـ أي : يهود بني قريظة ـ إليهم ـ إلى قريش وغطفان ـ : إن اليوم يوم السبت ، لا نعمل فيه شيئاً وكان قد أحدث فيه ـ أي : في السبت ـ بعضُنا حَدَثاً ، فأصابه ما لم يَخْفَ عليكم ـ أي : مُسِخوا ـ ولسنا بمقاتلين معكم حتى تُعْطونا من رجالكم ، يكونون بأيدينا ثقةً لنا حتى نناجز محمداً ، فإنا نخشى إن اشتدّ عليكم القتال ، أنْ ترجعوا إلى

بلادكم ـ مكة وما حولها ـ وتتركونا والرجل ـ أي : محمداً ـ ولا طاقة لنا به .

فقالت قريش وغطفان : والله إن الذي حدثكم نعيم به لَحَقّ ، فأرسلوا إلى بني قريظة : إنا والله لا نقاتل معكم حتى تعطونا رهناً ، فأبَوْا عليهم .

وخذَّل الله بينهم ، وبعث الله عليهم الريح في ليالٍ شديدة البرد ، فأكْفأت قدورهم ، وطرحتْ أبنيتهم[1] .

٥ ـ تعميته الأمور على أعدائه وتلبيس الأمور عليهم :

وكان ﷺ يُلبِّس أمور الحرب على أعدائه ويُعمِّيها عنهم ، كيلا يتفطنوا لها ، ويستعدوا للدفع ، أو يزيدوا في الجمع ، وفي ذلك حقن للدماء .

جاء في الصحيحين عن كعب بن مالك رضي الله عنه أنه قال : لم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورَّى بغيرها ، حتى كانت تلك الغزوة ـ أي : عزوة تبوك ـ غزاها في حرّ شديد واستقبل سفراً بعيداً ، وغزا عدداً كبيراً ، فجلَّى للمسلمين أمرهم ليتأهَّبوا أُهْبة غزوهم ، فأخبرهم بوجهه الذي يريد ـ أي : فصرَّح لهم بالجهة التي يريدها ـ ولم يورِّ بغيرها .

كما أنه ﷺ لبَّس الأمر على أعدائه ليلة الهجرة ، حين قصدوا

(١) ذكر ذلك ابن إسحاق ، كما في شرح المواهب ، ولخص ذلك الحافظ ابن حجر في (الفتح) .

بيته ﷺ ليقتلوه ، فأمر علياً رضي الله عنه أن ينام في فراشه ﷺ ، ويتسجَّى ببردته ﷺ .

٦ ـ أخذه ﷺ بالأسباب التي فيها تخويف وإرهاب :

كان ﷺ يأخذ بالأسباب التي فيها إرهابُ أعدائه وتخويفُهم ، وذلك ليُضْعِفَ من حدَّتهم ، ويكفَّ من شرهم وضُرّهم ، وشراسة نفوسهم .

فقد ورد أن النبي ﷺ لما توجّه لفتح مكة ، وانتهى إلى مَرِّ الظَّهران ، أمر أصحابه فأوقدوا عشرة آلاف نار لتراها قريش ، وترهبَ من كثرتها ، حتى قال أبو سفيان ومن معه حين رأوها من بعيد : لكأنها نيران عرفة ـ أي : في كثرتها ـ وكان ذلك مما ألقى الخوفَ في قلوبهم .

كما أمر ﷺ عمه العباس أن يُجلس أبا سفيان على الطريق عند مضيق خَطْم الجبل ، وذلك ليشاهد جيوش المسلمين وكتائبهم حين تمر عليه .

ثم جعلتْ تمرّ عليه كتيبةً كتيبة ، فجعل أبو سفيان يقول للعباس : مَنْ هذه الكتيبة يا عباس ؟

وطفِق العباس يخبره عن تلك الكتائب واحدةً واحدةً ، وذلك مما حمل أبا سفيان على التضامن والاستسلام ، إلى أن دخل في الإسلام .

٧ ـ انتقاؤه الشجعان الأكفاء لمقاومة المعارك العنيفة :

كان ﷺ ينتقي لخوض المعارك العنيفة أكْفاء الرجال من الأبطال ، حسب الاستعداد والمناسبة ، لخوض تلك المعركة الدامية ، ثم يتبين للصحابة بعد ذلك دقةُ نظره ﷺ في تعيين ذلك الرجل الذي انتقاه ، وصواب رأيه فيه .

فهذا يوم خيبر يقول ﷺ : « لأُعْطينَّ الرايةَ غداً رجلاً يحبه الله ورسوله ، ويفتح الله على يديه » .

فلما أصبح الناس غَدَوْا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو منه أن يُعطاها ،

فقال ﷺ : « أين علي بن أبي طالب ؟ » .

فقالوا : يا رسول الله هو يشتكي عينيه ـ فأرسل إليه ، فأُتيَ به وهو أرمد ، فبصق ﷺ في عينيه ودعا له فقال : « اللهم أذهِبْ عنه الحرَّ والقَرَّ » ـ أي : البرد ـ فبرأ كأنْ لم يكن به وجع .

وفي رواية البيهقي والطبراني عن علي كرَّم الله وجهه قال : فما رمدتُ ولا صُدعت مذ دفع إليَّ رسول الله ﷺ الراية يوم خيبر .

وفي رواية يونس عن ابن إسحاق : وكان علي رضي الله عنه يلبس القباء المحشوَّ الثخين في شدَّة الحر فلا يبالي الحرَّ ، ويلبس الثوب الخفيف في شدة البرد فلا يبالي البرد ، فسئل عن ذلك ؟ فأجاب بأن ذلك بدعائه ﷺ يوم خيبر .

وفي يوم أُحد لما اشتدت المعركة قال ﷺ : « مَنْ يأخذُ هذا السيف بحقه ؟ » .

فقام إليه رجال ، منهم : الزبير بن العوام فطلبه ثلاث مرات ، كل ذلك يُعرض عنه ، حتى قام إليه أبو دُجانة سماك بن خَرَشة فقال : وما حقُّه يا رسول الله ؟

قال : « أن تضرب به وجه العدو حتى ينحني » ـ وكان رجلاً شجاعاً

يختال عند الحرب ، فلما رآه ﷺ يتبختر قال ﷺ : « إنها لمِشْيةٌ يُبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن » .

قال الزبير : والله لأنظرنَّ ما يصنع أبو دجانة ، واتبعتُه ، فأخذ بعصابة له حمراء فعصب بها رأسه فقالت الأنصار : أخرج عصابة الموت ، فخرج وهو يقول :

أنـا الذي عـاهـدني خليـلي
ونحن بالسفح لدى النخيل
ألاَّ أقومَ الدهرَ في الكيُّول[1]
أضربْ بسيف الله والرسول

فجعل لا يلقى أحداً من المشركين إلا قتله ، قال الزبير : وكان في المشركين رجل لا يَدع لنا جريحاً إلا ذَفَّف عليه[2] فجعل كل واحد منهما يدنو من صاحبه ، فدعوت الله أن يجمع بينهما ، فالتقيا ، فاختلفا ضربتين ، فضرب المشرك أبا دجانة فاتَّقاه بدَرقته ، فعضَّت بسيفه ، وضربه أبو دجانة فقتله ، ثم رأيته حمل بالسيف على رأس هند بنت عتبة ، ثم عدل عنها وقال : أكرمتُ سيفَ رسول الله ﷺ أن أضرب به امرأة[3] .

(١) الكيول : بفتح الكاف وتشديد الياء : مؤخرة الصفوف .
(٢) بالذال المعجمة وبالمهملة : أسرع في قتله ، كما في شرح المواهب .
(٣) انظر شرح المواهب .

٨ ـ انتقاؤه الرسل الأذكياء العقلاء ليبعثهم إلى الأمراء والملوك ، يبلغون ، ويُدْلون بالحجج المعقولة ، والحِكَم المقبولة :

يشهد لهم بذلك حُسْن عرضهم في مواقفهم مع الملوك ، وقوة بيانهم وبرهانهم :

فهذا العلاء بن الحضرمي يبعثه رسول الله ﷺ إلى المنذر بن ساوَى ، ومعه كتاب يدعوه إلى الإسلام ، فلما قدِم عليه قال له :

يا منذر إنك عظيم العقل فلا تصغُرنَّ في الآخرة ، إن هذه المجوسية شرُّ دين ، ليس فيها تكريم للعرب ، ولا عُلِمَ عند أهل الكتاب أنهم ينكحون ما يُستحيا من نكاحه ، ويأكلون ما يُتكرَّم عن أكله ، ويعبدون في الدنيا ناراً تأكلهم يوم القيامة ، ولستَ بعديم العقل ولا الرأي ، فانظر هل ينبغي لمن لا يكذب في الدنيا أن لا تصدقه ؟ ولمن لا يخون أن لا تأمنه ؟ ولمن لا يُخْلِفُ أن لا تثقَ به ؟ .

فإن كان هذا هكذا : فهذا هو النبي الأميّ الذي ـ والله ـ لا يستطيع ذو عقل أن يقول : ليتَ ما أمر به نهى عنه ، وما نهى عنه أمر به ، أوليتَه زاد في عفوه ، أو نقص من عقابه إذْ كل ذلك منه على أمنية أهل العقل ، وفكر أهل النظر .

فقال له المنذر : قد نظرت في هذا الذي في يدي ـ دين المجوسية ـ فوجدتُه للدنيا دون الآخرة ، ونظرت في دينكم فرأيته للآخرة والدنيا ، فما يمنعني من قبول دين فيه أمنية الحياة وراحة الموت ؟! ولقد عجبتُ أمسِ ممن يقبله ـ أي : يدخل في الإسلام ـ وعجبتُ اليوم ممن يردُّه

ـ أي : لا يدخل فيه مع أنه المعقول ـ وإن من إعظام ما جاء به أن يُعظم رسوله ـ وسأنظر ؛ أي : فيما أصنع من الذهاب إلى هذا الرسول ﷺ ـ أو مكاتبته ، أو غير ذلك .

لافي أنه يُسْلم أو لا يُسْلم ، فإن قوله : وعجبتُ اليوم ممن يرده : اعترافٌ منه بأنه دين حق . اهـ كما في شرح المواهب وغيره .

وهذا المهاجر بن أبي أمية المخزومي ؛ شقيق أم سلمة أم المؤمنين ، بعثه رسول الله ﷺ إلى الحارث بن عبد كُلال أحد ملوك حمير ، فلما قدِم عليه المهاجر قال له :

يا حارث إنك كنتَ أول من عرض عليه المصطفى نفسه فَخَطِئْتَ عنه ، وأنتَ أعظم الملوك قدراً ، وإذا نظرتَ في غلبة الملوك فانظر في غالب الملوك ، وإذا سرك يومكَ فَخَفْ غدك ، وقد كان قبلك ملوك ذهبتْ آثارُها ، وبقيتْ أخبارُها ، عاشوا طويلاً وأمَّلوا بعيداً ، وتزودوا قليلاً ، فمنهم من أدركه الموت ، ومنهم من أكلته النِّقم .

وأنا أدعوك إلى الرب الذي إن أردتَ الهدى لم يمنعْك ، وإن أرادك لم يمنعه منك أحد ، وأدعوك إلى النبي الأمي الذي ليس شيء أحسنَ مما يأمر به ، ولا أقبحَ مما ينهى عنه .

واعلم أن لك رباً يميت الحي ، ويحيي الميت ، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور . اهـ كما في (الروض الأُنُف) .

٩ ـ معاملته ﷺ وحسن سياسته ، ومداراته للناس على مختلف طبقاتهم تأليفاً لهم ، واستمالتهم نحو الحق الذي جاء به ، بتلطيف الحال ولين المقال :

كما رُوي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « رأس العقل بعد الإيمان بالله : التوددُ إلى الناس »[1] .

وكان يداري السفهاء والحمقى ، ليكفَّ من غائلتهم وشرهم ، وليستميلهم ويجلب قلوبهم نحو السَّداد والرَّشاد :

ففي الصحيح عن عائشة رضي الله عنها : أن رجلاً استأذن على النبي ﷺ فلما رآه قال : « بئس أخو العشيرة ، وبئس[2] ابن العشيرة » فلما جلس تَطَلَّق[3] النبي ﷺ في وجهه ، وانبسط إليه .

وفي رواية : فلما دخلَ ألانَ له الكلام ، فلما انطلق الرجل قالت عائشة رضي الله عنها : (يا رسول الله حين رأيتَ الرجل قلتَ له كذا وكذا ، ثم انطلقتَ في وجهه ، وانبسطت إليه) ؟!

فقال ﷺ : « يا عائشة متى عهِدتِني فَحَّاشاً ؟ إن شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة مَنْ تركه الناس اتِّقاءَ شره » .

---

(١) رواه البيهقي والبزار ، وسنده ضعيف كما في (فيض القدير) وشرح المواهب ، وعزاه في (فتح الباري) إلى البزار بلفظ : « رأس العقل بعد الإيمان بالله مداراة الناس » ، وتعقبه السخاوي بأن لفظ البزار « التودد إلى الناس » اهـ كما في شرح المواهب .

(٢) بالواو ، وفي رواية : بأو ، وهو شك من الراوي حينئذ .

(٣) قال في (الفتح) : أي : أبدى له طلاقة ، وفي رواية : بش اهـ .

وفي رواية : « اتقاءَ فحشه » أي : لأجل اتقاء قبح قوله وفعله ،

فلما دخل هذا الرجل ، وكان يقال له الأحمق ـ أي : فاسد العقل ـ لم يقابله ﷺ بغلظة وفحش ، بل ألانَ له القول ، وسلك معه مسلك المداراة .

ولذا قال العلماء : هذا الحديث أصل في المدارة ، وفرَّقوا بين المداراة المطلوبة ، وبين المداهنة المذمومة :

أن المداراة هي : بذل الدنيا لصلاح أمر الدنيا أو الدين ، أو صلاح الدنيا والدين معاً ، ومن ذلك البذل : لينُ الكلام ، وترك الإغلاظ في القول والرفق بالجاهل في التعليم ، والرفق بالفاسق في النهي عن فعله ، وترك الإغلاظ عليه مالم يُظهر ما هو فيه ، والانكار عليه بلطمة حتى يرتدع عما هو فيه[1] .

قال الإمام القسطلاني : وهي مباحة وربما استُحْسِنت .

قال الحافظ الزرقاني : وربما استُحسنت فكانت مستحبة أو واجبة .

وللديلمي في (الفردوس) عن عائشة مرفوعاً : « إن الله أمرني بمداراة الناس كما أمرني بإقامة الفرائض » .

ولابن عدي والطبراني عن جابر مرفوعاً : « مداراة الناس صدقة »[2] اهـ .

وأما المداهنة فهي : بذل الدين لصلاح الدنيا ، وهي مذمومة ، وقد

(١) انظر شرح المواهب .
(٢) كلا الحديثين فيه ضعف ، كما في شرح المناوي .

نزَّه الله تعالى نبيه ﷺ عنها ، فقال : ﴿ ودُّوا لو تُدْهِنُ فيُدهنون ﴾ وإنما كان ﷺ يداري ولا يداهن .

وعن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال : (كان رسول الله ﷺ يُقبل بوجهه على شرِّ القوم ، يتألَّفهم بذلك . . .) الحديث رواه الترمذي وغيره ويأتي بتمامه .

خامساً ـ ومن أعظم الأدلة على كمال عقله الشريف ﷺ وأرجحيَّته : سعةُ علومه ﷺ ، فقد أفاض الله تعالى عليه العلوم العظمى ، والمعارف الكبرى ، وأراه الآيات ، وأيَّده بالبيِّنات ، وصدَّقه بالمعجزات ، وجمع له جميع أنواع الوحي الإلهي ، وذلك لا يقوم به ، ولا يقدر لتحمُّله إلا من خصَّه الله تعالى بأعظم قلب ، وأو سع عقلٍ ، ألا وهو السيِّد الأكرم ﷺ .

ومما ينبغي أن يُعلم في هذه المناسبة أن جميع ما جاء به رسول الله ﷺ من القضايا والأوامر ، والإرشادات والتعليمات ، والجزئيات والكليات ، هي أمانيُّ العقلاء والحكماء ، وغايات أهل النظر والفكر[1] ، ويتضح لك ذلك من وجوه :

الوجه الأول : إن موضع التكاليف الشرعية هو العقل ، حتى إذا فُقد العقل ارتفع التكليف ، وهذا واضح في اعتبار تصديق العقل بالأدلة في لزوم أوامر التكليف ، فلو جاءت الأوامر الشرعية التي جاء

(١) كما أعلن ذلك العلاء بن الحضرمي رضي الله عنه للمنذر بن ساوى حين أرسله رسول الله ﷺ بكتابه إليه واعترف له بذلك المنذر كما تقدم .

بها ﷺ على خلاف ما تقتضيه العقول السليمة ، لكان لزوم التكليف بها على العقلاء في غير موضعه .

الوجه الثاني : لو كانت أوامره ومناهيه وقضاياه غير معقولة ، لكان التكليف بها تكليفاً بما لا يُطاق ، لأنه تكليف بالتصديق بما لا يصدقه العقل .

الوجه الثالث : لو كان فيما جاء به ﷺ مناقضة للعقول ، لكان الكفار في زمنه أول من ردُّوا عليه بذلك ، لأنهم كانوا في غاية الحرص على ردِّ ما جاء به ﷺ ، حتى إنهم كانوا يفترون عليه وعلى شريعته ؛ فتارةً يقولون ساحر ، وتارة مجنون ، وتارة يكذبونه ؛ كما أنهم كانوا يقولون في القرآن : سحر وشعر ، وغير ذلك من كلامهم المتناقض ، فإن السحر والشعر كيف يتفق مع الجنون . . .!! .

فلو كانت قضاياه ﷺ غير معقولة لكان أولى ما يقولون : إن هذا لا يعقل ، أو مخالف للعقول ونحو ذلك ، وَلَما صَدَر منهم ذلك التناقض في قولهم ساحر وشاعر ونحو ذلك ! .

الوجه الرابع : إن جميع العقلاء والحكماء في زمنه ﷺ شهدوا بحقِّية ما جاء به ، وأنه المعقول المحكم ، ولذلك سلَّموا وأسلموا .

فهذا المنذر بن ساوى يقول : وما يمنعني من دين فيه أمنية الحياة ؟ كما تقدم .

وهذا النَّجاشي حين قال له جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه : (إنا كنا قوماً أهلَ جاهلية نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ،

ونقطع الأرحام ، ونُسيء الجوار ، ويأكل القوي فينا الضعيف ، حتى يبعث الله إلينا رسولاً منا ، نعرف نسبه وصدقه ، وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله عزَّ وجلَّ لنوحِّده ونعبده ، ونخلع ما كنا نحن وآباؤنا نعبد من دون الله : من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدقِ الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحق الجوار ، والكفّ عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش ، وشهادة الزور ، وأكل مال اليتيم) .

فقال النجاشي بعد ذلك : (مرحباً بكم وبمن جئتم من عنده ، أشهد أنه رسول الله وأنه الذي نجد في الإنجيل ، وأنه الرسول الذي بشَّر به عيسى ابن مريم ، والله لولا ما أنا فيه من الملك لأتيت هذا النبيَّ حتى أكون أنا الذي أحمل نعليه) رواه أحمد ، وفي رواية للطبراني : (لأتيتُه حتى أقبِّل نعليه ﷺ) .

وهذا أكثم بن صيْفي يبعث جماعةً من قومه إلى النبي ﷺ حين بلغه مَخْرج النبي ﷺ ، فأتيا النبي ﷺ فقالا له : نحن رُسُل أكثم بن صيفي ، وهو يسألك : من أنت ؟ وما أنت ؟ وبمَ جئت ؟

فقال ﷺ : « أما : من أنا ؟ فأنا محمد بن عبد الله .

وأما : ما أنا ؟ فأنا عبد الله ورسوله ، جئتكم بقول الله تعالى :

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكَّرون ﴾» .

فقالا : ردِّد علينا هذا القول ، فردَّده عليهم حتى حفظوه .

فأتيا أكثم فقالا له : أبى أن يرفع نسبه ، فسألْنا عن نسبه ، فوجدناه

زاكيَ النسب وَسَطاً في مضر ـ أي : شريفاً ـ، وقد رمى إلينا بكلمات ، قد سمعناها ، فلمَّا سمعهنّ أكثم قال : إني أراه يأمر بمكارم الأخلاق ، وينهى عن ملائمها ، فكونوا في هذا الأمر رؤوساً ، ولا تكونوا فيه أذناباً[1] .

فجميع ما جاء به رسول الله ﷺ هو المعقول المحْكَم ، لذا استسلمتْ له أهل الأفكار والعقول ، ولا يمكن أن يكون فيما جاءَ به ﷺ متناقضات عقلية ، أو محالات فكرية أصلاً ، ولكن قد يأتي بعظائم من الحكمة العالية السامية ، التي تعجز العقول البشرية عن الإحاطة بها ، واستيعاب جميع أسرارها لضعف العقول عن ذلك ، كما تضعف الأبصار عن التحديق في ضياء الشمس ، والإحاطة بنورها ، وإنما ترى الأبصار من نور الشمس مالا يسَعها إنكاره ، ولكنها لا تستطيع إدراكه وإحاطته .

فالشريعة المحمدية هي أحكام الله تعالى ، وإن أحكام الله تعالى صادرة عن علمه سبحانه وحكمته ، وأنَّى للمخلوق أن يحيط علماً بذلك كله ؟! .

سعة علمه ﷺ وكثرة علومه التي لا يُحصيها إلا الله تعالى الذي أفاضها عليه

كان رسول الله ﷺ واسعَ العلم ، عظيمَ الفهم ، أفاض الله تعالى عليه العلوم النافعة الكثيرة ، والمعارف العالية الوفيرة ، وقد أعلن

(١) قال الحافظ ابن كثير : رواه أبو يعلى في كتاب : (معرفة الصحابة) .

سبحانه وتعالى بسعة علمه ﷺ ، وأعلم بعظيم فضله ، فقال سبحانه : ﴿ وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمَّك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً ﴾ .

فهو ﷺ أعلمُ خلق الله تعالى ، وأعرفهم بالله تعالى ، كما ورد في (الصحيحين) أنه ﷺ قال : « إن أتقاكم وأعلمَكم بالله أنا » .

وفي رواية الأصيلي « أنا أعرفكم بالله » .

ومن تدبَّر في تعاليم الله تعالى لرسله وأنبيائه صلوات الله تعالى عليهم ، الواردة في القرآن الكريم ، يتضح له جلياً أن سيدنا محمداً ﷺ قد علمَّه الله تعالى علوماً هي أكثر وأوفر وأجمع وأعمّ ، وذلك لأنه سبحانه قال : ﴿ وعلمّك ما لم تكن تعلم ﴾ ، فجيء بـ ﴿ ما ﴾ التي هي للعموم والشمول ، لتعمَّ جميع العلوم التي علمَّها الله تعالى لرسله وأنبيائه ، ولتشمل غيرها من العلوم التي أفاضها الله سبحانه عليه .

روى الحافظ أبو بكر بن عائذ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : لما وُلد النبي ﷺ قال في أُذنه رضوان خازن الجنان : (أبشر يا محمد ! فما بقي لنبيٍّ علم إلا وقد أُعطيتَه ، فأنت أكثرهم علماً واشجعهم قلباً)[1] .

وجاء في (الصحيحين) واللفظ لمسلم عن أنس رضي الله عنه أن

(١) أورد ذلك العلامة القسطلاني في (المواهب) ، نقلا عن الشيخ بدر الدين الزركشي ، قال الحافظ الزرقاني : وهذا أرسله ابن عباس ، ومرسل الصحابي وصل في الأصل ، وحكمه الرفع ، إذ لا مجال فيه للرأي . اهـ .

الناس سألوا نبيَّ الله ﷺ حتى أحْفَوْه بالمسألة ـ أي : أكثروا عليه الأسئلة ـ فخرج ذات يوم فصعِد المِنبر فقال : « سلوني ـ لا تسألوني عن شيء إلا بيَّنتُه لكم » ـ .

وفي رواية : « إلاّ أخبرتكم به ما دمتُ في مقامي هذا » .

فلما سمع القوم أرَمُّوا ـ أي : سكتوا ـ ورهبوا ـ أي : خافوا ـ أن يكون بين يدي أمر قد حضر ، فجعلت ألتفتُ يميناً وشمالاً فإذا كلُّ رجلٍ لاف رأسَه في ثوبه يبكي ، فأنشأ رجل من المسجد كان يُلاحَى فيُدعى لغير أبيه ، فقال : يا نبيَّ الله من أبي ؟ قال : « أبوك حذافة » .

ثم أنشأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : رضينا بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد رسولاً ، عائذاً بالله من سوء الفتن .

فقال رسول الله ﷺ : « لم أرَ كاليوم قطُّ في الخير والشر ، إني صُوّرتْ لي الجنةُ والنارُ فرأيتُهما دون هذا الحائط » .

فليعتبر المعتبر في قوله ﷺ : « لا تسألوني عن شيء إلا بيَّنته لكُم » .

ومع هذا كله فقد أمره الله تعالى أن يسأله الزيادة في العلم دائماً أبداً ، قال تعالى : ﴿ وقل ربِّ زدْني علماً ﴾ .

ولم يأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يسأله الزيادة من شيء إلا الزيادة من العلم .

فلذلك كان ﷺ يدأب في دعائه بزيادة العلم ليله ونهاره ، فإذا استيقظ في الليل قال : « لا إله إلا أنت ، سبحانك اللهم وبحمدك ،

استغفرك اللهم لذنبي وأسألك رحمتك ، اللهم زدني علماً ، ولا تُزِغْ قلبي بعد إذ هديتَني ، وهبْ لي من لدنك رحمةً ، إنك أنت الوهاب » كما في صحيح مسلم وغيره .

وروى الترمذيُّ وابن ماجه بسند حسن عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ دعا فقال : « اللهم انفعني بما علَّمتَني ، وعلّمني ما ينفعني ، وزدْني علماً ، والحمد لله على كل حالٍ ، وأعوذ بالله من حال أهل النار » .

كما وأنه ﷺ دائم الترقي في العلوم والمعارف الآلهية ، تتوارد عليه الفيوضات الآلهية والفتوحات الربانية ، كما جاء في صحيح مسلم عن عياض بن حمار المجاشعي أن رسول الله ﷺ قال : « إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني في يومي هذا . . » الحديث .

ففي كل يوم يُفيض الله تعالى علوماً ومعارف ، وقد أمره الله تعالى أن يُعلِّم الناس من بعض تلك العلوم المفاضة عليه ، حسب ما يحتاجون ويتحمَّلُون ويستعدُّون على الوجه الذي أمره الله تعالى به .

هذا ، وإن أحداً من خلق الله تعالى لا يستطيع أن يُحيط بأبواب علوم رسول الله ﷺ ، ولا بأنواعها بل ولا أجناسها ، لا يُحيط بذلك إلا الله تعالى الذي أفاض عليه جميع ذلك .

وإنني أذكر بعض الوجوه من الحجج الدالة على سعة علمه ﷺ وكثرة علومه ، ليتعلم الجاهل ، وليتنبه الغافل ، وليزداد إيمان المؤمن الكامل ، بهذا الرسول الكريم ﷺ .

الدليل الأول : هذا القرآن الكريم الذي أقرأه الله تعالى إيَّاه ،

وجمعه له في صدره الشريف ، وعلَّمه إيَّاه ، وبيَّنه له ، وأمره بتبيانه للناس ، وكشف له عن حقائقه القرآنية والفرقانية ، وعن معانيه وأسراره وأنواره ، وظاهره وباطنه .

قال الله تعالى : ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من عَلَق . اقرأ وربُّك الأكرم . الذي علَّم بالقلم . علم الإنسان مَا لم يعلم ﴾ .

وهذه الآيات الخمسة هي فاتحة نزول القرآن على النبي ﷺ جاءه بها جبريل عليه السلام ليلة نبوَّته .

كما ورد في (الصحيحين) عن عائشة رضي الله عنها قالت : (أوَّلُ ما بُدِيء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثلَ فَلَق الصبح ، ثم حُبِّب إليه الخلاء ، فكان يخلو بغار حِراء فَيَتَحنَّث فيه ـ وهو التعبُّد ـ الليالِيَ ذواتِ العدد ، وكان يتزوَّدُ لذلك حتى جاءه الحق وهو بغار حِراء ، فجاءه الملك فقال له : اقرأ ، فقال : « ما أنا بقارىء » .

قال : فأخذني فغطَّني حتى بلغ مني الجَهد ، ثم أرسلني ، فقال : اقرأ ، فقلتُ : ما أنا بقارىء .

قال : فأخذني فغطَّني الثانية حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني ، فقال : اقرأ ، فقلتُ : ما أنا بقارىء

قال : فأخذني فغطني الثالثة ، ثم أرسلني ، فقال : ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذي علَّم بالقلم ، علَّم الإنسان ما لم يعلم ﴾ . . .) الحديث .

فهذا جبريل عليه السلام يأتي رسول الله ﷺ بالقرآن الكريم ، ويقول له : اقرأ ، فيقول : ما أنا بقارىء ، أي : لأنه نشأ أُميًّاً لم يتعلم القراءة ولا الكتابة ، فهنا يقول جبريل عليه السلام ثلاث مرات : اقرأ ، ثم يضمه إليه بعد كل قَوْلة ضمةً قوية ، وذلك ليفيض عليه ما أوحاه الله تعالى إليه ، من المعاني والأسرار والأنوار ، المنوطة في الجسم والقلب والروح ، ثم يقول له : ﴿ اقرا باسم ربك ﴾ يعني : أنت اقرأ باسم ربك ، لا بدراستك ولا ثقافتك ، لأنك ليس لك سابقة دراسة ولا تعلُّم ، وبهذا يصبح رسول الله ﷺ قارئاً عالماً ، يتلو كلام الله تعالى بعد أن مضتْ عليه أربعون سنة لم يأتِ قومه بآية ؛ وفي هذا برهان قاطع ، ودليل ساطع أن محمداً رسول الله ناطق بالوحي عن الله تعالى .

قال الله تعالى : ﴿ قل : لو شاء الله ما تلوْتُه عليكم ، ، ولا أدراكم به ، فقد لبثتُ فيكم عُمُراً من قبله ، أفلا تعقلون ﴾ ؟!.

يعني أن من تَعقَّل أمر سيدنا محمد ﷺ أيقن أنه رسول الله حقاً ، لا يحتمل أمره غير ذلك ، وأن قضيَّته ليست من باب العبقرية ، ولا من باب الفهم والذكاء ، وإنما قضيتُه أنه رسولٌ يوحي الله تعالى إليه .

بل إنه سبحانه وتعالى أبطل مزاعم المنكرين لنبوَّة سيدنا محمد ﷺ ، الذين ادَّعَوْا أن ما جاء به من الهدى والعلم والرشاد ، هو من باب الثقافة والحصافة ، أو من باب فرط الذكاء ، وجَوْدة العبقري ، أبطل جميع تلك المزاعم بأنه أُمي لم يتعلم قراءةً ولا كتابة ، ولم يستمع إلى

معلِّم ، فقال تعالى : ﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تَخُطُّه بيمينك ـ إذاً لارتاب المبطلون ﴾ .

ولما اتَّهمه أعداؤه بأنه ﷺ كان يستمع إلى بعض الموالي من العجم ، فجاء بما جاء ، ردَّ عليهم سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ ولقد نعلم أنهم يقولون : إنما يعلمه بشر ﴾ ، أي : وهو غلام مملوك لبعض بطون قريش ، وكان أعجمياً ، فقال تعالى : ﴿ لسانُ الذي يُلحدون إليه : أعجمي ، وهذا لسان عربي مبين ﴾ ! .

والمعنى أن هذا المملوك الذي زعموا أن الرسول ﷺ أخذ عنه : هو أعجمي اللسان ، عديمُ البيان ، وقد جاءهم رسول الله ﷺ بهذا القرآن العربي المبين ، فكيف يُتصور في العقل أن يكون هذا القرآن العربي المبين من هذا الرجل الأعجمي الذي لا يَبين ؟! .

فلم يأت رسول الله ﷺ بهذا القرآن من تلقاء نفسه ، ولا من مخلوق آخر لعجزهم عن الاتيان بمثله ، وإنما هو من عند رب العالمين .

قال الله تعالى : ﴿ الرحمن . علَّم القرآنَ . خلق الإنسان ، علمَّه البيان ﴾ .

أوَّل إنسان علَّمه الرحمنُ القرآنَ : هو سيدُ ولدِ آدم محمد ﷺ وعنه تلقَّتِ الناسُ القرآن وتعلموه منه .

كما وأنه ﷺ هو أول من علمه الله البيانَ عن معاني القرآن .

فهو سبحانه علَّم رسوله ﷺ القرآن : تلاوةَ نصِّه ومعانيَه ، وحِكَمه ومعارفه وأسراره ، وإشاراته وخصائصه .

قال تعالى : ﴿ سنُقرئك فلا تنسى ﴾ وقال : ﴿ لا تحرِّك به لسانك لتعجلَ به إنَّ علينا جمعه وقرآنه ، فإذا قرأناه فاتَّبعْ قرآنه ، ثم إن علينا بيانَه ﴾ .

والمعنى : إن علينا يا محمد ﷺ أن نجمع لك هذا القرآن في صدرك ، وعلينا إثباتَ قراءته في لسانك ، فلا تعجل بالقرآن قبل أن يَتمَّ وحيه لتأخذه على عجل مخافة أن يتفلَّتَ منك .

فهو سبحانه الذي جمع له القرآن في صدره ، وأقرأه إياه بلسانه ، ثم تكفلَّ له ببيانه ، فقال : ﴿ إن علينا بيانه ﴾ أي : بيان معانيه وأحكامه ، وأوامره ونواهيه .

ومن ذلك : تعليمُ الله تعالى للنبي ﷺ خصائصَ الكلمات القرآنية ، كما يدل عليه الحديث الذي رواه أبو داود والترمذي من حديث الثوري ، عن أبي إسحاق ، عن المهلَّب بن أبي صُفرة ، قال : حدثني من سمع رسول الله ﷺ يقول : « إنْ بُيِّتُم الليلة ـ وفي رواية : إن بَيَّتكم العدوُّ ـ فقولوا : حم لا ينصرون »[1] .

ومن ذلك : علمه ﷺ بخصائص الآيات القرآنية ، كما ورد في آخر سورة البقرة ، ففي الترمذي عن النعمان بن بشير عن النبي ﷺ قال : « إن الله كتب كتاباً قبل أن يخلق السموات والأرضَ بألفَيْ عام ، أنزل منه

(١) وذلك أنهم كانوا في بعض الغزوات ، فقال لهم ذلك ﷺ . قال الحافظ ابن كثير : وهذا إسناد صحيح ، واختار أبو عبيد أن يروى : فقولوا حم لا ينصرون ، أي : إن قلتم ذلك لا ينصروا . اهـ وذلك دليل أن في « حم » حماية .

آيتين ختم بهما سورة البقرة ، ولا يُقرأ بهنَّ في دارٍ ثلاثَ ليالٍ فيقربَها شيطان »[1] .

ومن ذلك : ما ورد في خصائص العشر الآيات من أول سورة الكهف وآخرها ، وأنها عصمة من الدّجال ، ففي (مسند) أحمد عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عُصم من الدَّجال »[2] .

وروى الإمام أحمد عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال : « من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف عُصم من فتنة الدجال »[3] .

وفي (المختارة) للحافظ الضياء المقدسي عن علي بن الحسين ، عن أبيه عن علي مرفوعاً : « من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة فهو معصوم إلى ثمانية أيام من كُل فتنة ، وإنْ خرج الدجال عُصم منه »[4] .

وكما ورد في آيات أول سورة يس ، فقد روى ابن إسحاق وغيره (أن النبي ﷺ حين رَقَبه المشركون ليلة الهجرة ، خرج عليهم وفي يده

---

(١) قال الترمذي : حديث غريب ، ورواه الحاكم في (المستدرك) وقال : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه .

(٢) قال الحافظ ابن كثير : ورواه مسلم وأبو داود والنسائي والترمذي من حديث قتادة به ، ولفظ الترمذي « من حفظ ثلاث آيات من أول الكهف » وقال : حسن صحيح . اهـ .

(٣) قال ابن كثير : ورواه مسلم أيضاً والنسائي من حديث قتادة به ، وفي لفظ النسائي : « من قرأ عشر آيات من الكهف . . » فذكر الحديث . اهـ .

(٤) انظر تفسير ابن كثير ، وأصل هذا الحديث في (المسند) وغيره .

حفنة من تراب فجعل يذرُّها على رؤوسهم ويقرأ : ﴿ يس . والقرآن الحكيم ﴾ حتى انتهى إلى قوله تعالى : ﴿ وجعلنا من بين أيديهم سدًّا ، ومن خلفهم سدًّا ، فأغشيْناهم فهم لا يبصرون ﴾ ، وانطلق رسول الله ﷺ وباتوا رُصَداء على بابه) ثم جعل كل رجل منهم ينفض التراب عن رأسه ، وحال الله تعالى بينهم وبين رسوله ﷺ ولم يروه حين خرج من بينهم .

وهذا باب واسع جداً وليس موضع تفصيله هنا .

ومن ذلك : علمه ﷺ بخصائص السور ، كما يدل على ذلك ما ورد في سورة يس ، وأنها قلب القرآن ، وأن لها الخصائص الكثيرة ، وسورة الدخان ، وأن من قرأها في ليلةٍ أصبح مغفوراً له ، وسورة تبارك ، ووقايتها من عذاب القبر ، وسورة البقرة وبركاتها ، وسُوَر المعوِّذات وحصاناتها لقارئها ، وغير ذلك مما ثبت في الأحاديث النبوية[1] فإن ذلك يدلنا على أن له ﷺ علماً كبيراً واسعاً بخصائص الحروف القرآنية والآيات والسُّور .

فسبحان الفتاح العليم الذي فتح له وعلمه ﷺ .

ومن ذلك : علمه ﷺ بإشارات القرآن الكريم الخفيّة ، فوق العبارات الجلية ، يدل على ذلك ما رواه الإمام أحمد في (المسند) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما نزلتْ ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ علم النبي ﷺ أنْ قد نعيتْ إليه نفسه .

---

(١) وقد ذكرنا جانباً من ذلك في كتاب (تلاوة القرآن المجيد) فارجع إليه .

وفي رواية أيضاً عن ابن عباس قال : لما نزلت ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ قال رسول الله ﷺ : « نُعيَتْ إليَّ نفسي » فإنه مقبوض في تلك السنة .

وروى الإمام أحمد ـ وأصله في مسلم ـ عن عائشة رضي الله عنها قالت : (كان رسول الله ﷺ يُكثر في آخر أمره من قول : « سبحان الله وبحمده أستغفرالله وأتوب إليه » ، وقال : « إن ربي كان أخبرني أني سأرى علامة في أمتي ، وأمرني إذا رأيتُها أن أسبِّح بحمده وأستغفره إنه كان تواباً ، فقد رأيتُها ـ ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ » إلى تمام السورة) .

وإن علم رسول الله ﷺ بمعاني القرآن الكريم وخصائصه ، وحقائقه وإشاراته ودلالاته ، وأسراره ومضامينه ، إن علمه بذلك لا يعلم قدره ولا يحيط بكمية ما هنالك إلا الله تعالى الذي أفاض عليه ذلك ﷺ .

قال تعالى : ﴿ ما فرَّطنا في الكتاب من شيء ﴾

وقال سبحانه : ﴿ ونزَّلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدىً ورحمةً وبشرى للمسلمين ﴾ .

وفي الحديث عن ابن مسعود رضي الله عنه أنَّ النبي ﷺ قال : « أُنْزل القرآن على سبعة أحرف ، لكلّ حرفٍ منها ـ وفي رواية : لكل آية : ـ ظهر وبطن ، ولكل حرف حد ، ولكلِّ حدٍ مُطَّلَع »[1] .

(١) رواه الطبراني عن ابن مسعود ، ورواه البغوي في (شرح السنة) عن الحسن وابن مسعود مرفوعاً كما في (فيض القدير) على (الجامع الصغير) ، وعزاه =

وفي سنن الترمذي وغيره من حديث سيدنا علي رضي الله عنه عن النبي ﷺ في القرآن الكريم : « . . وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس فيه الألسنة ، ولا تشبع منه العلماء ، ولا يَخلُق على كثرة الردِّ ، ولا تنقضي عجائبه . . » الحديث .

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس : « إن القرآن ذو شجون وفنون ، وظهور وبطون ، لا تنقضي عجائبه ، ولا تُبْلَغ غايته » .

وقال ابن مسعود : « من أراد علم الأولين والآخرين فلْيتلُ القرآن »[1] .

فالقرآن الكريم بحر العلوم والمعارف ، جمعه الله تعالى لرسوله ﷺ بعلومه وحقائقه ، وقد قال ابن عم رسول الله ﷺ وصهره الكريم أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه : « لو تكلَّمت لكم على سورة الفاتحة لأوقرتُ سبعين جملاً » ـ فما ظنك بعلوم سيدنا رسول الله ﷺ ومفاهيمه القرآنية ؟! نعم إن جميع ما عرفه العارفون وتكلم به الوارثون

العلامة الزركشي في (البرهان) إلى (صحيح) ابن حبان . ومعنى قوله « ولكل حرف حد » أن لكل حرف منتهى فيما أراده الله تعالى من معناه ، ومعنى قوله « ولكل حد مطلع » أن لكل غامض من المعاني والأحكام مطلعاً يتوصل به إلى معرفته ويوقف على المراد به ، وظهره : ما ظهر تأويله ، وبطنه : ما خفي تفسيره . اهـ من شروح المناوي على (الجامع الصغير) .

(١) وروى سعيد بن منصور عن ابن مسعود أنه قال : (من أراد العلم فعليه بالقرآن ، فإن فيه خبر الأولين والآخرين) كما في (الإتقان) .

المحمديون ، إنما هو رشاشات من بحره ﷺ وقَبسات من أنواره ، وإشراقات من أسراره ﷺ .

وقد بحث العلماء والعرفاء في العلوم المستنبطة من القرآن الكريم ، فلم ينتهوا إلى استقصاء أصولها ، وإنما تكلم كل منهم على حسب علمه ، وقدر فهمه الذي أُعطيه ، ولكن بحر معاني القرآن وأسراره لا يتناهى .

وفي (الإتقان) وغيره عن القاضي أبي بكر بن العربي رحمه الله تعالى أنه قال في (قانون التأويل) : علوم القرآن : خمسون علماً ، وأربعمائة علمٍ ، وسبعة آلاف علمٍ وسبعون ألف علمٍ ، على عدد كَلم القرآن ، مضروبة في أربعةٍ ، إذ لكل كلمة ظهر وبطن ، وحدّ ومُطَّلَع ، وهذا مطلق ، دون اعتبار تركيبٍ وما بينها من روابط ، ففي هذا مالا يحصى ولا يعلمه إلا الله تعالى . اهـ .

وقال العلامة الراغب : إن الله تعالى كما جعل نبوة النبيين بنبيِّنا محمد ﷺ مختتمة ، وشرائعهم بشريعته من وجه منتَسِخَة ، ومن وجه مُكَمَّلة متَمَّمة ـ جعل كتابه المنزل عليه متضمّناً لثمرة كتُبه التي أوْلاها أولئك ، كما نبَّه عليه بقوله : ﴿ رسول من الله يتلو صُحُفاً مطهرة . فيها كتب قيِّمة ﴾ .

وجعل من معجزة هذا الكتاب أنه مع قلة الحجم ، متضمِّن للمعنى الجمِّ ، بحيث تقصُر الألباب البشرية عن إحصائه ، وتعجز الآلات الدنيوية عن استيفائه ، كما نبَّه عليه سبحانه بقوله : ﴿ ولو أنَّ ما في

الأرض من شجرةٍ أقلام ، والبحرُ يمدُّه من بعده سبعةُ أبحرٍ ما نفِدت كلماتُ الله ﴾ اهـ .

وقال العلامة الزركشي في (البرهان) : في القرآن الكريم علم الأولين والآخرين وما من شي إلا ويمكن استخراجه منه لمن فهَّمه الله تعالى ، حتى إن بعضهم استنبطَ عمُرَ النبي ﷺ ثلاثاً وستين سنة من قوله تعالى في سورة المنافقين : ﴿ ولن يُؤخِّرَ الله نفساً إذا جاءَ أجلُها ﴾ فإنها رأس ثلاث وستين سورة اهـ .

والبحث في علوم القرآن ومفاهيمه وإشارته ليس موضعه هنا ، وإنما ذكرنا منها نماذج موجزةً ، يُستَدلُّ بها على سعة علوم سيدنا رسول الله ﷺ ومعارفه القرآنية ، التي لا يحيط بأنواعها إلا الله تعالى الذي أفاضها عليه ﷺ .

الدليل الثاني : ومن الأدلة على سعة علمه وكثرة علومه ﷺ : الحكمةُ التي أنزلها الله تعالى عليه ؛ قال الله تعالى : ﴿ وأنزل اللهُ عليك الكتابَ والحكمةَ . . ﴾ الآية ، وقال تعالى : ﴿ واذْكُرْن ما يُتلى في بيوتكُنَّ من آياتِ الله والحكمةِ ، إن الله كان لطيفاً خبيراً ﴾ .

والحكمة هي السنة الظاهرة في أفعاله ﷺ وأقواله ، وأحواله وإقراره ، كما نص على ذلك الإمام الشافعي رضي الله عنه في مواضع من كتبه ، وهو قول جمهور التابعين كالحسن البصري وقتادة ومقاتل بن حيان وغيرهم ـ كما نقل الحافظ ابن كثير ذلك عنهم ، عند قوله تعالى ﴿ وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة ﴾ .

وإنما سُميت السنة النبوية بالحكمة : لأن الحكمة تشتمل على سَداد القول ، وصواب العمل ، وإيقاع ذلك في مواقعه ، ووضعه في مواضعه اللائقة به ، ولا شك أن أقواله ﷺ وأفعاله ، وأحواله وإقراره ، جميع ذلك هو عين الحكمة .

كما أنه سبحانه سمى السنة النبوية بـ﴿الميزان﴾ حيث قال سبحانه : ﴿ الله الذي أنزل الكتابَ بالحق والميزانَ ، وما يُدريك لعل الساعة قريب ﴾ فالميزان هنا المقرونُ بالكتاب : هو الحكمة المحمدية والسنة النبوية ، المقرونة بالكتاب في قوله تعالى : ﴿ وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة . . ﴾ الآية ، لأن القرآن يُفسِّر بعضه بعضاً .

وإنما سُميت السنةُ النبوية المشتملةُ على أقواله وأفعاله ﷺ وأحواله (ميزاناً) لأنها ميزان الأقوال والأفعال والأحوال ، بحيث يجب على الأمة أن تعرِض أقوالها وأفعالها وأحوالها على سنته ﷺ ، فما وافق الميزان فهو صحيح ورجيح ، ومقبول ونجيح ، وما خالف الميزان ـ أي : السنة ـ فهو قبيح ومردود على صاحبه ، كما روى مسلم عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال : « كل عملٍ ليس عليه أمرنا فهو رَد » .

وفي قوله تعالى : ﴿ وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة ﴾ دليل استدلَّ به كثير من العلماء المحققين ، على أن السنة نزلت بالوحي من عند الله تعالى ، كما دلَّ على ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ وما يَنطق عن الهوى . إنْ هو إلا وحيٌ يُوحى ﴾ ـ فإنَّ النطق أعمُّ من التلاوة ، فلم يقل سبحانه : وما يتلو ، أو : ما يقرأ عن الهوى ، حتى يقال إن ذلك خاصٌ بالقرآن الكريم ، بل قال سبحانه : ﴿ وما ينطق عن الهوى ﴾

أي : وما ينطق محمد رسول الله ﷺ بالقرآن والحديث عن الهوى ﴿ إنْ هو ﴾ أي : ما نُطقه بذلك ﴿ إلَّا وحيٌ يُوحى ﴾ يوحيه الله تعالى إليه بنوع من أنواع الوحي .

وروى أبو داود والترمذي عن المقداد رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا إني أُوتيتُ الكتاب ومثله معه » ، والمراد بـ « مثله معه » : السنة ، كما ذكره جمهور كثير من العلماء ، فإن الله تعالى آتى رسوله ﷺ السنة النبوية كما آتاه الكتاب وهو القرآن العظيم .

وروى البيهقي في (المدخَل) بإسناده عن حسَّان بن عطية أنه قال : كان جبريل عليه السلام ينزل على رسول الله ﷺ بالسنة ، كما ينزل عليه بالقرآن ، يعلمه إيَّاها كما يعلمه القرآن[1] .

واستدلوا على ذلك أيضاً بما ورد في (الصحيحين) وغيرهما ـ واللفظ للبخاري ـ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أكثرَ ما أخافُ عليكم ما يُخرِجُ الله لكم من بركات الأرض ـ وفي رواية : إن مما أخافُ عليكم ما يُفتحُ عليكم من زهرة الدنيا وزينتها » .

فقال رجل : هل يأتي الخير بالشر ؟

قال أبو سعيد : فصَمَتَ النبي ﷺ حتى ظننتُ ـ أي : عرفتُ ـ أنه ﷺ

(١) انظر (شرح الطريقة المحمدية) للعارف الكبير الشيخ النابلسي رضي الله عنه .

يُنزَل عليه ـ وفي رواية : فظننا أنه ينزل عليه ـ أي : ينزل عليه الوحي ـ ثم جعل يمسح رسول الله ﷺ عن جبينه [1] .

فقال : « أين السائل ؟ » فقال : أنا .

فقال ﷺ : « لا يأتي الخير إلا بالخير [2] ـ وفي رواية : إنه لا يأتي الخير بالشرّ ـ إن هذا المالَ خَضِرةٌ حُلوة ، وإن كلَّ ما أنبتَ الربيع [3] يقتُل حَبَطاً أو يُلِمُّ ، إلا آكلةَ الخضرة ، أكلتْ حتى إذا امتدَّتْ خاصرتاها استقبلت الشمسَ فاجترَّتْ وثَلَطتْ وبالتْ ، ثم عادتْ فأكلت ، وإن هذا المال حلوة ، من أخذه بحقِّه ووضعه في حقه ، فنِعْم المعونة هو ، ومن أخذه بغير حقِّه كان كالذي يأكل ولا يشبع » .

فاستدل كثير من العلماء بهذا الحديث على أن الحديث النبوي هو نازل بالوحي من عند الله تعالى .

---

(١) أي : يمسح العرق ، كما جاء في رواية الدارقطني ، وجرى ذلك على عادته ﷺ عندما يوحى إليه ، حيث يتفصد جبينه الشريف عرقاً ، ولذلك أيقنت الصحابة أنه الوحي .

(٢) وفي رواية الدارقطني : كررها ثلاث مرات .

(٣) وفي رواية : « وإن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطاً أو يلم » أما الحبط : (فهو انتفاخ البطن من كثرة الأكل) وأما قوله : (أو يلم) ـ بضم أوله ـ فمعناه يقرب من الهلاك ـ وهذا مثال ضربه رسول الله ﷺ لمن تهافت على الدنيا ومالها ، وعمي بها عن دينه وآخرته ، وجمع ومنع ، ولم يعرف حق الله تعالى في هذا المال ، حتى بطر وفجر ، ومثال لمن أخذ هذا المال من الدنيا بحقه ووضعه في حقه وأدى حقوقه الواجبة عليه ، ولم يشغله ذلك عن دينه ، ولم يتعام بذلك عن آخرته ، فنعم الرجل ! .

كما استدلوا على ذلك أيضاً بما رواه البخاري وغيره أن يَعْلى بن أُمية قال لعمر رضي الله عنه : أرِني النبي ﷺ حين يُوحَى إليه ، قال : فبينما النبي ﷺ بالجِعْرانة ، ومعه نفر من أصحابه ، جاءه رجل فقال : يا رسول الله كيف ترى في رجل أحرم بعمرة وهو متضمِّخ بطيب ؟ .

فسكت النبي ﷺ ساعةً فجاءه الوحي ، فأشار عمر إلى يعلى رضي الله عنهما ، فجاء يعلى وعلى رسول الله ﷺ ثوب قد أُظِلَّ به ، فأدخل ـ يعلى ـ رأسَه فإذا رسول الله ﷺ مُحْمرُّ الوجه ، وهو يغِطُّ ، ثم سُرّي عنه ، فقال : « أين الذي سأل عن العمرة ؟ » فأُتي بالرجل ، فقال : « اغسِل الطيبَ الذي بك ثلاث مرات وانزِعْ عنك الجبَّة ، واصنَعْ في عمرتك ما تصنعُ في حجتك » .

الدليل الثالث : ومن الأدلة على كثرة علومه ﷺ : إظهارهُ ﷺ على المغيّبات .

فمن علومه ﷺ إظهار الله تعالى له على كثير من المغيَّبات ، قال الله تعالى : ﴿ عالمُ الغيب فلا يُظهرُ على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول فإنه يَسلُك من بين يديه ومن خلْفه رَصَداً ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وإذْ أسرَّ النبي إلى بعض أزواجه حديثاً فلما نبَّأتْ به وأظهره الله عليه : عرَّفَ بعضَه وأعرض عن بعض . فلما نبَّأها به قالت : من أنبأك هذا ؟ قال : نبأنيَ العليمُ الخبير ﴾ .

واطِّلاعه ﷺ على المغيَّبات هو على وجوه متعددة نذكر أطرافاً منها :

الوجه الأول : إطلاعه ﷺ على بدء الخلق ، حتى دخل أهلُ الجنةِ

الجنةَ ، وأهلُ النارِ النارَ ، كما دلَّ عليه ما رواه البخاري عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : (قام فينا رسول الله ﷺ مقاماً ، فأخبرَنا عن بدء الخلق حتى دخل أهل الجنةِ الجنةَ ، وأهل النارِ النارَ ، حفِظه مَن حفظه ، ونسيه مَن نسيه) .

وفي (الصحيحين) عن حذيفة رضي الله عنه قال : (قام رسول الله ﷺ فينا مقاماً ، ما ترك فيه شيئاً إلى قيام الساعة إلَّا ذكره ، علمه مَن علمه وجَهِله من جهله) .

قال حذيفة : وقد كنتُ أرى الشيء قد كنتُ نسيتُه فأعرِفه كما يعرف الرجل الرجلَ إذا غاب فرآه فعرفه .

كما أخبر ﷺ عما هو كائن بعده إلى يوم القيامة ، ففي (صحيح) مسلم عن عمرو بن أخْطَب الأنصاري رضي الله عنه قال : (صلَّى بنا رسول الله ﷺ يوماً الفجر وصعِد المنبر ، فخطبنا حتى حضرت الظهرُ ، فنزل فصلى ، ثم صعد المنبر ، فخطبنا حتى حضرت العصر ، فنزل فصلَّى ، ثم صعد المنبر ، فخطبنا حتى غربت الشمس ، فأخبرنا بما هو كائن إلى يوم القيامة ، فأعلمُنا أحفظُنا) .

فما ترك أمراً يكون إلى يوم القيامة إلا أخبر عنه ﷺ .

وروى أبو داود عن حذيفة رضي الله عنه قال : (والله ما أدري أنسيَ أصحابي أم تناسَوْا ؟ والله ما ترك رسول الله ﷺ من قائد فتنةٍ إلى أن تنقضي الدنيا يبلُغ مَن معه ثلثمائةٍ فصاعداً إلَّا سمَّاه لنا : باسمه واسم أبيه واسم قبيلته) .

كما أنه ﷺ أخبر عن جميع أشراط الساعة الصغرى والوسطى والكبرى ، وأخبر عن أحوال الآخرة وبرازخها ، وأحوال أهل الجنة ، وأحوال أهل النار ، وتفاصيل أمورهم كلها ، كما هو مبيَّن في كتب السنة ، وفي هذا دليل على سعة العلوم التي أفاضها الله تعالى عليه ﷺ .

الوجه الثاني : إطلاعه ﷺ على العوالم ، كما صحَّ في أحاديث المعراج من أنه ﷺ عُرج به إلى السموات السبع ودخلها ، واحدةً واحدةً ، ورأى فيها ما رأى ، واجتمع مع الرسل عليهم الصلاة والسلام ، ثم عُرج به إلى سِدرة المنتهى ، ورأى أياتِها وعجائبَها ، والتجليات المتواردة عليها ، ثم إلى مستوىً سمع فيه صَرِيفَ الأقلام ، إلى ما هنالك من العوالم العلويَّة .

كما أنه ﷺ أطلعه الله تعالى على عالم العرش ، بدليل أنه ﷺ بيَّن سعةَ العرش ، وأنه أوسعُ العوالم ، فعن أبي ذر رضي الله عنه أنه سأل النبي ﷺ عن الكرسي ؟ فقال رسول الله ﷺ : « والذي نفسي بيده ما السموات السبعُ والأرضون السبع عند الكرسي إلَّا كحلْقةٍ مُلْقاةٍ في أرض فلاةٍ ، وإن فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلْقة »[1] .

كما أنه ﷺ تكلَّم عن العرش وأن له قناديل ، وهي العوالم العرشية ، وأن له الظلالَ ، وأن له القوائم ، وأن له الكنوز كما في

(١) رواه ابن مردويه ، وكذلك روى نحوه ابن جرير وغيره ، كما في (تفسير) الحافظ ابن كثير .

(الصحيحين) : « . . فإذا موسى آخِذٌ بقائمة من قوائم العرش » .

وتحدَّث ﷺ عن حَمَلة العرش ، وعن قوة حملة العرش وعِظَمهنَّ ، كما ورد في (المسند) أن النبي ﷺ قال : « أنا محمدٌ النبي الأميُّ ، ولا نبيَّ بعدي ـ قالها ثلاثاً ـ أوتيتُ فواتحَ الكَلِم وخواتمَه ، وعُلِّمتُ كم خزنةُ النار ، وحملةُ العرش . . » الحديث .

وروى أبو داود عن النبي ﷺ أنه قال : « أُذِنَ لي أن أُحدِّثَ عن مَلَكٍ من ملائكة الله تعالى من حملة العرش ، إن ما بين شحمة أُذنه إلى عاتقه مسيرةُ سبعمائة عام » .

وفي رواية الطبراني : « مسيرة سبعمائة عام خَفَقان الطير السريع » .

كما أنه ﷺ أطلعه الله تعالى على عالم الجنة والنار ، ومُثِّلتا له ، في عدة مناسبات ، ففي حديث المعراج : « ثم أُدخلتُ الجنة ، فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ ، وإذا ترابُها المِسك الأذفَر » .

كما أنه ﷺ أطلعه الله تعالى على عالم البرزخ وأحوالهم وشؤوناتهم ، وعالم الحشر ، وأحوال الناس فيه ، وعالم العَرْض ، وعالم الحوض ، وأخذ الصحف والحساب والميزان والصراط ، وأحوال أهل الجنة ، وأهل النار ، وحدَّث عن جميع تلك العوالم وفصَّل أمورهم ﷺ .

كما أنه ﷺ أطلعه الله تعالى على العوالم العلوية ، وما يجري بين الملأ الأعلى من الاختصام حول الكفَّارات والدرجات ، وتجلَّتْ له الأشياء كلها وعرفها ، كما في الحديث الذي رواه الترمذي وأحمد وغيرهما عنه ﷺ أنه قال : « إني قمت من الليل فصليتُ ما قُدِّر لي ، فنعَستُ في صلاتي

حتى استثقلتُ ، فإذا أنا بربي عز وجلَّ فقال لي : يا محمد فيمَ يختصم الملأ الأعلى ؟ قلتُ : لا أدري » وفيه أن الله تعالى أفاض على النبي ﷺ العلوم حتى قال : « فتجلَّى لي كل شيء وعرفت ـ وفي رواية : فعلمتُ ما في السموات وما في الأرض ـ وفي رواية الطبراني : فعلَّمني كلَّ شيء ـ وفي رواية له : فما سألني عن شيء إلَّا علمتُه ـ ثم قال لي : يا محمد فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت : في الكفارات والدرجات . . » الحديث[1] .

الوجه الثالث : عرضُ الأمم عليه ﷺ ـ وذلك أنه ﷺ عُرضت عليه الأمم كلُّها : الأمم قبله وأمته بعده ، ومثِّلتْ له أمته ﷺ في عدة مناسبات ، وفي (الصحيحين) عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : « عُرِضتْ عليَّ الأمم ، فرأيتُ النبيَّ ومعه الرُّهَيْط[2] ، والنبي ومعه الرجل والرجلان ، والنبيَّ وليس معه أحد ، إذْ رُفع لي سواد عظيم ، فظننتُ أنهم أمتي ، فقيل لي : هذا موسى ﷺ وقومه ، ولكن انظر إلى الأفق فنظرت ، فإذا سواد عظيم ، فقيل لي : انظر إلى الأفق الآخر ، فإذا سَواد عظيم ، فقيل لي : هذه أمتك ، ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب : هم الذين لا يَرْقون ولا يسترقون ، ولا يتطيَّرون ـ وفي رواية : ولا يكتوون ـ وعلى ربهم يتوكلون »[3] .

---

(١) انظر تمام الحديث في كتابنا : « الصلاة في الإسلام » .

(٢) تصغير رهط ، وهي الجماعة دون العشرة .

(٣) وهذه رواية مسلم باختصار .

وروى الطبراني والضياء عن حذيفة بن أسيد أن النبي ﷺ قال : « عُرِضَت عليَّ أمتي البارحةَ لدى هذه الحُجْرة ، حتى لأنا أعْرَفُ بالرجل منهم من أحدكم بصاحبه ، صُوِّروا لي في الطين » .

الوجه الرابع : رفع الدنيا له وإراءته إياها : كما وأنه ﷺ رفع الله له الدنيا فنظر إليها .

روى الطبراني عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله قد رفع لي الدنيا ، فأنا أنظر إليها ، وإلى ما هو كائن فيها إلى يومن القيامة ، كأنما أنظر إلى كفي هذه »[1] .

ويشهد لهذا الحديث : ما رواه مسلم أن النبي ﷺ قال : « إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها . . » الحديث كما تقدم .

بل أراه الله تعالى جميع الأشياء ، كما روى مسلم وغيره عن أسماء رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال : « ما من شيء لم أكن أُريتُه إلاَّ رأيته في مقامي هذا ، حتى الجنة والنار . . » الحديث .

فعمَّت رؤيته ﷺ لجميع ما هنالك واطلع عليه .

الوجه الخامس من إظهاره على المغيبات : رؤيته ﷺ آثار الأمور الغيبية قبل وقوعها .

جاء في (الصحيحين) عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال : (أشرف النبي ﷺ على أطَم من آطام[2] المدينة فقال : « هل تَرَوْن

(١) انظر (شرح المواهب) .
(٢) الأطم : هو البناء المرتفع .

ما أرى ؟ » قالوا : لا .

قال : « فإني لأرى مواقع الفتن خلال بيوتكم كمواقع القطر » .

وفي (صحيح) مسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في حديثه عن غزوة بدر قال : إن رسول الله ﷺ كان يُرينا مصارعَ أهل بدر بالأمس يقول : « هذا مصرع فلان غداً إن شاء الله تعالى ، وهذا مصرع فلان إن شاء الله » .

قال عمر : فوالذي بعثه بالحق ما أخطأ الحدود التي حدَّها رسول الله ﷺ . . الحديث .

وفي رواية لمسلم عن أنس فقال رسول الله ﷺ : « هذا مصرع فلان » ويضع يده على الأرض ها هنا وها هنا ، قال : (فما ماط أحدهم عن موضع يد رسول الله ﷺ) أي : ما جاوز الموضع الذي عيَّنه رسول الله ﷺ وأشار إليه .

الوجه السادس : انجلاء الأمور الغيبيَّة الخفية له ﷺ قبل ظهورها وإخباره عنها :

ومن ذلك ما روى الإمام أحمد وغيره أن النبي ﷺ بينما هو يخطب إذ عرض له في خطبته وقال : « يدخل عليكم من هذا الباب ـ أو من هذا الفجِّ ـ رجل من خير ذي يَمَن ، ألا إن على وجهه مَسْحة مَلَك » .

وفي رواية للطبراني : « يطلُع عليكم خيرُ ذي يمن ، عليه مسحة ملك » فطلع جرير بن عبد الله رضي الله عنه .

وروى الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه قال : كنا جلوساً مع

رسول الله ﷺ فقال : « يطلُع الآن عليكم رجل من أهل الجنة » فطلع رجل من الانصار تنطفُ لحيته من وضوئه ـ وفي رواية البيهقي : فجاء سعد بن مالك فدخل منه . . الحديث .

وعن مزيدة بن مالك قال : بينما رسول الله ﷺ يحدث أصحابه إذ قال : « يطلُع عليكم من هذا الفجِّ رَكْبٌ من خير أهل المشرق » .

فقام عمر فتوجَّه في ذلك الوجه فرأى ثلاثة عشر راكباً ، فرحَّب وقرَّب ، وقال : مَن القوم ؟ قالوا : قوم من عبد القيس . . الحديث[1] .

الوجه السابع : انكشاف الضمائر النفسية له ﷺ وإخباره بذلك :

روى الحاكم والبيهقي عن ابن عباس ، وروى ابن سعد عن أبي إسحاق السَّبيعي قالا : رأى أبو سفيان رسول الله ﷺ يمشي ، والناس يطأون عقبه ـ أي : يمشون وراءه ـ فقال أبو سفيان في نفسه : لو عاودتُ هذا الرجلَ القتال ، وجمعتُ له جمعاً ـ فجاء عليه الصلاة والسلام حتى ضرب في صدر أبي سفيان وقال له : « إذن نُخْزيَك » .

فقال أبو سفيان : أتوب إلى الله وأستغفر الله ، ما أيقنتُ أنك نبيٌّ إلا الساعةَ ، إني كنتُ لأحدِّث نفسي بذلك[2] .

---

(١) قال في (مجمع الزوائد) : رواه الطبراني وأبو يعلى ، ورجالهما ثقات ؛ وفي بعضهم خلاف ، وقال الزرقاني : سنده جيد ، وهذا الوفد وفد عبد القيس الوارد ذكرهم في (الصحيحين) .

(٢) انظر (شرح المواهب) ، وذلك يوم فتح مكة .

ومن ذلك : ما رواه الإمام أحمد في (مسنده) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قلتُ لرجل : هلمَّ فلنْجعلْ يومَنا هذا لله عزَّ وجلَّ ـ أي : نشتغل فيه بالعبادة ـ قال أبو موسى : فوالله لكأنَّ رسول الله ﷺ شاهد هذا اليوم ، فخطب فقال : « ومنهم من يقول : هلمَّ فلنجعل يومنا هذا لله عزَّ وجلَّ » فما زال يقولها حتى تمنَّيت أن الأرض ساخَت بي ـ أي : غاصت بي .

وقد روى الطبراني بإسناد رجاله رجال الصحيح ، وأورد أهل السِّيَر ، قصة عُمير بن وهب الجُمَحي ، لما تكفَّل له صفوان بن أمية بوفاء ديونه ، ونفقة عياله ، على أن يقتل رسولَ الله ﷺ ! وأسرّا ذلك بينهما ، ثم ذهب عمير متوشِّحاً سيفَه المسموم إلى المدينة ، فاستأذن على رسول الله ﷺ ، فأذِن له ، فقال له ﷺ : « ما جاء بك ؟ » .

فقال : جئتُ لهذا الأسير الذي في أيديكم .

فقال له ﷺ : « فما بالُ السيف في عنقك » ؟

فقال عمير : قبَّحها الله من سيوف ، فهل أغنَتْ عنا شيئاً ؟!

فقال : « اصدُقني ما الذي جئتَ له ؟ » قال : ما جئتُ إلا لهذا .

فقال له ﷺ : « بلى ، قعدتَ أنت وصفوان بن أمية في الحِجْر ، فتذاكرتما أصحاب القَليب من قريش ، فقلتَ : لولا دَينٌ عليّ وعيالي ، لخرجتُ حتى أقتل محمداً ! فتحمَّل صفوان لك بدَينك وعيالك على أن تقتلني ، والله حائلٌ بيني وبين ذلك » .

فقال عمير : أشهد أنك رسول الله ، قد كنَّا يا رسول الله نكذِّبك

بما كنتَ تأتينا به من خبر السماء ، وما ينزل عليك من الوحي ، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان ، فوالله إني لأعلم ما أنبأك به إلا الله ؛ فالحمد لله الذي هداني للإسلام .

وروى ابن سعد وغيره عن عبد الله بن أبي بكر بن حزم قال : خرج النبي ﷺ ، وأبو سفيان جالسٌ في المسجد ، فقال أبو سفيان في نفسه : ما أدري بمَ يَغلِبنا محمد ؟ فأتاه النبي ﷺ فضرب في صدره وقال : « بالله نغلِبك » فقال أبو سفيان : أشهد أنك رسول الله[1] .

وروى ابن هشام وغيره أن فَضالة بن عُمير بن الملوَّح همَّ أن يقتل رسول الله ﷺ ، وهو يطوف بالبيت ، عام الفتح ، فلما دنا من النبي ﷺ قال له ﷺ : « أفضالة ـ وفي رواية : يا فضالة » .

فقال : نعم يا رسول الله .

قال ﷺ : « ماذا كنت تحدِّث به نفسك ؟ » .

فقال : لا شيء ـ كنتُ أذكر الله .

فضحك رسول الله ﷺ ثم قال له : « استغفرِ الله » أي : مما حدَّثت به نفسك ، وقولك : لا شيء ـ ثم وضع رسول الله ﷺ يده على صدر فضالة ، فسكن قلبه ـ أي : ثبت فيه الإسلام ومحبة خير الأنام ـ فكان فضالة يقول : والله ما رفع يده عن صدري حتى ما خلق الله شيئاً أحبَّ إليَّ منه ﷺ .

(١) كذا في (شرح الزرقاني على المواهب) .

قال فضالة : فرجعتُ إلى أهلي فمررتُ بامرأةٍ كنتُ أتحدّث إليها ، فقالت : هلمَّ إلى الحديث ! فقال فضالة :

قالت : هلمَّ إلى الحديث ، فقلتُ : لا

يأبى عليَّ الله والإسلامُ !
لو ما رأيتِ محمداً وقَبيلَه
بالفتح يوم تُكسَّر الأصنامُ
لرأيت دينَ الله أضحى بيِّناً
والشركُ يَغشى وجهه الإظلامُ[1]

الوجه الثامن : اطلاعه ﷺ على الأمور القلبية وإجابته السائل قبل سؤاله ، وهذا باب واسع جداً :

فمن ذلك : ما رواه الإمام أحمد عن وابصةَ بن مَعْبَد رضي الله عنه قال : أتيتُ النبي ﷺ وأنا أريد أن لا أدعَ شيئاً من البرِّ والإثم إلا سألتُه عنه فقال لي : « أُدنُ يا وابصة » فدنوت منه حتى مسَّتْ ركبتي ركبته .

فقال ﷺ : « يا وابصة أُخبِرك ما جِئتَ تسأل عنه أو تسألني ؟ »

فقلت : يا رسول الله أخبِرني .

فقال ﷺ : « جئتَ تسألني عن البر والإثم » قلتُ : نعم .

فَجمع أصابعه الثلاث فجعل ينكُتُ بها في صدري ، وقال : « يا وابصة استَفْتِ نفسَك ، البرُّ ما اطمأنَّتْ إليه النفس ، واطمأنَّ إليه

(١) كذا في (شرح المواهب والإصابة) وغيرهما .

القلب ، والإثمُ ما حاك في القلب وتردَّد في الصدر ، وإن أفتاك الناس وأفتَوْك » .

الوجه التاسع : بشائره الغيبية ـ فعن عبد الله بن بُسْر قال : وضع رسول الله ﷺ يده على رأسي فقال : « يعيش هذا الغلامُ قَرْناً » فعاش مائة سنةٍ .

وكان في وجهه ثُؤْلول فقال : « لا يموت حتى يذهب الثؤْلول من وجهه » فلم يمت حتى ذهب الثؤلول من وجهه[1] .

ذكرى حول الآية المتقدمة : وهي قوله تعالى : ﴿ عالم الغيب ، فلا يُظهر على غيبه أحداً إلا مَن ارتضى من رسول ، فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رَصَداً ﴾ .

فإنه سبحانه بيَّن لعباده أنه هو الذي يعلم الغيب المطلق علماً ذاتياً لا نهاية له ، كما قال تعالى : ﴿ قل : لا يعلم مَن في السموات والأرض الغيبَ إلا الله . . ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ له غيبُ السموات والأرض . . ﴾ الآية .

وقال تعالى : ﴿ وعنده مفاتِحُ الغيب لا يعلمها إلا هو . . ﴾ الآية .

وقد أخبر سبحانه في هذه الآية الكريمة أنه يُظهر على غيبه من ارتضى من رسول ، فيُطلعُه على ما شاء من الغيب حسب الحكمة الإلهية .

(١) قال في (مجمع الزوائد) : رواه الطبراني والبزار ورجال أحد إسنادي البزار رجال الصحيح غير الحسن بن أيوب الحضرمي وهو ثقة . اهـ .

فقد أطْلع سبحانه سيدنا عيسى عليه السلام على بعض المغيبات ، ليكون ذلك آية على صدق نبوته وحجةً على قومه ، قال تعالى : ﴿ وأُنبِّئُكم بما تأكلون وما تدَّخرون في بيوتكم إن في ذلك لآيةً لكم إن كنتم مؤمنين ﴾ .

فهو سبحانه يُطلع رسله عليهم الصلاة والسلام على ما شاء من المغيبات ، بمقتضى حكمته ، ليكون ذلك بيِّنةً على صدق نبوتهم ، حيث لم يكن ذلك بواسطة آلات ، ولا بتدخل أسباب عادية ، أو دلالة علامات عرفية ، بل بمجرد إنباء الغيب الإلهي .

ومن هنا يُعلم أن علم التنجيم ، وعلم الفلك ، وعلم الارصادات الجوية ، ونحوها من العلوم التي تُستنتج منها بعض المعلومات الخفية ، فإنها منوطة بأصولٍ علمية ، ومبنية على قواعد وضوابط عرفية عادية ، تُعطي تلك النتائج الخفيّة ، فلا يُقال : إنها من باب العلم بالمغيبات أصلاً ، إذ أن علم الغيب شرطه أن يكون مجرَّداً عن الموادّ والوسائط الكونية ، والأسباب العادية ، والعلامات العرفية ، كما نبّه على ذلك المحققون .

إذ لا يُقال للطبيب الذي يتعرَّف من مقياس النبض على قوة القلب وضعفه ، والذي يتعرَّف بجَسِّ المريض وفحصه الطبي على مرضه الخفيّ ـ لا يُقال : إن هذا من باب العلم الغيبي .

كما أن العالم الفلكي الذي يتعرَّف بالارصادات والمقاييس الجوية ، إلى التغيُّرات الحارَّة والباردة ونحوها ـ لا يقال إن ذلك من علم الغيب ! .

ثم إن قوله تعالى : ﴿ عالمُ الغيب فلا يُظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول . . ﴾ الآية : هذا لا يُنافي قولَه تعالى : ﴿ قل : لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب . . ﴾ الآية ، لأن المنفيَّ في هذه الآية هو علمُ الغيب المطلق المحيط بكل شيء ، والمعنى : لا أقول لكم إني أعلم الغيب المطلق المحيط بكل شيء : كلياً وجزئياً ، فإن ذلك لله تعالى وحده .

ومثل ذلك ما أخبر به الله تعالى عن نوح على نبينا وعليه الصلاة والسلام : ﴿ ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ﴾ الآية .

أو المراد : إني لا أعلم الغيب إلا أن يعلمني الله تعالى ، ويُطلعني على ما شاء من الغيب .

كما وأن قوله تعالى : ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول . . ﴾ الآية ، لا ينفي عن أولياء الله تعالى اطلاعهم على بعض المغيَّبات ، وذلك : لأنه إن أريد بـ الرسول في الآية الكرية : الرسول البشري ـ كما عليه الجمهور ـ فاطّلاع الأولياء على بعض المغيبات إنما حصل لهم باتباعهم لرسولهم ، وبواسطته يكرمون ، وحينئذ يكون ذلك داخلاً في الكرامات ، وكل كرامة لوليّ فهي معجزة لنبيِّه ، قد نالها باتباعه له ، صلوات الله على نبينا وعلى الأنبياء أجمعين .

وإن أريد بـ الرسول : الرسول الملَكي ـ كما قاله بعضهم ـ فهو ينزل بالوحي النبوي على الأنبياء ، وينزل بالإلهام الصادق على قلوب الأولياء ، ويُلقي إليهم ويحدِّثهم .

وكيف يجوز إنكار اطلاع الأولياء على بعض المغيَّبات ، وقد ثبت ذلك في الأحاديث الصحيحة ؟! ومن ذلك ما ورد الصحيحين وغيرهما واللفظ للبخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ : « لقد كان فيما قبلكم مُحدَّثُون ، فإن يكن في أمتي أحد فإنه عمر » .

وروى البخاري أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ : « لقد كان فيمن قبلكم من بني إسرائيل يُكلَّمون من غير أن يكونوا أنبياء فإن يكن من أمتي أحد منهم : فعمر » .

قال في (فتح الباري) : والمحدَّث : هو من أُلقي في رُوعه شيء من قِبَل الملأ الأعلى ، فيكون كالذي حدَّثه غيره به ، وقيل : مكلَّم أي : تُكلِّمه الملائكة بغير نبوة ، وهذا ورد من حديث أبي سعيد مرفوعاً ولفظه : قيل : يا رسول الله كيف يحدَّث ؟ قال : « تتكلَّم الملائكة على لسانه » .

وقوله ﷺ : « فإن يكن من أمتي أحد فإنه عمر » : لم يَرِدْ مورد التردُّد ، بل هذا من باب التأكيد ، كما يقول الرجل : إن يكن لي صديق فإنه فلان ، يريد اختصاصه بكمال الصداقة ، لا نفي الأصدقاء عنه ، ولذا ورد في الترمذي عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال : « إن الله تعالى جعل الحق على لسان عمر وقلبه » . اهـ .

فهذه الأحاديث صريحة في إثبات الإلهام ، والتحدث عن المغيبات ، وفي سنن الترمذي وغيره عن أبي سعيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « اتَّقوا فِراسةَ المؤمن ، فإنه ينظر بنور الله ـ ثم قرأ : ﴿ إن في ذلك لآيات للمتوسِّمين ﴾ » .

وروى ابن جرير عن ثوبان مرفوعاً « احذروا فراسة المؤمن ، فإنه ينظر بنور الله ، وبتوفيق الله » .

وروى البزار عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « إن لله عباداً يَعرفون الناس بالتوسُّم » .

ومن ذلك قصة عثمان بن عفان رضي الله عنه لما دخل عليه الرجل وقد نظر إلى امرأة أجنبية ، فقال له عثمان : يدخل أحدكم علينا وفي عينيه أثر الزنا ! فقال الرجل : أَوَحيٌ بعد رسول الله يا أمير المؤمنين ؟ فقال له : لا ، ولكن فراسةُ مؤمنٍ صادقةٌ .

الدليل الرابع : من الأدلة على كثرة علومه ﷺ ـ علمه ﷺ بأصناف المخلوقات ، وأنواع أمم الحيوانات ، وبأحكامها وبأوضاعها وتفاصيل أمورها .

روى الطبراني بإسنادٍ رجاله رجال الصحيح عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : (لقد تركَنا رسولُ الله ﷺ وما في السماء طائر يطير بجناحَيْه إلاَّ ذكر لنا منه علماً[1]) .

وروى الإمام أحمد عن أبي ذر رضي الله عنه قال : (لقد تركَنا رسول الله ﷺ وما يُحرِّك طائر جناحيه في السماء إلاَّ ذكر لنا منه علماً) .

وزاد الطبراني في روايته أيضاً فقال النبي ﷺ : « ما بقي شيء يُقرِّب من الجنة ويباعد من النار ، إلا وقد بُيِّن لكم » .

(١) انظر (مجمع الزوائد) : الجزء الثامن ، وتفسير ابن كثير في مواضع منه .

فقد ذكر ﷺ للصحابة علماً كبيراً حول عالم الطير ، وفي هذا دليل على أنه ﷺ كان واسعَ العلم في نواحي أصناف العالم كله .

وأيضاً فيه دليل على أنه ﷺ بيَّن جميع المهامِّ الكونية ، المتعلقة بمصالح العالم وسعادة البشر ، من جميع الوجوه والاعتبارات ، فإنه ﷺ الذي تناول ذكر عالم الطير كيف يتصور منه أنه يُهمل بيان ناحية إصلاحية من نواحي المصالح البشرية ، ويترك ذكرها ، ويتناولُ ذكر عالم الطير وأحكامه ؟! لا ـ بل إنه ﷺ بيَّن جميع النواحي الإصلاحية وطرق السعادات البشرية على أكمل وجوهها .

وقد روى أبو يعلى بإسناده عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله أنه قال : قَلَّ الجراد في سنة من سِني عمر رضي الله عنه التي ولي فيها ، فسأل عمر عن الجراد ؟ فلم يخبر بشيء ، فاغتمَّ لذلك ، فأرسل راكباً إلى كذا ، وآخرَ إلى الشام ، وآخر إلى العراق ، يسأل : هل رُؤي من الجراد شيء أم لا ؟ قال : فأتاه الراكب الذي من قِبل اليمن بقبضة من جراد فألقاها بين يديه ، فلما رآها كبَّر ثلاثاً ، ثم قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « خلق الله عزَّ وجلَّ ألف أمة ، منها ستمائة في البحر ، وأربعمائة في البرّ ، وأوَّل شيءٍ يهلك من هذه الأمم الجراد ، فإذا هلكت تتابعتْ مثلَ النِّظام إذا قُطع سَلْكه »[1] .

وهذه الأحاديث بيانٌ لقوله تعالى : ﴿ وما مِن دابَّةٍ في الأرض ، ولا طائر يطير بجناحَيْه إلا أممٌ أمثالكم ، ما فرَّطْنا في الكتاب من شيء ، ثم إلى ربهم يُحشرون ﴾ .

(١) انظر هذا الحديث في تفسير ابن كثير وغيره .

وقد بيَّن النبي ﷺ ما يترتَّب على حشرها المخبر عنه في هذه الآية ، وما يجري بينها من القصاص يوم القيامة .

ففي (صحيح) مسلم والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لَتُؤَدُّنَّ الحقوقَ إلى أهلها يوم القيامة ، حتى يُقاد للشاة الجَلْحاء ـ أي : التي لا قرن لها ـ من الشاة القَرْناء » .

ورواه أحمد بلفظ : إن رسول الله ﷺ قال : « يُقْتصّ للخلق بعضِهم من بعض ، حتى للجمَّاء من القرناء ، وحتى للذرَّة من الذرَّة » . قال الحافظ المنذري : ورواته رواة الصحيح . اهـ .

فالطير أمَّة من الأمم ، والنمل أمَّة من الأمم ، كما ورد في (الصحيح) : « قرصَتْ نملة نبياً من الأنبياء ، فأمر بقرية النمل فأُحْرقَتْ ؛ فأوحى الله إليه : أنْ قرصتكَ نملة ـ أهلكتَ أمةً من الأمم تُسبِّح ! » .

والنحل أمة كما أخبر سبحانه : ﴿ وأوحى ربك إلى النحل أنِ اتخذي من الجبال بيوتاً ، ومن الشجر ، ومما يعرِشون . . ﴾ الآيات .

والمراد بالأمة هنا : صنفٌ من المخلوقات ذات نظام في حياتها ومعاشها وتناسلها ، وذات انتظام في مجتمعها ، فمنها الآمر والمأمور ، إلى ما هنالك .

قال تعالى : ﴿ قالت نملة : يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطِمنَّكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون ﴾ .

فلما أراد سليمان عليه الصلاة والسلام أن يمرَّ بجنوده نادت قائدة

النمل ورئيستهم ـ نادتهم فأمرتهم أن يدخلوا مساكنهم مخافةَ أنْ تطأهم أقدامُ الجيش ، وبيّنتْ لهم أنهم إذا لم يدخلوا المساكن فسوف تَطؤهم الأقدام ، ويكون الجيش معذوراً في ذلك ، لأنهم لا يشعرون بأن النمل تحت أقدامهم .

هذا ، وإن بحار علومه ﷺ لا يُحيط بها إلا الله تعالى الذي أفاضها عليه ، وقد جاء في (الصحيحين) وغيرهما ـ واللفظ للبخاري ـ عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ خرج حين زاغت الشمس ، فصلى الظهر ، فلما سلَّم قام على المنبر ، فذكر الساعة وذكر أن بين يديها أموراً عظاماً ثم قال : « مَن أحبَّ أن يسأل عن شيء فليسأل عنه ، فوالله لا تسألوني عن شيء ـ أي : عن أيِّ شيء كان ـ إلا أخبرتكم به ما دمت في مقامي هذا » .

قال أنس : فأكثر الأنصارُ البكاء ، وأكثر رسول الله ﷺ أن يقول : « سلوني » .

فقال أنس : فقام رجل فقال : أين مدخلي يا رسول الله ؟ قال : « النار » .

فقام عبد الله بن حذافة : فقال مَنْ أبي يا رسول الله ؟ قال : « أبوك حذافة » .

ثم أكثر أن يقول : « سلوني ، سلوني » فبرك عمر على ركبتيه فقال : رضينا بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد ﷺ رسولاً .

قال : فسكت رسول الله ﷺ حين قال عمر ذلك .

ثم قال رسول الله ﷺ : « والذي نفسي بيده لقد عُرضتْ عليَّ الجنة والنار آنفاً في عُرْض هذا الحائط وأنا أصلي ، فلم أرَ كاليوم في الخير والشر » .

فقد أذن ﷺ للصحابة أن يسألوه عن أيّ شيء بدا لهم ، ما دام في مقامه ذلك ، وفي هذا أكبر دليل على سعة علومه التي علَّمه الله تعالى إياها ﷺ ، قال الله تعالى : ﴿ وعلَّمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً ﴾ .

قلبه الشريف ﷺ

إن قلب سيدنا محمد ﷺ هو خيرُ القلوب وأزكاها ، وأوسعها وأقواها ، وأتقاها وأنقاها ، وألينها وأرقُّها ، وهو القلب الواعي اليقظان ، الفيَّاض بأنوار الإيمان والقرآن .

فخيرُ القلوب قلبه الشريف ﷺ ، جاء في (مسند) أحمد وغيره عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال : (إن الله تعالى نظر في قلوب العباد ، فوجد قلبَ محمد ﷺ خيرَ قلوب العباد ، فاصطفاه لنفسه ، وابْتَعثه برسالته ، ثم نظر في قلوب العباد ، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه ﷺ يُقاتلون عن دينه ـ فما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن ، وما رآه المسلمون سيِّئاً فهو عند الله سيِّءٌ)[1] .

كما وأن قلبه الشريف ﷺ هو أزكى القلوب وأطهرها ، فقد شُقَّ

(١) قال في (مجمع الزوائد) رواه أحمد والبزار والطبراني في (الكبير) ورجاله موثقون اهـ من الجزء الأول والثامن .

صدره الشريف منذ صغره واستُخرج من قلبه حظُّ الشيطان ـ كما روى مسلم وغيره عن أنس رضي الله عنه : (أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل ﷺ ، وهو يلعب مع الغلمان ، فأخذه فصرعه[1] فشقَّ عن قلبه ، فاستخرج القلبَ ، فاستخرج منه علقةً ، فقال : هذا حظُّ الشيطان منك[2] ، ثم غسله في طَسْتٍ من ذهب بماء زمزم ، ثم لأَمَه[3] ، ثم أعاده في مكانه ، وجاء الغِلمانُ يسعَوْن إلى أمّه ، يعني : ظِئْره ـ أي : مرضعته ـ فقالوا : إن محمداً قد قُتل ، فاستقبلوه وهو منتَقِع اللَّون ـ أي : متغيرّ اللون ـ .

قال أنس : وقد كنتُ أرى أثر ذلك المِخْيط في صدره ﷺ) .

وهذا الشقُّ للصدر الشريف قد حصل له ﷺ أوَّل مرة وهو صغير السنِّ عند حليمة رضي الله عنها .

وقد اختُلف في سنِّه ﷺ وقتئذٍ ؛ فقيل وقيل ، قال الحافظ الزرقاني : والراجح أنه ﷺ رجع إلى أمِّه وهو ابن أربع سنين ، وأن شقَّ الصدر إنما كان في الرابعة ، كما جزم به الحافظ العراقي في (نظم السيرة) ، وتلميذه الحافظ ابن حجر في (سيرته) . اهـ .

وأما المرَّة الثانية : فقد شُقَّ صدره الشريف ﷺ وهو ابن عشر سنين ، وقد رَوَى ذلك عبد الله بن أحمد في (زوائد المسند) بسند رجاله

(١) أي : ألقاه على قفاه .
(٢) أي : نصيبه لو بقي معك .
(٣) أي : أصلح موضع الشق .

ثقات وابن حبَّان والحاكم ، وابن عساكر والضياء المقدسي في (المختارة) عن أُبيّ بن كعب أن أبا هريرة قال : يا رسول الله : ما أوَّل ما ابتُدئتَ به من أمر النبوَّة ؟ .

فقال ﷺ : « إني لفي صحراء ، ابن عشر حجج ، إذا أنا برجلين ـ أي : ملكين في صورة رجلين ـ فوق رأسي يقول أحدهما لصاحبه : أهوَ هو ؟ قال : نعم ، فأخذاني بوجوهٍ لم أرها لخلقٍ قطُّ ـ أي : لحسن جمالها ـ ، وأرواحٍ لم أجدها من خلقٍ قطُّ ، وثيابٍ لم أرها على خَلْقٍ قطُّ ـ أي : لحسنها وبهجتها ـ فأقبلا إليَّ يمشيان ، حتى أخذ كلُّ واحدٍ منهما بعضدي ، لا أجد لأخذهما مسَّاً ، فقال أحدهما لصاحبه : أضجعْه ـ فأضجعاني .

ـ وفي لفظ ـ « فقال أحدهما لصاحبه : افلق صدره ، ففلقاه فيما أرى بلا دم ولا وجع ، فكان أحدهما يختلف بالماء في طستٍ من ذهب ، والآخر يغسل جوفي ثم قال : شُقَّ قلبه ، فشقَّ قلبي ، فأخرج الغِلَّ والحسَد منه ، فأخرج شبه العلقة فنبذ به . . » الحديث[1] .

قال العلامة محمد بن يوسف الشامي في (سيرته الشامية) : والحكمة فيه : أن العشر قريب من سنِّ التكليف ، فشُقَّ قلبه ﷺ وقُدِّس ، حتى لا يتلبَّس بشيء مما يُعاب على الرجال . اهـ[2] .

وأمَّا المرَّة الثالثة : فقد شقَّ صدره الشريف ﷺ عند مجيء جبريل

(١) انظر الحديث بنصه في شرح الزرقاني ١ : ١٥٣

(٢) انظر (شرح الزرقاني) وغيره .

عليه السلام بالوحي إليه حين نُبِّىء ، فقد روى أبو داود الطيالسي والحارث أبو محمد التميمي في (مسنديهما) ، والبيهقي وأبو نعيم في (دلائلهما) كلهم عن عائشة رضي الله عنها : « أن رسول الله ﷺ اعتكف هو وخديجة شهراً بحراء ، فوافق ذلك شهر رمضان ، فخرج رسول الله وسمع : السلام عليكم ، قالت ـ خديجة ـ : فظننتُ أنه فجأة الجنِّ ، فقال : « أبشروا فإن السلام خير » .

ثم رأى يوماً آخر جبريل عليه السلام على الشمس : جناح له بالمشرق ، وجناح له بالمغرب قال : « فهِبتُ[1] منه » .

فانطلق يريد أهله ، فإذا هو بينه وبين الباب ، قال : « فكلَّمني حتى أنِستُ به ، ثم وعدني موعداً ، قال : فجئتُ لموعده ، واحتبس عليَّ جبريل » وفي رواية : «فأبطأ عليَّ » فلما أراد أن يرجع إذا هو به ـ أي : بجبريل ـ وبميكائيل صلى الله عليهما فهبط جبريل إلى الأرض ، وبقي ميكائيل بين السماء والأرض ، قال : « فأخذني جبريل فسلقني لحلاوة[2] القفا وشق عن بطني ـ وفي رواية : فألقاني لحلاوة القفا ـ أي : وسطه ـ ثم شق عن قلبي ، فأخرج منه ما شاء الله ، ثم غسله في طسْتٍ من

(١) في رواية : « فهلت منه » . وهو من كلامه ﷺ .

(٢) هذا لفظ الحديث الوارد في (مسند) أبي داود الطيالسي ص ٢١٥ من الطبعة الأولى بمطبعة حيدر آباد .

وانظر بقية الروايات في شرح الزرقاني على المواهب ١ : ٢٢٥ . ومعنى سلقني : قلبني ، كما تفسره الرواية الثانية . وانظر (النهاية) لابن الأثير .

ذهبٍ ثم أعاده فيه ثم كفأني ـ أي : قلبني ـ كما يُكفأ الإناء ، ثم ختم في ظهري حتى وجدت مسَّ الخاتم » .

والحكمة في هذا الشقِّ ـ كما أفاده المحققون ـ هو الزيادة في إكرامِهِ وإمداده ﷺ ، وتقويته وإعداده ، ليتلَّقى ما يُوحى إليه بقلبٍ قويٍّ في أكمل الأحوال القدسية المرضية .

وأما المرَّة الرابعة : فقد شُقَّ صدره الشريف ليلة الإسراء ، كما ورد في (الصحيحين) عن أنس رضي الله عنه ، عن مالك بن صَعْصَعة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ حدَّثه عن ليلة أُسري به : قال : « بينما أنا في الحطيم ـ وربما قال : في الحِجْر ـ مضطجعاً ، إذ أتاني آتٍ ، فشقَّ ما بين هذه إلى هذه ـ يعني ثَغْرةَ نحْره إلى شِعرته ـ ، فاستخرج قلبي ، ثم أُتيتُ بطستٍ من ذهبٍ مملوء إيماناً ـ وفي رواية للبخاري : بطستٍ ملىء حكمةً وإيماناً ـ فغُسل قلبي ، ثم حُشيَ ـ أي : حُشي إيماناً وحكمة ـ ثم أعيد

ـ وفي رواية للبخاري : ثم أُتيت بماءٍ بطستٍ من ذهب ممتلىء حكمةً وإيماناً فأفرغه في صدري ، ثم أطبقه ـ ثُمَّ أُتيتُ بدابَّة : دون البغل وفوق الحمار ، أبيض . . » الحديث .

والحكمة في هذا الشقِّ ـ كما أفاده العارفون ـ هي الزيادة في إكرامه ﷺ وإعظامه ، والزيادة في إمداده وإعداده ، للتأهب للوقوف بين يدي الله تعالى ومناجاته ، ومشاهدة الأنوار والأسرار ، وتجلِّيات الجمال والجلال .

قال في (المواهب وشرحه) ورُوي شقُّ صدره مرةً خامسةً وهو ابن عشرين سنةً ـ فيما قيل ـ ولا تثبت ، فلا تذكر إلا مقرونةً ببيان عدم الثبوت . اهـ[1] .

وقال الحافظ القسطلاني أيضاً : ثم إن جميعَ ما ورد من شقِّ الصدر واستخراج القلب ، وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة : مما يجب التسليم له ، دون التعرُّض لصرفه عن حقيقته ، لصلاحيَّة القدرة ، فلا يستحيل شيء من ذلك .

قال الشارح الزرقاني : لأن القدرة إنما تتعلَّق بالممكن دون المستحيل ، هكذا قاله القرطبي في (المُفْهم) والطِّيبي ، والتُّورْبشتي ، والحافظ في (الفتح) ، والسيوطي وغيرهم ، ويؤيده الحديث الصحيح أنهم كانوا يرون أثر المِخْيط في صدره ﷺ .

وقال أيضاً : قال السيوطي : وما وقع من بعض جهلة العصر من إنكارِ ذلك وحمله على الأمر المعنويّ ، وإلزام قائله القولَ بقلب الحقائق : فهو جهل صُراح ، وخطأ قبيح ، نشأ من خذلان الله تعالى لهم ، وعكوفهم على العلوم الفلسفية ، وبُعدهم عن دقائق السنَّة ، عافانا الله من ذلك ـ انتهى كلام السيوطي[2] .

فما أزكى قلب سيدنا محمد ﷺ وما أبرَّه ، وما أكرمَه وما أعظمه ! حقاً إنه أعظم القلوب وخيرها وأزكاها .

---

(١) انظر (شرح الزرقاني) ١ : ١٣٥

(٢) كما في (شرح المواهب) ٦ : ٢٥ .

سعة قلبه الشريف ﷺ وقوته :

قال الله تعالى : ﴿ نَزَل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين ﴾ . ففي هذه الآية إيماء إلى تخصيص قلبه الشريف ﷺ بنزول القرآن عليه دون سائر القلوب ، وذلك لكمال اتساعه الذي منحه الله تعالى إياه وقوة تحمُّله لتنزُّلات القرآن العظيم ، الذي لو أنزل على الصمِّ الراسيات والجبال الشامخات ، لتصدَّعتْ وتشقّقت من خشية الله تعالى ـ قال تعالى : ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبلٍ لرأيتَه خاشعاً متصدِّعاً من خشية الله . . . ﴾ الآية .

وإن قلباً نزل عليه القرآن الكريم بأسراره وأنواره ، وحروفه ومعانيه ، وروحه وحقائقه ، حقاً إن هذا القلب أوسع القلوب وأقواها ! قال تعالى : ﴿ وكذلك أو حينا إليك روحاً من أمرنا ما كنتَ تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكنْ جعلناه نوراً نهدي به مَن نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم ﴾ .

فأفاض من بحر أسرار قلبه الشريف ، على قلوب أتباعه ، وأشعَّ في مرايا قلوبهم من مشارق أنواره ؛ ومن تدَّبر في قوله تعالى : ﴿ ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاءُ من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم ﴾ فهم المعنى .

قلبه الشريف ﷺ أتقى القلوب :

جاء في (صحيح) مسلم عن أبي ذر في الحديث القدسي : « يا عبادي لو أن أوَّلكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، كانوا على أتقى

قلب رجلٍ واحدٍ منكم : ما زاد ذلك في ملكي شيئا . . . » الحديث .

فهذا القلب الذي هو أتقى القلوب المشار إليه في الحديث ، هو قلب سيدنا محمد ﷺ الذي قال : « أما والله إني لأخشاكم لله ، وأتقاكم له » الحديث في (الصحيحين) .

كما وأن قلبه الشريف ﷺ أنقى القلوب وأسلمها :

ففي (سنن) أبي داود عن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « لا يُبلِّغني أحد عن أحدٍ من أصحابي شيئاً ، فإني أُحبُّ أن أخرج إليكم وأنا سليمُ الصدر » .

وروى ابن ماجه بإسناد صحيح عن ابن عمرو رضي الله عنهما قال : قيل يا رسول الله : أيُّ الناس أفضل ؟

قال : « كلُّ مخمومِ القلب ، صدوقُ اللسان » .

قالوا : صدوق اللسان نعرفه ، فما مخموم القلب ؟

قال : « هو التقيُّ النقيُّ ، لا إثمَ فيه ، ولا بَغْي ، ولا غِلَّ ، ولا حسد » .

كما وأن قلبه الشريف ﷺ ألين القلوب وأرقها :

قال الله تعالى : ﴿ فبما رحمةٍ من الله لِنْتَ لهم ولو كنتَ فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك . . . ﴾ الآية ، فلم يكن رسول الله ﷺ غليظ القلب بل كان ليناً .

وروى الطبراني عن أبي عِنَبة الخولاني أن النبي ﷺ قال : « إن

لله تعالى آنيةً من أهل الأرض ، وآنيةُ ربكم قلوب عباده الصالحين ، وأحبُّها إليه ألينها وأرقُّها »[1] .

يقظة قلبه الشريف ﷺ :

لقد أعطى الله تعالى رسوله ﷺ يقظة القلب ، فهو في توجُّه إلى الله تعالى ووَعي عنه دائمين ، لا تعتريه غفلة ، ولا يطرأ على قلبه ﷺ شائبة نوْمة ، ولذا كانت رؤياه المنامية من جملة طرق الوحي وأنواعه ، كما أن نومه لا ينقض وضوءه ﷺ ، وقد ثبت ذلك بالأحاديث الصحيحة .

ففي (صحيح) البخاري وغيره عن عائشة رضي الله عنها في حديث قيام النبي ﷺ بالليل ، قالت عائشة : قلت : يا رسول الله أتنام قبل أن تُوتر ؟ فقال : « يا عائشة إن عينيَّ تنامان ولا ينام قلبي » .

وفي (صحيح) مسلم عن عياض بن حمار رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « . . . وإن الله تعالى نظر إلى أهل الأرض فمقتهم : عَربَهم وعَجَمهم إلَّا بقايا من أهل الكتاب[2] ، وقال : إنما بعثتُكَ لأبتليكَ وابتليَ بك ، وأنزلتُ عليك كتاباً لا يغسله الماء[3] تقرأه نائماً ويقظانَ . . . » الحديث .

(١) قال الحافظ الهيثمي : إسناده حسن . وقال شيخه العراقي : فيه بقية بن الوليد وهو مدلس ، لكنه صرح بالتحديث فيه اهـ من (فيض القدير) للمناوي .

(٢) قيل : المراد بالكتاب هنا : الكتب السماوية السابقة ، فيكون الحديث محمولاً على حال الناس قبل بعثة النبي ﷺ فإن الجهالة عمتهم فأعمتهم ، فمقتهم الله تعالى إلا بقايا قليلة ممن تمسك بالكتاب : أي : بالكتب السماوية .

(٣) والمعنى : أن الماء لا يمحوه من الأرض ، فإن محي من السطور فهو محفوظ في

وروى البخاري عن جابر رضي الله عنه قال : « جاءتْ ملائكة إلى النبي ﷺ وهو نائم - وفي رواية الترمذي : خرج علينا رسول الله ﷺ فقال : إني رأيتُ في المنام كأنَّ جبريل عند رأسي وميكائيل عند رجلي - فقال بعضهم : إنه نائم ، وقال بعضهم : إن العين نائمة ، والقلب يقظان .

فقالوا : إن لصاحبكم هذا مثلاً ، قال : فاضربوا له مثلاً !

فقالوا : مثَلُه كَمَثل رجل بنى داراً ، وجعل فيها مأدبة[1] ، وبعث داعياً ، فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل من المأدُبة

ومَنْ لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدُبة .

فقالوا : أوِّلوها له يَفْقَهْها - أي : يفهمها - فقال بعضهم : إنه نائم ، وقال بعضهم : إن العين نائمة والقلب يقظان .

فقالوا : فالدارُ الجنةُ ، والداعي محمد ﷺ - فمن أطاع محمداً ﷺ فقد أطاع الله ، ومن عصى محمداً فقد عصى الله . . . » الحديث .

وفي (سنن) الدارمي : « أُتي النبي ﷺ فقيل له : لتَنَمْ عينُك ، ولْتسمَعْ أُذنك ، ولْيعْقل قلبُك ، قال : فنامَتْ عيناي ، وسمعتْ أُذناي ، وعقل قلبي .

الصدور ، وذلك لأن الله تعالى هو تكفل بحفظه حيث قال : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له الحافظون ﴾ فحفظه في محافظ وألواح لا يمحوها الماء ، ألا وهي صدور العلماء والقراء ، قال تعالى : ﴿ بل هو آيات بينات في صدور الذين أُوتوا العلم . . . ﴾ الآية .

(١) المأدبة : هي الأطعمة التي تعد للولائم ، والمراد بالمأدبة هنا الجنة .

فقيل لي : سيِّد بنى داراً ، فصنع مأدبة ، وأرسل داعياً ، فمن أجاب الداعي : دخل الدار ، وأكل من المأدبة ، ورضي عنه السيِّد ، ومن لم يجب الداعي : لم يدخل الدارَ ، ولم يَطْعَمْ من المأدبة ، وسخِط عليه السيِّد » .

قال : « فالله السيِّد ، ومحمدٌ الداعي ، والدار الإسلام ، والمأدبة الجنَّة » .

وقد ذكر علماء السلف والخلف طرق الوحي وأنواعه ، ومن جملتها رؤياه المنامية ﷺ ، كما دلَّ عليه حديث عائشة رضي الله عنها : (أوَّل ما بُدىء به رسولُ الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصَّادقة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلَّا جاءتْ مثل فَلَق الصبح . . .) الحديث .

وقد استدلَّ السهيلي وغيره على أنها من الوحي بقول الخليل إبراهيم على نبينا وعليه الصلاة والسلام لولده كما أخبر الله تعالى عنه : ﴿يا بُنَيَّ إني أرى في المنام أني أذبحُك﴾ ثم قيامه بتنفيذ الرؤيا .

خاتم النبوَّة

لقد ثبت في الأحاديث الصحيحة أنه ﷺ كان بين كتفيه خاتَم النبوَّة ، وهو كما قال علماءُ الحديث : بَضْعَةُ لحْمٍ ناشزَةٌ ـ أي : مرتفعة ـ في ظهره الشريف ، عند ناغض كتفِه اليسرى ، عليها شعرات كأنها خِيلان ، يزهو بالنور ، وتعلوه المهابة ، وينفح بالطيب .

روى الترمذي وغيره عن أمير المؤمنين علي رضي الله تعالى عنه أنه

كان إذا وصفَ رسول الله ﷺ في جملة أوصافه : بين كتفيه خاتَم النبوَّةِ ، وهو خاتم النَّبيِّين . . . الحديث كما تقدَّم .

وروى الترمذي عن رُمَيْثة رضي الله عنها قالت : سمعتُ رسول الله ﷺ ـ ولو شاء أن أُقَبِّل الخاتم الذي بين كتفيه من قربه لفعلتُ ـ يقولُ لسعد بن معاذ يوم مات : « اهتزَّ له عرش الرحمن » .

أوصاف خاتم النبوة : جاء في خاتم النبوَّة أوصاف متعددة ، ولا تنافي بينها ، كما سنبين ذلك إن شاء الله تعالى .

ففي (الصحيحين) ـ واللفظ للبخاري ـ عن السائب بن يزيد رضي الله عنه قال : ذهبتْ بي خالتي إلى رسول الله ﷺ فقالتْ : (يا رسول الله إن ابن أختي وَجِعَ[1] فمسح رسول الله ﷺ رأسي ، ودعا لي بالبركة ، وتوضَّأ ، فشربتُ من وضوئه ثمَّ قمتُ خلفَ ظهره ، فنظرتُ إلى خاتم النبوَّة بين كتفيه مثلَ زِرِّ الحَجَلة[2]) .

وروى الترمذي عن عاصم الأحول عن عبد الله بن سَرجِس رضي الله عنه أنه قال : (أتيتُ النبي ﷺ وهو في ناسٍ من أصحابه ، فدُرتُ هكذا من خلفه ، فعرف الذي أُريد ، فألقى الرداء عن

---

(١) وفي رواية : وقع ـ بكسر القاف ـ ، والمراد أنه كان يشتكي رجله .

(٢) قال الإمام النووي في (شرحه) : أما زر الحجلة فبزاي ثم راء ـ أي : واحد الأزرار التي توضع في العرى التي تكون للخيمة ـ قال : والحجلة : بفتح الحاء والجيم ، هذا هو الصحيح المشهور ، والمراد بالحجلة واحدة الحجال ، وهي : بيت كالقبة ـ أي كالقبة الصغيرة تعلق على السرير ـ لها أزرار كبار وعرى ، هذا هو الصواب المشهور ؛ الذي قاله الجمهور . اهـ .

ظهره ﷺ ،فرأيتُ موضع الخاتم على كتفيه مثلَ الجُمْع[1] حولها خِيلانٌ[1] كأنها ثآليل ، فرجعتُ حتى استقبلته فقلتُ : غفرَ الله لك يا رسول الله ! فقال : « ولكَ » فقال القوم : استغفر لك رسول الله ﷺ ؟ فقال : نعم ، ولكم ، ثمَّ تلا هذه الآية : ﴿ واستغفِرْ لذنبِكَ وللمُؤمِنينَ وَالمؤمنات ﴾) .

وقد رواه مسلم وفيه : (ثمَّ دُرْتُ خلفه ﷺ فنظرتُ إلى خاتمِ النبوَّة ، بين كتفيه عند ناغِض[2] كتفه اليسرى ، جُمْعاً ، عليه خيلانٌ كأمثال الثآليل) .

وروى مسلم عن جابر بن سمرة قال : (رأيتُ خاتماً في ظهر رسول الله ﷺ كأنه بيضة حمام) .

وروى الإمام أحمد والترمذي ـ واللفظ له ـ عن أبي نَضْرَة العَوَقي قال : سألتُ أبا سعيد الخدري رضي الله عنه عن خاتم رسول الله ﷺ ؟ فقال : (كان في ظهره بَضْعةً ناشزة) ـ أي قطعة لحم مرتفعة ـ .

(١) بضم الجيم وإسكان الميم ، ومعناه أنه كجمع الكف ، وهو صورته بعد أن تجمع الأصابع وتضمها ، كما أوضحه النووي ـ والمراد : أن تجمع الأصابع وتضم إلى باطن الكف ، كالقابض على الشيء كما بينه الحافظ الزرقاني .
قال : وأما الخيلان : فبكسر الخاء المعجمة وإسكان الياء ، جمع خال ، وهو الشامة في الجسد ـ والله أعلم . اهـ

(٢) قال الإمام النووي : وأما ناغض الكتف : فبالنون والغين والضاد المعجمتين ، والغين مكسورة ، وقال الجمهور : النغض والناغض : أعلى الكتف ، وقيل : وهو العظم الرقيق الذي على طرفه ، وقيل : ما يظهر منه عند التحرك . اهـ .

وروى الترمذي وغيره عن علْباء قال : حدثني عمرو بن أخْطب الأنصاري قال : قال لي رسول الله ﷺ : « يا أبا زيد أُدْنُ مني فامْسحْ ظهري » فمسحتُ ظهره ، فوقعتْ أصابعي على الخاتم .

قلتُ : وما الخاتم ؟ قال : شَعَراتٌ مجتمعات .

قال العلماء : واختلاف أقوال الرواة في أوصافِ خاتمِ النبوَّة ، ليس من باب التنافي بينها ، وإنما هي باعتبار أنَّ كلًّا منهم شبَّهَ بما سَنَحَ له وظهر ، لأنه ﷺ كان يستره ، باعتبار أنه في ظهره الشريف ﷺ ، فواصفه إما رآه من غير قصد ، أو أنه ﷺ أراه له ، مع ملاحظة الرائي مقام الهيبة والوقار والأدب مع النبي ﷺ .

وقال العلامة القرطبي في (شرحه على صحيح مسلم) : الأحاديثُ الثابتة دالَّةٌ على أنَّ خاتم النبوَّة كان شيئاً بارزاً أحمر ، عند كتفِه الأيسر ، إذا قُلِّل : قدر بيضة ـ أي : قيل فيه قدر بيضة الحمام ـ وإذا كُثِّر : جُمْعُ الكفِّ ـ أي : قيل فيه قدرُ جُمعِ الكفِّ[1] ـ .

حكمة وضعه بين الكتفين الشريفين : ذكر العلماءُ في ذلك وجوهاً من الحِكَم ، قال الحافظ ابن كثير : ومن أحسن ما ذكره ابن دحية رحمه الله ، وغيره من العلماء قبله ، في الحكمة في كون الخاتم كان بين كتفي رسول الله ﷺ : إشارة إلى أنه لا نبيَّ بعدك يأتي من ورائك[2] . اهـ .

(١) انظر جميع ذلك في شرح الزرقاني و (فتح الباري) .
(٢) انظر (البداية والنهاية) ٦/٢٨ .

وقال في (الفتح) : قال العلماء : السرُّ في ذلك أنَّ القلب في تلك الجهة .

وقال العلامة السهيلي في (الروض الأُنُف) : وحكمة وضعه ـ أي : الخاتم ـ عند النُّغض ـ من الكتف اليسرى ـ لأنه معصوم من وسوسة الشيطان ، وذلك الموضع منه يدخل الشيطان اهـ . فكان ذلك حفظاً له من الشيطان .

وروى ابن عبد البرِّ بسند قويّ إلى ميمون بنِ مهران عن عمر بن عبد العزيز أنَّ رجلاً سأل ربَّه أن يُرِيَه موضع الشيطان من ابن آدم ، فأُرِيَ جَسَدَه مُمْهى [1] يُرى داخله من خارجه ، وأُرِيَ الشيطانَ في صورَة ضِفدِع ، عند كتفه حذاء قلبه ، له خُرطوم كخرطوم البعوضة ، وقد أدخله في منكبه الأيسر إلى قلبه ، يوسوس إليه ، فإذا ذكر الله تعالى العبدُ خَنَس .

قال في (الفتح) : وهو مقطوع ، وله شاهد مرفوع عن أنس عند أبي يعلى وابن عدي ولفظه : « إنَّ الشيطان واضع خَطْمه على قلب ابن آدم . . » الحديث .

قال : وأورد ابن أبي داود في (كتاب الشريعة) من طريق عروة بن رُوَيم ، أنَّ عيسى عليه السلام سأل ربه أن يُرِيه موضعَ الشيطان من ابن آدم ، قال : فإذا برأسه مثل الحية ، واضع رأسه على ثَمْرَة القلب ، فإذا ذكَرَ العبدُ ربَّه خَنَس ، وإذا غَفَل وسوس . اهـ [2] .

(١) قال الزرقاني : ممهى بضم الميم الأولى وسكون الثانية وتخفيف الهاء ، من أمهاه ، أي : مصفى . وفي (النهاية) : ممهى على وزن مصفى .
(٢) انظر (فتح الباري) ٧ : ٣٧٤ .

متى خُتم له ﷺ بخاتم النبوة : اختلف العلماء هل أنه ﷺ وُلد وعليه خاتم النبوَّة ، أم إنه وضع له بعد ولادته ؟

فقيل : وُلد به ، نقله ابن سيد الناس ، وردَّه في (الفتح) ثم قال : واختلفَ القائلون بالثاني ـ أي : بأنه وضع له بعد الولادة ـ

فقيل : حين ولد ﷺ وضع له خاتم النبوَّة ـ واستدلوا على ذلك بحديث فيه نكارة .

وقيل : عند شقِّ صدره ﷺ وهو في بني سعد ـ لما ورد في حديث عتبة بن عبد ـ عند الإمام أحمد والطبراني .

قال الحافظ الزرقاني : وقطع به القاضي عياض ، وقال الحافظ ـ ابن حجر ـ : وهو الأثبت . اهـ .

وقيل : إنه عند المبعث ، لما تقدَّم في حديث عائشة رضي الله عنها وفيه : « وخَتَم في ظهري حتى وجدتُ مسَّ الخاتم في قلبي وقال : اقرأ . . » الحديث .

وقيل : إنه ليلة المعراج ، لما ورد عند أبي يعلى وابن جرير والحاكم في حديث المعراج من حديث أبي هريرة [1] .

قال الحافظ الزرقاني : وطريق الجمع أن الختم تكرَّر ثلاث مرات : في بني سعد ـ أي : في صغره ﷺ ـ ثمَّ عند المبعث ، ثم ليلة الإسراء ، كما دلت عليه الأحاديث ـ أي : الأحاديث الثابتة ـ قال : ولا بأس بهذا الجمع فإنَّ فيه إعمال الأحاديث كلها ، إذ لا داعي إلى ردِّ بعضها ،

(١) انظر (فتح الباري) و (شرح المواهب) .

وإعمال بعضها ، لصحة كلٍّ منها ، وإليه أشارَ الشامي ـ أي : في سيرته ـ قال : وأما رواية بعد الولادة ، فضعيفة ، وأما أنه وُلِدَ به : فضعيف أيضاً ، يُطلب زاعمه بدليله . اهـ[1] .

سبب تسميته بخاتم النبوة : قال العلامة القرطبي وغيره : سُمي بذلك لأنه أحد العلامات الواضحة التي يعرفه بها أهل الكتب السابقة . اهـ

وذلك لما ورد في جملة صفاته ﷺ وأمارات صدقه ، في الكتب السماوية السابقة ـ أن بين كتفيه ﷺ خاتم النبوة .

ولذلك لما أخبر بعض الرهبان سلمان الفارسي بظهور النبي في الحجاز ووصفه له ، وأنَّ من علامات صدقه : عدمَ قبولِ الصدقة ، وقبولَ الهدية ، وأنَّ بين كتفيه خاتم النبوَّة ، فجاء إلى رسولِ الله ﷺ يفَحص عنها ، فلما رأى الخاتم آمن بالنبي ﷺ .

روى الترمذي وأحمد وغيرهما عن بُريدة رضي الله عنه قال : جاء سلمان الفارسي إلى رسول الله ﷺ حين قدم المدينة ، بمائدة عليها رُطَب ، فوُضِعَت بين يدي رسول الله ﷺ فقال رسول الله : « يا سلمانُ ما هذا ؟ » .

فقال : صدقة عليك وعلى أصحابك .

فقال : « ارفعها ، فإنَّا لا نأكل الصدقة » قال : فرفعها .

(١) انظر (شرح الزرقاني على المواهب) ١ : ١٦٠ .

فجاء سلمانُ الغَدَ بمثلِه فوضعه بين يدي رسول الله ﷺ فقال : « ما هذا يا سلمان ؟ » .

فقال : هديةٌ لكَ .

فقال رسول الله ﷺ لأصحابه : « ابسُطوا »

ثمَّ نظر إلى الخاتم على ظهر رسول الله ﷺ فآمن به .

وكان ـ رقيقاً[1] ـ لليهود ، فاشتراه[2] رسول الله ﷺ بكذا وكذا درهماً ، على أن يغرس لهم نخلاً ، فيعمل سلمان فيه حتى يُطعِم ، فغرس رسول الله ﷺ النخيل إلَّا نخلةً واحدةً غرسها عمر ، فحملت النخل من عامها ولم تحمل النخلة .

(١) وسبب ذلك أنه كان في بلاد فارس بين قوم مجوس ، فهرب من بينهم ولحق بجماعة من الرهبان في القدس ، فدله أحدهم على ظهور النبي ﷺ بأرض العرب ، فقصد الحجاز مع جمع من الأعراب ، فباعوه لليهود . اهـ كما في (شروح الشمائل) للترمذي .

(٢) قال العلامة البيجوري : أي : تسبب في كتابة اليهود له ، لأمره بذلك ، فتجوز بالشراء عما ذكر ،وقوله :(بكذا وكذا درهماً) أي : بعدد يشتمل على العطف ، ولم يبينه في هذا الحديث ، وفي بعض الروايات أنه أربعون أوقية ، قيل : من فضة ، وقيل : من ذهب ، وقد بقي عليه ذلك حتى أتي رسول الله ﷺ بمثل بيضة الدجاج من ذهب ، فقال ﷺ : « ما فعل الفارسي المكاتب ؟ » فدعي فقال له : « خذها فأدها مما عليك » قال سلمان : فأين تقع هذه مما علي ؟ فقال ﷺ : « خذها ، فإن الله سيؤدي بها عنك » قال : فأخذتها فوزنت لهم منها أربعين أوقية فأوفيتهم حقهم ـ فعتق سلمان رضي الله عنه . اهـ .

فقال رسول الله ﷺ : « ما شأن هذه النخلة » ؟ فقال عمر : يا رسول الله أنا غرستها ، فنزعها رسول الله ﷺ وغرسها فحملتْ من عامها .

ومن ذلك ما ورد في قصة ـ بُحَيراءَ أو بَحيرا ـ الراهب ، ومعرفته بالنبي ﷺ بسبب خاتم النبوَّة المخبَر عنه في الكتب السابقة .

روى الترمذي عن أبي موسى قال : خرج أبو طالب إلى الشام ، وخرج معه النبي ﷺ في أشياخ من قريش ، فلما أشرفوا على الراهب ـ بَحيرا ـ هبطوا فحلُّوا رحالهم ، فخرج إليهم الراهب ، وكانوا قبل ذلك يمرّون به فلا يخرج إليهم .

قال : فهم يحلُّون رحالهم فجعل يتخلَّلهم الراهب ـ أي : يمشي بينهم ويطلب في خلالهم شخصاً ـ حتى جاء فأخذ بيد رسول الله ﷺ وقال : هذا سيِّد العالمين ، هذا رسول رب العالمين ، يبعثه الله رحمة للعالمين .

فقال له أشياخ قريش : ما علمك ؟ ـ أي : ما سبب علمك بذلك ؟ ـ .

فقال ـ الراهب ـ : إنكم حين أشرفتم من العقبة ، لم يبق شجر ولا حجر إلَّا خرَّ ساجداً ، ولا يسجدان إلا لنبيٍّ ، وإني أعرفه بخاتم النبوة ، أسفل من غضروفة كتفه ، مثل التفَّاحة .

ثم رجع فصنع لهم طعاماً ، فلما أتاهم به وكان هو ـ أي : النبي ﷺ ـ في رِعْية الإبل .

فقال : أرسلوا إليه ، فأقبل وعليه غمامةٌ تُظِلُّه ، فلما دنا من القوم

وجدهم قد سبقوه إلى فيء الشجرة ، فلما جلس ﷺ مال فيء الشجرة عليه ، فقال ـ أي : الراهب للقوم ـ انظروا إلى فيء الشجرة مال عليه .

فقال : أنشدكم الله أيُّكم وليُّه ـ أي : قريبه ـ ؟

قالوا : أبو طالب .

فلم يزلْ يُناشده ـ أي : يناشد أبا طالب ـ حتى ردَّه أبو طالب ـ أي : أعاد النبيَّ ﷺ إلى مكة خوفاً عليه من الروم أن يقتلوه ـ وبعث معه أبو بكر بلالاً وزوَّده الراهب من الكعك والزيت .

قال الترمذي : حديث حسن غريب ، وقال الجزري : إسناده صحيح ورجاله رجال (الصحيحين) أو أحدهما ـ وذِكْر أبي بكر وبلال فيه غير محفوظ ، وعدَّه أئمتنا وهماً ، وهو كذلك ، فإنَّ سنَّ النبي ﷺ إذ ذاك اثنتا عشرة سنة ، وأبو بكر أصغر منه بسنتين ، وبلال لعله لم يكن وُلد في ذلك الوقت . اهـ كما في (المرقاة) .

وقال الحافظ ابن حجر في (الإصابة) : الحديث رجاله ثقات ، وليس فيه سوى هذه اللفظة ـ أي : ذكر أبي بكر وبلال ـ فيحتمل أنها مدرجة فيه ، منقطعة من حديث آخر ، وَهَماً من أحد رواته . اهـ .

حول خلقه العظيم ﷺ

قال الله تعالى : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم . ن . والقلَمِ وما يَسطُرون . ما أنتَ بنعمةِ ربِّكَ بمجنون . وإنَّ لك لأجراً غيرَ ممنون . وَإنَّكَ لعَلى خُلُقٍ عظيمٍ ﴾ .

أقسمَ الله تعالى بنون ، وهو المدد الإلٰهي الفيَّاض ، الذي منه استمداد القلم الأعلى المستفيض ، وهو أوَّل ما خلق الله تعالى ، كما ورد في الحديث الذي رواه الترمذي والإمام أحمد عن عُبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « إنَّ أوَّل ما خلق الله القلم ، فقال له : اكتُبْ . قال : يا ربِّ وما أكتبُ ؟ فقال : اكتُبْ ما هو كائن إلى يوم القيامة . . » الحديث .

ثمَّ أقسم سبحانه بجميع ما تسطره الملائكة وما يسطره المسطِّرون : ما أنت يا محمد ﷺ بفضل نعمة ربك عليك بالنبوة والرسالة بمجنون ، لأنَّ مواقف رسالتك ودعوتك الحكيمة ، وشريعتك المستقيمة ، هي في أعلى درجة العلم والحكمة ، فكيف يُتصوَّر هذا ويلتقي مع قولهم فيك مجنون ؟ ! بل المجنون هو الذي يتَّهم صاحبَ العلم والحكمة والفهم بالجنون !

﴿ وإنَّ لك ﴾ يا رسول الله على هذا التحمُّل والصبر على أذاهم بالقول والفعل ﴿ لأجراً غيرَ ممنون ﴾ أي : غير مقطوع .

﴿ وإنك ﴾ يا رسول الله في الأخلاق السامية التي علوت قِمتها ، وانتهيتَ إلى ذروتها ، إنك حقاً ﴿ لعلى خُلُقٍ عظيم ﴾ .

فهو ﷺ عظيم في كل ناحية من نواحي الأخلاق الكاملة ، فهو عظيم ﷺ في حلمه وسماحته ، عظيم في كرمه وسخائه ، عظيمٌ في شجاعته ، عظيم في تواضعه ، عظيمٌ في كريم عشرته ، عظيم في حيائه ، عظيم في أدبه ، عظيم في رحمته ورأفته ، عظيم في سائر أخلاقه ﷺ !

وكيف لا يكون صاحبَ الخلق العظيم وقد تخلَّقَ بالقرآن العظيم ! كما ورد عن عائشة رضي الله عنها أنها سُئلتْ عن خُلُق رسول الله ﷺ ؟ فقالت : (كان خُلُقه القرآن : يغضب لغضبه ، ويرضى لرضاه) . رواه مسلم وأبو داود .

وروى ابن أبي شيبة عن عائشة رضي الله عنها أنها سُئلتْ عن خُلُق رسول الله ﷺ ؟ فقالت : (كان أحسنَ الناسِ خُلُقاً ، كان خلقُه القرآن : يرضى لرضاه ويغضب لغضبه ، لم يكن فاحشاً ولا مُتَفحِّشاً ، ولا صَخَّاباً في الأسواق ، وَلا يجْزي بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويصفح) .

ثمَّ قالت : إقرأ : ﴿ قد أفلحَ المؤمنون . . ﴾ إلى العشر الآيات ، فقرأ السائل ، فقالت : (هكذا كان خلقه ﷺ) .

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : ما كان أحدٌ أحسنَ خُلُقاً من رسول الله ﷺ ما دعاه أحدٌ من أصحابه ولا من أهل بيته إلا قال : « لبَّيك » فلذلك أنزل الله تعالى : ﴿ وَإنك لعلى خُلُقٍ عظيم ﴾[1] .

وعن عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه أن رجلاً نادى النبي ﷺ ثلاثاً ، كلُّ ذلك يردُّ عليه : « لبَّيكَ لبَّيكَ »[2] .

---

(١) رواه ابن مردويه وأبو نعيم بسند ضعيف . اهـ من (شرح الزرقاني) ٤ : ٢٤٥

(٢) قال في (مجمع الزوائد) : رواه أبو يعلى في (الكبير) عن شيخه جبارة بن المغلس ، وثقه ابن نمير ، وضعفه الجمهور ، وبقية رجاله ثقات رجال الصحيح . اهـ ٩ : ٢٠

سيدنا محمد ﷺ
هو المثل الأكمل في الخَلْق والخُلُق

روى البخاري عن أنس رضي الله عنه أنه قال : (كان رسول الله ﷺ أحسنَ الناس وجهاً ، وأحسنهم خُلُقاً) .

فهو ﷺ أجمل خلق الله تعالى خَلْقاً ، وأكملهم خُلُقاً ، بل هو فيَّاض المكارم والكمالات على العالم .

ففي (مسند) أحمد وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ صالحَ الأخلاق » .

وروى الإمام مالك في الموطأ بلاغاً أنه ﷺ قال : « بُعِثتُ لأُتَمِّم مكارم الأخلاق » .

قال الإمام أبو القاسم الجنيد رضي الله عنه : وإنما كان خلُقُه عظيماً لأنه لم يكن له ﷺ هِمَّةٌ سوى الله تعالى .

فقد جمع ﷺ مكارم الأخلاق التي جاءت بها الأنبياء قبله ، وجاء بها كلِّها ، وزادهم كمالاً على الكمال ، وجمالاً فوق جمال .

ولقد أثنى الله تعالى على حبيبه سيدنا محمد ﷺ بعظيم خُلقه ، وكمال أدبه وفضله ، في التوراة والإنجيل وسائر الكتب الإلَهية ، كما أثنى عليه

ومدحه بعظيم خُلُقه ، وكمال أدبه وفضله ، في القرآن العظيم .

روى البخاري عن عطاء بن يسار قال : لقيتُ عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنهما ، فقلت : أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة .

فقال : (أجلْ إنه ﷺ لموصوفٌ في التوراة ببعض صفته في القرآن :

يا أَيُّها النبيُّ إنَّا أَرسلناكَ شاهداً ومبشِّراً ونذيراً ، وحِرْزاً للأمِّيِّين ، أنت عبدي ورسولي ، سمَّيتُك المتوكِّل ، ليس بفظٍّ ولا غَليظٍ ، ولا صَخَّاب[1] بالأسواق ، ولا يدفع السيئةَ بالسيئة ، ولكن يعفو ويغفر ، ولن يقبضَه الله تعالى حتى يُقيمَ به الملَّة العوجاء ، بأنْ يقولوا : لا إله إلَّا الله ، ويفتحَ به أعيُناً عُمياً ، وآذاناً صُمّاً ، وَقُلوباً غُلْفاً[2]) .

وعن وهب بن منبِّه : أوحى الله تعالى إلى نبيٍّ من بني إسرائيل ، يقال له شَعْياء ، أنْ قُم في بني إسرائيل فإني سأطلق لسانك بوحي ، فقام فقال :

(يا سماء اسمعي ، ويا أرض أنْصِتي ، فإن الله تعالى يريد أن يقضي شأناً ، ويدبِّر أمراً ، وهو مُنفِّذه :

إنَّه يريد أن يبعث أُمِّيّاً من الأُمِّيِّين ، ليس بِفظٍّ ولا غَليظٍ ، ولا صخَّابٍ في الأسواق .

---

(١) الصخب والسخب : الصياح واضطراب الأصوات للخصام .

(٢) أي : يفتح قلوباً مغشاة مغطاة بظلمتها ، فيفتحها بنور الإيمان الذي جاء به ﷺ .

لو يَمُر على السراج لم يطفئه من سكينتِه ، ولو يمشي على القَصَب واليابس لم يُسمَع من تحت قدميه .

أبعثه بشيراً ونذيراً ، لا يقول الخنا[1] ، أفتحُ به أعيناً عُمياً ، وآذاناً صُمّاً ، وقُلوباً غُلفاً .

وأُسدِّده بكلِّ أمر جميل ، وأَهَبُ له كلَّ خُلُقٍ كريم .

وأجعل السكينةَ لباسَه ، والبِرَّ شعارَه ،والتقوى ضميرَه ، والحكمةَ منطقَه ، والصدقَ والوفاء طبيعتَه ، والعفوَ والمعروفَ خُلُقَه ، والحَقَّ شريعتَه ، والعدلَ سيرتَه ، والهدى إمامَه ، والإسلامَ ملَّتَه ، وأحمد اسمَه .

وأُعَرِّفُ به بعد النكرة ، وأُكَثِّرُ به بعد القلَّة ، وأُغْني به بعد العَيْلَة ، وأجمعُ به بعد الفُرقة ، وأُؤلِّف به بين أمم متفرقة ، وقلوبٍ مختلفَة ، وأهواءٍ مشتَّتة ، وأستنقذ به فِئاماً من الناس عظيماً من الهلَكَة .

وأجعل أُمَّتَه خيرَ أُمَّةٍ أُخرجت للناس : يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، موحِّدين مؤمنين ، مخْلصين ، مصدِّقين بما جاءت به الرسُل[2]) .

---

(١) الخنا : هو الفحش في القول .

(٢) أورده الحافظ ابن كثير في (تفسيره) ، وعزاه لابن أبي حاتم ، وأورده القسطلاني في (المواهب) وعزاه لابن إسحاق .

كمال لطفه ولين عريكته ﷺ

قال الله تعالى : ﴿ فبِما رحمةٍ منَ الله لنْتَ لهُم ولوْ كنتَ فظّاً غليظَ القلبِ لانْفَضُّوا منْ حَولِك ﴾ الآية .

كان ﷺ ليِّنَ الجانب ، سهلَ الخُلُق ، حسنَ المعاشرة مع الأهل والأصحاب وسائر الناس ، يعطي جليسَه حظاً كبيراً من الانبساط والملاطفة وحسن المقابلة .

روى الترمذي عن عليٍّ رضي الله عنه أنه كان إذا وصف رسُول الله ﷺ يقول : (أجود الناس صدراً ، وأصدقهم لهجةً ، وألينهم عريكة ، وأكرمهم عِشْرَة . .) الحديث .

وروى البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال : (لم يكن النبي ﷺ فاحِشاً ولا مُتفحِّشاً ، وكان يقول : « إنَّ من خيارِكم أحاسنكم أخلاقاً ») .

ومن لطفه ﷺ أنه ما كان يقابل أحداً بما يكره :

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : (لم يكن النبي ﷺ سبَّاباً ، ولا فاحشاً ، ولا لَعَّاناً ، وكان يقول لأحدِنا عند المعتَبة : « مالَهُ تَرِبَتْ جبينُه ! ») .

بل كان ﷺ أشدَّ الناس لطفاً :

روى أبو نعيم في (الدلائل) عن أنس رضي الله عنه قال : (كان رسول الله ﷺ أشدَّ النّاسِ لطفاً ، والله ما كان يمتنعُ في غداةٍ باردةٍ من عبدٍ ولا أمَة تأتيه بالماء ، فيغسل وجهه ﷺ بالماءِ وذراعيه .

وما سأله سائلٌ قط إلَّا أصغى إليه ، فلا ينصرفُ ﷺ حتى يكون هو ـ أي : السائل ـ الذي ينصرف عنه .

وما تناول أحدٌ يده قطُّ إلَّا ناوله إيّاها ، فلا ينزِعُ ﷺ يدَه حتى يكونَ الرجل هو الذي ينزعها منه) .

انبساطه ﷺ مع الأهل وذوي القربى

روى مسلم في (صحيحه) عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أنه قال : استأذن عمر رضي الله عنه على رسول الله ﷺ وعنده نساء [1] من قريش يكلِّمْنَه ويستكثرنَه [2] ، عاليةً أصواتُهنَّ ـ فلمَّا استأذنَ عمر قُمْن يبتدِرْنَ الحجاب [3] ، فأذن له رسُول الله ﷺ فدخل ، ورسول الله ﷺ يضحك ، فقال عمر : أضحكَ الله سنك يا رسول الله [4] ؟ .

(١) قال الحافظ ابن حجر : أي : نسوة من أزواجه ﷺ ، ويحتمل أن يكون معهن غيرهن ـ أي : من أقاربه المحارم .

(٢) قال الإمام النووي في شرحه : قال العلماء : معنى يستكثرنه : يطلبن كثيراً من كلامه وجوابه بحوائجهن وفتاويهن . وقوله : (عالية أصواتهن) قال القاضي عياض : يحتمل أن هذا قبل النهي عن رفع الصوت فوق صوته ﷺ ، ويحتمل أن علو أصواتهن إنما كان باجتماعهن ، لا أن كل واحدة بانفرادها صوتها أعلى من صوته ﷺ . اهـ .

(٣) أي : لأن عمر هو بالنسبة إليهن أجنبي ، فيجب الاحتجاب منه ، وفي هذا دليل مشروعية حجاب المرأة بالنسبة للأجنبي عنها حتى الوجه ؛ فإنه يجب ستره أيضاً .

(٤) أي : أدام الله فرحك الموجب لبروز سنك وظهور نورك ، ولكن لا بد له من =

فقال ﷺ : « عجبتُ من هؤلاءِ اللَّاتي كنَّ عندي ، فلمّا سمعْنَ صوتك ابتدرن الحجاب » .

فقال عمر : فأنت يا رسول الله أحَقُّ أنْ يهَبْنَ ، ثم قال عمر : أيْ عَدُوَّاتِ أنفُسهِنَّ أتَهَبْنَني ولا تَهبنَ رسول الله ﷺ ؟!

قلن : نعم أنت أغلظُ وأفَظُّ [1] .

فقال ﷺ : « والذي نفسي بيده ما لَقيَكَ الشيطانُ قطُّ سالِكاً فَجّاً إلَّا وسلكَ فَجّاً غيرَ فَجِّك » [2] .

كريم عشرته وحسن معاملته ﷺ مع زوجاته وسائر أهله

كان رسول الله ﷺ كريمَ العِشْرة مع زوجاتِه وسائر أهله ، يلاطفُهنَّ ويمازحُهنَّ ، ويعاملُهنَّ بالودِّ والإحسان .

روى الترمذي عن عائشة رضي الله عنها قالتْ : قال رسول الله ﷺ : « خيرُكمْ خيركُم لأهلِه ، وأنا خيركُم لأهلي » وزاد ابن عساكر في روايته : « ما أَكْرَمَ النِّساءَ إلَّا كَريم ، ولا أَهانهُنَّ إلَّا لَئيم » .

سبب ، وظهور أمر عجب ، فأطلعني عليه ، وشرفني بالإشارة إليه . اهـ من (المرقاة) .

(١) أي : أنت يا عمر كثير الغلظة والفظاظة ، بخلافه ﷺ ، فإنه لين الجانب كثير الرفق . قال الإمام النووي : قال العلماء : وليست لفظة (أفعل) هنا للمفاضلة ، بل هي بمعنى فظ غليظ . اهـ .

(٢) الفج : هو الطريق الواسع ، ويطلق على المكان بين الجبلين .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « إنَّ مِن أكمَلِ المؤمنين إيماناً أحسنَهم خُلُقاً ، وألطفهم بأهلِه » رواه الترمذي .

وروى الحاكم ـ وقال صحيح الإسناد ـ عن ابن عباس أنَّ النبي ﷺ قال : « خيرُكم خيرُكم للنساء » .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أكملُ المؤمنينَ إيماناً : أحسنُهم خُلُقاً ، وخيارُكُمْ خياركم لنسائهم » رواه الترمذي وقال : حسنٌ صحيح .

وروى ابن سعد عن عائشة رضي الله عنها أنها سُئلت : كيف كان رسول الله ﷺ إذا خلا في بيتِه ؟

فقالت : (كان ألينَ الناس ، بسَّاماً ضحّاكاً ، لم يُرَ قَطُّ مادّاً رجليه بين أصحابِه ﷺ) ـ وذلك لعظيمِ أدبِه وكمالِ وقاره ـ .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : خرجتُ مع رسول الله ﷺ في بعضِ أسفاره وأنا جارية ـ أي : حديثة السن ـ لم أحمِل اللحم ولم أبْدُن ، فقال للناس : « تقدَّموا » فتقدَّموا .

ثم قال لعائشة رضي الله عنها : « تعاليْ حتى أُسابقَك » فسابقْتُه ﷺ فسبقْته .

فسكت عني ، حتى حملتُ اللحم وبَدُنْتُ وسمنْتُ ، فخرجتُ معه ﷺ في بعض أسفاره ، فقال ﷺ : « تقدَّموا » فتقدَّموا ؛ ثم قال : « تعاليْ أُسابِقْكِ » .

قالت عائشة رضي الله عنها : فسبقني ، فجعل يضحك ﷺ ويقول : « هذه بتلك »[1] رواه أبو داود وأحمد .

وكان ﷺ يعاونُ أهلَه في الأمور البيتيّة :

روى البخاري عن الأسود قال : سألتُ عائشة رضي الله عنها : ما كان النبي يصنع في أهله ؟

فقالت : كان في مهنة أهله ، فإذا حضرت الصلاة قام إلى الصلاة .

وفي هذا تنبيه للأمة أن يسيروا على هذا الكمال ، ولا يكونوا من جبابرة الرجال ، خاصة مع الأهل والعيال .

ولقد أوصى رسول الله ﷺ بالنساءِ خيراً في مناسبات متعددة ، وفي مجتمعات خاصة وعامة .

ففي (الصَّحيحين) عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النبي ﷺ قال : « استوصوا بالنساء . . » الحديث .

وفي (سنن الترمذي) وابن ماجه أن النبي ﷺ قال في خطبته يوم حجة الوداع : « ألا فاستوصوا بالنساء خيراً . . » الحديث .

---

(١) يعني أني سبقتك في هذه المرة الثانية ، في مقابل سبقتك تلك المرة الأولى ، وأراد بذلك أن لا تحزن .

استماعه ﷺ إلى حديث الزوجات بالملح والفكاهات تأنيساً لهن وملاطفة

روى الشيخان والترمذي ـ واللفظ له ـ عن عائشة رضي الله عنها قالت : جلستْ إحدى عشْرة امرأة فتعاهدْنَ وتعاقَدْنَ أن لا يكتُمنَ من أخبار أزواجهنَّ شيئاً[1] .

فقالت الأولى : زوجي لحم جملٍ غَثٍّ ، على رأس جبل وعر ، لا سهل فيُرتقى ، ولا سمين فَيُنْتَقَل[2] .

قالت الثانية : زوجي لا أَبُثُّ خبرَه ، إني أخافُ أن لا أذَرَه ، إنْ أَذكرْه أَذكرْ عُجَرَه وبُجَرَه[3] .

(١) أي : على أن لا يخفين شيئاً من أخبار أزواجهن : مدحاً أو ذماً ، بل يذكرن جميع ذلك .

(٢) تعني : أنها تشبه زوجها في ردائته بلحم جمل غث ـ أي : شديد الهزال ـ كائن على رأس جبل وعر ـ أي : صعب الوصول إليه ـ والمقصود : أن زوجها متكبر سيء الخلق ، لا يوصل إليه إلا بمشقة ، ولا ينفع زوجته في عشرة ولا في غيرها .

(٣) أي : لا أنشر ولا أظهر خبره ـ ثم عللت ذلك بقولها : إني أخاف أن لا أذره ـ أي : إني أخاف أن لا أتركه ـ يعني : أنها تخاف من ذكره أن يطلقها ، =

قالت الثالثة : زوجي العَشَنَّق[1] ، إنْ أَنطِقْ أُطَلَّقْ ، وإنْ أَسكُتْ أُعلَّق .

قالت الرابعة : زوجي كليل تِهامة[2] ، لا حَرٌّ ولا قَرٌّ ، ولا مخافة ولا سآمة .

قالت الخامسة : زوجي إنْ دخلَ فَهِد ، وإنْ خرج أَسِد ، وَلا يَسأَلُ عمَّا عهِد[3] .

قالت السادسة : زوجي إن أَكلَ لَفَّ ، وإن شربَ اشتفَّ ، وإن اضطجع التفَّ ، ولا يولجُ الكَفَّ ليعلم البثَّ[4] .

قالت السابعة : زوجي عَيَاياء[5] ـ أو غياياء ـ طباقاء ، كلُّ داءٍ له

= ويترتب على ذلك الشقاق والفراق ، وضياع الأطفال ، وقيل : المعنى إني أخاف أن لا أذره بعد الشروع في خبره ، والمراد بالعجر والبجر : عيوبه الظاهرة والخفية .

(١) هو السيء الخلق ، السفيه .

(٢) تهامة : هي مكة المكرمة وما حولها من الأغوار ، والمقصود من هذا التشبيه أن تصف زوجها بكمال الاعتدال في أموره ، وسهولة أخلاقه ـ كما في (حاشية البيجوري) .

(٣) تعني أنه كالأسد في الحروب ، في قوته وشجاعته ، ولا يسأل عما عهد ـ أي : عما علم في بيته من الطعام والشراب وغيرهما ؛ لجوده وكرمه (انظر حاشية البيجوري) .

(٤) أي : إن أكل أو شرب لم يبق بقية لعياله ، ولا يتفقد حال أهله إذا مرضن أو اشتكين ـ وقيل غير ذلك . كما في (حاشية البيجوري) .

(٥) عياياء : أي : عاجز عن إحكام أموره وتدبيرها ، غياياء : ذو ضلالة وغي ، طباقاء : أحمق ، إذا اجتمعت عليه الأمور ، فلا يهتدي لها .

داء ، شجَّكِ أو فلَّك ، أو جمع كلا لك [1] .

قالت الثامنة : زوجي المسُّ مسُّ أرنب ، والريح ريحُ زَرْنَب [2]

قالت التاسعة : زوجي رفيعُ العماد [3] ، طويلُ النِّجاد [4] ، عظيمُ الرماد [5] ، قريبُ البيتِ من الناد [6] .

قالت العاشرة : زوجي مالكٌ ، وما مالك ؟ مالك خير من ذلك : له إبل كثيرات المبارك ، قليلات المسارح ، إذا سمعنَ صوتَ المِزْهَر ، أيْقَنَّ أنهنَّ هوالك [7] .

قالت الحادية عشرة : زوجي أبو زرع ، وما أبو زرع ؟ أناسَ من

---

(١) أي : إن ضربك جرحك ، أو فلك : أي : كسرك ، أو جمعها لك .

(٢) فهي تمدحه بأن مسه كمس الأرنب في اللين والنعومة ، وبأنه طيب الرائحة كريح الزرنب : وهو نوع نبات رائحته طيبة .

(٣) كناية عن علو حسبه وشرف نسبه .

(٤) تصفه بطول القامة ، والنجاد : حمائل السيف ، فالطويل يحتاج إلى طول حمائل سيفه ـ والعرب تمدح بذلك .

(٥) تصفه بالجود ، وكثرة الضيافة من اللحوم والخبز ، فيكثر وقوده فيكثر رماده .

(٦) النادي والندي : مجلس القوم ، فهي تصف زوجها بالكرم ، لأنه لا يقرب البيت من النادي إلا من صفته الكرم ، كما في شرح النووي .

(٧) تعني أن له إبلا كثيراً ، فهي باركة بفنائه ، لا يوجهها تسرح إلا قليلا قدر الضرورة ، فإذا نزل به الضيفان كانت الإبل حاضرة ، فيقريهم من ألبانها ولحومها ، ويضرب لهم المزهر والمعازف ، فإذا سمعت الإبل أصوات المزهر علمت أنه قد جاءه الضيفان وأنهن منحورات هوالك . اهـ من شرح النووي .

حُليّ أُذُنيَّ [1] ، وملأ من شحمٍ عضديَّ [2] ، وبجَّحني فَبَجِحتْ إليَّ نفسي [3] ، وجدني في أهل غُنيمَةٍ بِشَقٍّ ، فجعلني في أهل صهيل وأطيط ، ودائس ومُنَقٍّ [4] ، فعنده أقول فلا أُقَبَّح ، وأرقد فأتصبَّح ، وأشربُ فأتقمَّح [5] .

أمُّ أبي زرع ، فما أم أبي زرع ؟ عكومها رداح [6] ، وبيتُها فَساح .

ابنُ أبي زرع ، فما ابن أبي زرع ؟ مَضجَعه كمَسلِّ شطْبة ، وتُشبعه ذراع الجَفْرة [7] .

---

(١) قال الإمام النووي : ومعناه حلاني قرطة وشنوفاً ، فهي تنوس ـ أي : تتحرك ـ لكثرتها .

(٢) المعنى : أنها سمنت عنده وامتلأت شحماً .

(٣) أي : فرحني ففرحت ، وعظمني فعظمت عندي نفسي .

(٤) الصهيل : صوت الخيل ، والأطيط : صوت الإبل ، والمعنى : أنه وجدها في أهل غنم قليلة ، فهم في ضيق عيش ، فحملها إلى أهل خيل وإبل وبقر ، تدوس الزرع في بيدره لتخرج الحب من السنبل . ومنق : بفتح النون وتشديد القاف ، وهو الذي ينقي الحب وينظفه من التبن بعد الدوس ، وروي منِق بكسر النون من نقت الدجاجة إذا صوتت ـ كما في (حاشية البيجوري على الشمائل) .

(٥) والمعنى : تشرب حتى تروى ، وتدع الشراب من شدة الري .

(٦) العكوم : الأعدال ، جمع عكم ، والرداح : العظيمة ـ والمعنى : أن أعدالها وأوعية طعامها عظيمة ثقيلة .

(٧) قال الإمام النووي : الجفرة بفتح الجيم ، الأنثى من أولاد المعز ، وقيل من الضأن ، وهي ما بلغت أربعة أشهر وفصلت عن أمها ، والمراد : أنه قليل الأكل ـ والعرب تمدح به . اهـ .

بنت أبي زرع ، فما بنت أبي زرع ؟ طوع أبيها وطوع أُمِّهَا ، وملء كسائها ، وغيظ جارتها .

جارية أبي زرع ، فما جارية أبي زرع ؟ لا تبثُّ حديثنا تبثيثاً[1] ، ولا تَنْقُثُ ميرتنا[2] تنقيثاً ، ولا تملأُ بيتنا تعشيشاً[3] .

قالت أم زرع : خرج أبو زرع والأوطاب تُمْخَض[4] ، فلقي امرأة معها ولدان لها كالفَهْدين ، يلعبان من تحت خَصْرها برمانتين ، فطلَّقني ونكحها .

فنكحتُ بعده رجلاً سَرِيّاً[5] ، ركب شَرِيّاً[6] ، وأخذ خَطِّيّاً[7] ، وأراح عليَّ نَعَماً ثريّاً[8] ، وأعطاني من كل رائحة زوجاً[9] ، وقال : كلي أُمَّ زرعٍ ، وميري أهلكِ ، فلو جمعتُ كلَّ شيءٍ أعطانيه ما بَلَغَ أَصغرَ آنية أبي زرعٍ .

---

(١) أي : لا تشيع حديثنا ، بل تكتم سرّنا وحديثنا كله .

(٢) الميرة هي الطعام المجلوب ـ ومعناه : لا تفسد وتفرقه ، ولا تذهب به فهي أمينة .

(٣) والمعنى : أنها مصلحة للبيت معتنية بتنظيفه .

(٤) الأوطاب : أسقية اللبن ، وتمخض : تحرك لاستخراج الزبد من اللبن .

(٥) أي : من سراة الناس وأشرافهم .

(٦) أي : فرساً يستشري في سيره ، ويمضي بلا فتور .

(٧) الخطي : الرمح .

(٨) أي : كثيرة ، من : الثروة في المال ، وهي كثرته .

(٩) أي : من كل ما يروح من الإبل والبقر والغنم ، أعطاها زوجاً : أي : اثنين ، أو صنفاً كثيراً .

قالت عائشة رضي الله عنها : فقال رسول الله ﷺ : « كنتُ لكِ كأبي زرعٍ لأم زرعٍ » .

وجاء في رواية الهيثم بن عدي : « كنتُ لكِ كأبي زرعٍ لأم زرعٍ ، في الألفة والوفاء ؛ لا في الفرقة والجلاء » .

وزاد الطبراني في روايته : « إلاَّ أنه طلَّقها ، وإني لا أُطَلِّقُكِ » .

وزاد النسائي والطبراني : قالت عائشة رضي الله عنها : (يا رسول الله ﷺ بل أنتَ خيرٌ من أبي زرعٍ) .

وفي رواية النسائي : أنه ﷺ هو الذي ابتدأ الحديث ، فقال لعائشة رضي الله عنها : « كنتُ لكِ كأبي زرعٍ لأمِّ زرعٍ » .

فقالت رضي الله عنها : بأبي أنتَ وأمي يا رسول الله ، وَمَن كانَ أبو زرعٍ ؟

فقال ﷺ : « اجتمع نساء . . . » إلى تمام الحديث .

فانظر يا أخي في حسن عِشْرته ﷺ ، وكريمِ خُلُقه مع أهله ، حيث أصغى إلى حديث عائشة رضي الله عنها ، وهي تحدثه عن قصةٍ وقعت في الجاهلية ، من نساءٍ اجتمعْن وتعاقدْن على أن تخبر كلُّ واحدةٍ منهنَّ عن مواقف زوجِها معها ، من حيثُ الأخلاقُ والمعاملةُ والمعاشرة! .

وقد قال العلماءُ : يؤخذ من هذا الحديث :

١ ـ ندب حسن المعاشرة للأهل .

٢ ـ وحِلُّ السمر في خيرٍ ، كملاطفة زوجته ، وإيناس ضيفه .

٣ ـ وجواز ذكر المجهول عند المتكلم والسامع بما يكره ـ فإنه ليس

غيبة ، وغاية الأمر أنَّ عائشة رضي الله عنها ذكرت نساء مجهولات ، ذكر بعضهنَّ عيوبَ أزواج مجهولين ، لا يُعرفون بأعيانهم ، ولا بأسمائهم ، ومثل هذا لا يعدُّ غيبة ـ كما أوضح ذلك الإمام النووي في شرحِه .

وفي (التراتيب الإدارية) : أخذ الأئمة من هذا الحديث جواز التحدُّث عن الأمم الماضية ، والأجيال البائدة ؛ وضرب الأمثال بهم ، لأنَّ في سيرهم اعتباراً للمعتبر ، واستبصاراً للمستبصر ، واستخراجَ الفائدة للباحث المستكثر ، فإنَّ في هذا الحديث خصوصاً إذا حُدِّث به النساء منفعةً في الحضِّ على الوفاء للبعولة .

قال القاضي عياض : وفيه ـ أي : في هذا الحديث ـ من الفقه : التحدُّثُ بملح الأخبار ، وطُرَف الحكايات ، تسليةً للنفس[1] ، وجلاءً للقلب .

وهكذا ترجم أبو عيسى الترمذي عليه :

باب ما جاء في كلام رسول الله ﷺ في السمر .

ثمَّ قال ـ عياض ـ :

ويُروى عن أمير المؤمنين علي كرَّم الله وجهه أنه قال : (سلُّوا هذه النفوس ساعةً بعد ساعة ، فإنها تصدأُ كما يصدأُ الحديد) .

وقال أيضاً : (القلب إذا أُكره عَمِيَ)

ويروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان يقول : (حَمِّضوا ـ أي : إذا مللتم من الفقه فخذوا في الأشعار ، وأخبار العرب) .

(١) كما دل عليه هذا الحديث من تسلية نفس السيدة عائشة رضي الله عنها .

قال : وهذا كله ما لم يكن دائماً متصلاً ، وأما أن يكون ذلك عادةَ الرجل حتى يُعرَفَ به ، ويتخذه دَيْدَناً ويُضحكَ به الناس فهذا مذموم غير محمودٍ شرعاً .

قال : وللاهتمام بفوائد هذا الحديث وكثرة ما استنبط منه ، أفرده بالتصنيف كثير من العلماء المتقدمين ، ثمَّ ذكر أسماءهم . اهـ باختصار .

كريم عشرته ﷺ مع الناس كلهم

جاء في (الصحيحين) عن أنس رضي لله عنه قال : (خدمتُ النبيَّ ﷺ ـ وفي رواية أحمد : في السفر والحضر ـ عَشْرَ سنين ـ وفي رواية لمسلم : تسع سنين ـ فما قال لي أُفٍّ قط ، ولا قال لشيءٍ صنعتُه : لِمَ صنعتَه ؟ ولا لشيءٍ تركتُهُ : لِمَ تركتَه) .

وفي رواية أبي نعيم : قال أنس : (فما سبَّني ﷺ قط ، ولا ضربني من ضربة ، ولا انتهرني ، ولا عبسَ في وجهي ، ولا أمَر في أمر فتوانيتُ فيه فعاتبني عليه ، فإن عاتبني عليه أحدٌ من أهله قال : « دعوه ، لو قُدِّرَ شيءٌ كان ») .

أدبه الرفيع مع مَنْ يحدثه ﷺ

كان ﷺ يُصغي كلَّ الإصغاء إلى مَنْ يحدِّثه ، أو يسأله ، ويقبل عليه ويلاطفه :

روى أبو داود عن أنس رضي الله عنه قال : (ما رأيتُ رجلاً التقم أُذُنَ النبي ﷺ ـ يعني يكلِّمه سراً ـ فيُنحّي رأسه عنه ، حتى يكون الرجلُ هو الذي يُنحِّي رأسه ، وما رأيتُ رسول الله ﷺ أخذ بيده رجل فترك يده ، حتى يكونَ الرجلُ هو الذي يَدَعُ يدَه) .

وفي (صحيح) مسلم عن أبي قتادة في حديث نومهم عن صلاة الفجر ، وقد عطِشوا وتكابُّوا على الماء فقال رسول الله : « أحْسِنوا المَلأ[1] ، كلُّكم سيرْوى » ففعلوا ـ.

فجعل رسول الله ﷺ يصبُّ .

قال أبو قتادة : وأنا أسقيهم حتى ما بقي غيري وغيرُ رسول الله ﷺ ؛ فقال لي : « اشرب » فقلتُ : لا أشربُ حتى تشربَ يا رسول الله ، فقال : « إنَّ ساقيَ القوم آخرهم شرباً » قال : فشربتُ وشرب رسول لله ﷺ .

حسن لقائه وكريم إقباله على جلسائه ﷺ

عن أبي هريرة رضي الله عنه : (أن رسول الله ﷺ لم يكن أحد يأخذ بيده فينتزع يده حتى يكون الرجل هو الذي يرسله .

ولم يكن يُرى ركبتيه ـ أو ركبته ـ خارجاً عن ركبة جليسه .

ولم يكن أحد يصافحه إلاَّ أقبل عليه بوجهه ، ثم لم يصرفه عنه حتى يفرُغَ من كلامه[2]) .

(١) يقال : ما أحسن ملأ فلان ، أي : خلقه وعشرته ، قال ابن الأثير بعد ضبطه ، الملأ بفتح الميم واللام والهمزة ، وأكثر رواة الحديث يقرؤونها : أحسنوا الملء : ـ بكسر الميم وسكون اللام ـ من : ملأ الإناء ـ وليس بشيء .

(٢) رواه البزار والطبراني بإسناد حسن ، كما في (مجمع الزوائد) ٩ : ١٥ ورواه ابن سعد في (الطبقات) وابن ماجه ؛ كما في (غذاء الألباب) .

وعن عمرو بن العاص قال : (كان رسول ﷺ يُقْبل بوجهه وحديثه على شرِّ القوم ، يتألَّفه بذلك ، وكان يقبل بوجهه وحديثه عليَّ حتى ظننت أني خير القوم فقلتُ : يا رسول الله أنا خير أم أبو بكر ؟

فقال : « أبو بكر » .

قلتُ يا رسول الله أنا خير أم عمر ؟ قال : « عمر »

قلتُ : يا رسول الله أنا خير أم عثمان ؟ قال : « عثمان » .

فلمَّا سألتُ رسول الله ﷺ صَدَّ عني ، فودِدتُ أني لم أكن سألتُه[1] .

وكان ﷺ إذاَ بعث بَعْثاً قال : « تألَّفُوا النَّاسَ » الحديث[2] .

بسامته وطلاقة وجهه مع الناس ﷺ

كان رسول الله ﷺ أطلقَ الناس وجهاً ، وأكثرهم تبسماً ، وأحسنَهم بِشْراً .

روى البزار بإسناد حسن عن جابر رضي الله عنه قال : (كان رسول الله ﷺ إذا أتاه الوحي ، أو وعظ قلتَ : نذير قومٍ أتاهم العذاب ، فإذا ذهب عنه ذلك رأيتَه أطلقَ الناس وجهاً ، وأكثرَهم ضحكاً ، وأحسنهم بِشراً[3]) .

(١) رواه الترمذي في (الشمائل) ورواه الطبراني وإسناده حسن ، كما في (مجمع الزوائد) . قال : وفي الصحيح بعضه بغير سياقه اهـ ٩ : ١٥ .

(٢) (الإصابة) ٣ : ١٥٢ .

(٣) كذا في (مجمع الزوائد) ٩ : ١٧

وتقدَّم قولُ عائشة رضي الله عنها لما سُئلت : كيفَ كان رسولُ الله ﷺ إذا خلا في بيتِه ؟

فقالت : (كان ألينَ الناس ، بسَّاماً ضحَّاكاً ، لم يُرَ قطُّ مادّاً رجلَيْه بين أصحابه) .

ردُّه ﷺ التحيةَ بأحسنَ منها

عن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال : (جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : السلام عليك يا رسول الله .

فقال : « وعليك ورحمة الله » .

ثمَّ أتى آخر فقال : السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله .

فقال ﷺ : « وعليك ورحمة الله وبركاته »[1] الحديث .

ترحيبه ﷺ بالقادم عليه

عن علي كرم الله وجهه قال : استأذن عمار على النبي ﷺ فعرف صوته فقال : « مرحباً بالطيِّبِ المُطيَّب »[2] .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : (أقبَلتْ فاطمة تمشي كأنَّ مِشْيتَها مِشْيَةُ النبي ﷺ ، فقال ﷺ : « مرحباً بابنتي » ثم أجلسها عن يمينه أو شماله)[3]

(١) قال في (الدر المنثور) : رواه أحمد في (الزهد) ، وابن جرير وابن المنذر ، وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه بسند حسن .

(٢) رواه الترمذي وابن ماجه والبخاري في (الأدب المفرد) .

(٣) رواه البخاري في (الأدب المفرد) .

وفي (الصحيحين) عن ابن عباس رضي الله عنهما لمَّا قدم وفدُ عبد القيس على النبي ﷺ قال لهم : « مرحباً بالوفد ، غيرَ خزايا ولاندامى . . » الحديث .

وقال لعكرمة بن أبي جهل : « مرحباً بالراكب المهاجر » .

وقالت أم هانىء : ذهبتُ إلى النبي ﷺ وهو يغتسل ، فسلمتُ عليه ، فقال : « مَن هذه ؟ » قلتُ : أم هانىء ، فقال : « مرحباً بأم هانىء » .

سؤاله ﷺ عن حال أصحابه

بقوله : كيف أنت ؟ وكيف أصبحت

أخرج الإمام أحمد من حديث أنس رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ كان يلقى الرجل فيقول : « يا فلان كيف أنت ؟ » فيقول : بخير أحمد الله .

فيقول له النبي ﷺ : « جعلك الله بخير »[1]

وروى أبو يعلى بإسنادٍ حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال له : « كيف أصبحت ؟ » .

فقال : بخيرٍ من قومٍ لم يعودوا مريضاً ، ولم يشهدوا جنازة ! .

وأخرج الطبراني بإسناد حسن عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ لرجل : « كيف أصبحت يا فلان ؟ » .

(١) قال في (مجمع الزوائد) : رجاله رجال الصحيح غير مؤمل بن إسماعيل ، وهو ثقة ، وفيه ضعف . اهـ .

فقال : أحمد الله إليك يا رسول الله .

فقال له ﷺ : « ذلك الذي أردته منك » .

إكرامه ﷺ كرام القوم

كان رسول ﷺ يكرمُ كريم القوم ويقول : « إذا أتاكم كريمُ قومٍ فأكرموه »[1] .

روى الطبراني عن جرير بن عبد الله البَجَلي رضي الله عنه قال : لَمَّا بُعث النبيُّ ﷺ أَتيْتُه فقال : « ما جاء بك ؟ » .

قلتُ : جئتُ لأسلم .

فألقى إليَّ كساءَه وقال : « إذا أتاكم كريمُ قومٍ فأكرموه » .

وفي رواية البزار : أتيتُ النبيَّ ﷺ فبسط إليَّ رداءَه وقال : « اجلسْ على هذا » .

فقلتُ : أكرمك الله كما أكرمتَني . . وذكر الحديث .

وروى الحاكم بإسناده أن النبيَّ ﷺ دخل بعض بيوته ، فدخل عليه أصحابُه ، حتى غصَّ المجلس بأهله وامتلأ ، فجاء جرير البجلي فلم يجد مكاناً ، فقعد على الباب .

فنزع رسول الله ﷺ رداءَه وألقاه إليه ، فأخذه جرير فألقاه على وجهه وجعل يقبِّله ويبكي ، ورمى به إلى النبيَّ ﷺ وقال : (ما كنتُ لأجلس على ثوبك ، أكرمك الله كما أكرمتَني) .

(١) قال في (المقاصد الحسنة) : رواه ابن ماجه بسند ضعيف عن ابن عمر مرفوعاً ، ورواه أبو داود عن الشعبي مرسلا بسند صحيح ، كما في (كشف الخفاء) وغيره .

فنظر النبيُّ ﷺ يميناً وشمالاً وقال : « إذا أتاكمْ كريم قومٍ فأكرموه »[1] .

وعن عدي بن حاتم أنه لَمَّا دخل على النبيِّ ﷺ ألقى إليه وسادةً .

فقال عدي : (أشهدُ أنك لا تبغي علوّاً في الأرض ولا فساداً) .

وأسلم عديّ بن حاتم ، ثم قال رسول الله ﷺ : « إذا أتاكُم كريمُ قومٍ فأكرموه »[2] .

وعن عبد الرحمن بن عبدٍ قال : قدمتُ على النبيِّ ﷺ في مائة رجلٍ منْ قومي فذكر حديثاً فيه : أنَّ النبيَّ ﷺ أكرمه وأجلسه وكساه رداءَه ، ودفع إليه عصاه ، وأنه أسلم .

فقال له رجل من جلسائه : إنا نراك يا رسول الله أكرمتَ هذا الرجل ؟

فقال ﷺ : « إن هذا شريف قومه ، وإذا أتاكم شريفُ قومٍ فأكرموه »[3] .

ويؤيد هذا ما رواه ابن عمر وأبو هريرة في حديث : « وإذا كانت عندك كريمةُ قومٍ فأكرِمْها »[4] .

(١) وبتعدد هذه الطرق يتقوى الحديث ، وإن كان في مفرداتها ضعف ـ كما في (المقاصد الحسنة) .

(٢) رواه العسكري بسند ضعيف ، كما في (المقاصد الحسنة ، وكشف الخفاء) .

(٣) عزاه في (المقاصد) إلى الدولابي .

(٤) انظر (كشف الخفاء) ، وفي هذه الأحاديث تنبيه للأزواج أن يحتفظوا بكرامة =

ومِن ذلك : إكرامه ﷺ لأمير وفد عبد القيس وإجلاسُه عن يمينه ﷺ وأمرُه ﷺ بإكرام الوفد :

فعن شهاب بن عباد أنه سمع بعضَ وفد عبد القيس وهم يقولون :

قدِمنا على رسول الله ﷺ فاشتدَّ فرحهُم ـ أي : الصحابة ـ فلما انتهينا إلى القوم أوسعوا لنا ، فقعدنا ، فرحَّبَ بنا النبي ﷺ ودعا لنا ، ثم نظر إلينا فقال :

« مَنْ سيدُكمْ وزعيمُكم ؟ » .

فأشرنا جميعاً إلى المنذر بن عائذ .

فقال النبي ﷺ : « أهذا الأشجُّ ؟ » .

قلنا : نعم يا رسول الله ـ فتخلَّف بعد القوم فعقل رواحلهم وضمَّ متاعَهم ، ثمَّ أخرج عيبته ـ أي : ما يوضع فيه المتاع ـ فألقى عنه ثياب السفر ولبس مِن صالح ثيابه ، ثم أقبل على النبي ﷺ وقد بسط النبي ﷺ رجله واتكأ ، فلما دنا منه الأشجُّ أوسع القومُ له وقالوا : ههنا يا أشجّ .

فقال النبي ﷺ واستوى قاعداً وقبض رجله : « ههنا يا أشجُّ » فقعد عن يمين رسول الله ﷺ ـ فرحَّبَ به وألطفه ، وسأله عن بلادهم ، وسمى له ﷺ قريةً قرية : الصفا والمشقر وغير ذلك من قرى هَجَر .

= زوجاتهن ، وعلى الأخص بنات الكرام ، وتقدم الحديث الذي رواه ابن عساكر عنه ﷺ قال : « ما أكرم النساء إلا كريم ، ولا أهانهن إلا لئيم » .

فقال الأشج : بأبي أنت وأمي يا رسول الله لأنت أعلم بأسماء بلادنا منا !

فقال ﷺ : « إني وطئتُ بلادكم وفُسح لي فيها » .

قال : ثم أقبل ﷺ على الأنصار فقال : « يا معشر الأنصار أكرموا إخوانَكم فإنهم أَشباهُكم في الإسلام ، أشبه شيءٍ أشعاراً وأبشاراً ، أسلموا طائعين غير مكرَهين ولا موتورين ـ أي : مصابين بمصيبة ـ إذْ أبى قومٌ أن يُسلموا حتى قُتلوا » .

قال فلمّا أصبحوا قال ﷺ : « كيف رأيتم كرامةَ إخوانكم لكم وضيافتَهم إياكم ؟ » .

قالوا : خير إخوان : ألانوا فُرُشَنا ، وأَطابوا مطعمَنا ، وباتوا وأصبحوا يعلموننا كتابَ ربِّنا تباركَ وتعالى ، وسنةَ نبيِّنا ﷺ ـ فأعجب النبي ﷺ وفرح .

قال الحافظ المنذري : هذا الحديث بطوله رواه أحمد بإسناد صحيح . اهـ .

وفي هذا ينجلي لك كريم طبعه ﷺ ، وطيبُ نفسه ، وكمال خصلته ، وحسنُ طويَّته ﷺ .

فإنَّ النفوس اللئيمة في طبعها تُحبُّ أن تحتقرَ كرامةَ الكِرام ، وأن تنتقص من جانبها ، ونسأل الله العافية .

مباسطته ﷺ لجلسائه واتساعه لهم

كان رسول الله ﷺ يبسُط لجلسائه بساطَ الانطلاق الشرعيِّ المباح : القال والحال ، دون أن يَقبِضهم بحاله ، أو يكبِتهم بقاله ، فإذا تحدَّثوا بأمرٍ شاركهم في حديثهم ما لم يكن إثماً :

فعن خارجة بن زيد أن نفراً دخلوا على أبيه زيد بن ثابت رضي الله عنه فقالوا : حدِّثنا ببعض حديثِ النبي ﷺ .

فقال : (وما أُحدثكم ؟! كنتُ جارَه ﷺ ، فكان إذا نزل عليه الوحي بعثَ إليَّ فآتيه ، فأكتب الوحي ؛ فكنا إذا ذكرنا الدنيا ذكرها معنا ، وإذا ذكرنا الآخرة ذكرها معنا ، وإذا ذكرنا الطعام ذكره معنا ، كلُّ هذا أُحدثكم عنه ﷺ [1]) .

وروى الإمام أحمد عن جابر بن سَمُرَة رضي الله عنه قال : (كان رسول الله ﷺ طويلَ الصمت ، قليلَ الضَّحِكِ ، وكان أصحابه يذكرون عنده الشعر وأشياء من أمورهم ـ في الجاهلية ـ فيضحكون ، وربما تبسَّمَ معهم [2]) .

وعن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال : لم يكن أصحاب رسول الله ﷺ متخزِّقين ـ أي : متقبِّضين ـ ولا متماوتين [3] ، وكانوا

(١) رواه الترمذي في (الشمائل) والبيهقي ، وقال في (مجمع الزوائد) : رواه الطبراني بإسناد حسن اهـ .
(٢) وروى الترمذي نحوه .
(٣) أي : بل كانوا في قوة ونشاط وعزيمة .

يتناشدون الشعر في مجالسهم ، ويذكرون أمر جاهليتهم ، وإذا أُريد أحد منهم على شيء من أمر الله تعالى دارت حمالق عينيه كأنه مجنون [1]) .

وفي (النهاية) : لم يكن أصحاب رسول الله ﷺ متخزِّقين ـ أي : متقبِّضين ومجتمعين ـ ولا متماوتين .

يقال : تماوت الرجل ، إذا أظهر من نفسه التخافت والتضاعف من العبادة والزهد والصوم اهـ .

والمراد : أنهم ما كانوا منكمشين على نفوسهم ومنقبضين ، بل كانوا منبسطين ومنطلقين .

وروى مسلم عن سِماك بن حرب قال : قلت لجابر بن سمرة رضي الله عنه : أكنتَ تجالس رسول الله ﷺ ؟

فقال جابر : (نعم كثيراً ، كان رسول الله ﷺ لا يقوم من مصلاَّه الذي يصلي فيه الصبح حتى تطلُع الشمس ، فإذا طلعتْ قام ، وكانوا يتحدَّثون فيأخذون في أمر الجاهلية فيضحكون ، ويتبسَّم ﷺ) .

مزاحه ﷺ مع جلسائه وإدخال المسرة عليهم

كان ﷺ يمزح مع أصحابه لإدخال السرور عليهم ، ليباسطهم ، وليهتدوا بهديه ، ويتخلَّقوا بأخلاقه ، فلو أنه ﷺ ترك الطلاقة مع أصحابه والمباسطة معهم ، ولزم العبوس والانقباض لألزم الصحابةُ

(١) أي : من شدة الغضبة لدين الله تعالى ، وهذا الحديث رواه البخاري في (الأدب المفرد) ، ورواه ابن أبي شيبة .

أنفسَهم بذلك ، وكذلك التابعون من بعدهم .

فمزح ﷺ ليمزحوا ، ولكنه ﷺ بيَّن لهم أنه لا يقول في مزاحه إلَّا حقاً ، فلا يأتي بباطل ولا بعبث أولعب .

روى البخاري في (الأدب المفرد) والبيهقي عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لست من دَدٍ[1] ولا الدَّدُ مني » .

أي : لست من أهل اللعب واللهو ، ولا هما مني .

وقد رواه الطبراني والبزار عن أنس بزيادة : « ولستُ من الباطل ، ولا الباطل مني » كما في (شرح الموهب) .

وفي (الصحيحين) عن أنس رضي الله عنه قال : إنْ كان النبي ﷺ ليخالطنا ـ أي : ليلاطفنا ويمازحُنا ـ حتى يقول لأخٍ لي : « يا أبا عُمير ما فعل النُّغَيْر » .

ورواه الترمذي وقال : وفِقْه هذا الحديث أن النبي ﷺ كان يمازح ، وفيه : أنه ﷺ كنَّى غلاماً صغيراً فقال له : يا أبا عُمير ، وفيه : أنه لا بأس أن يُعطى الصبيُّ الطيرَ ليلعب به ـ أي : بشرط ألَّا يُعَرِّضه لتعذيبٍ أو جوعٍ أو عطشٍ ـ .

وإنما قال له النبي ﷺ : « يا أبا عُمير ، ما فعل النغير ؟ » ـ أي : الطير ـ لأنه كان له نغير يلعب به فمات ، فحزن عليه ، فمازحه النبي ﷺ

(١) بفتح الدال الأولى ، وكسر الثانية ـ والمعنى أنه لا يصدر منه ﷺ إلا الأمر الجد ، والقول الحق .

فقال له : « يا أبا عُمير ما فعل النغير »[1] .

وروى الترمذي عن أنس رضي الله عنه أنَّ رجلاً من أهل البادية كان اسمه زاهراً ، وكان يُهدي إلى النبي ﷺ هديةً من البادية ، فيجهزه النبي ﷺ إذا أراد أن يخرج إلى البادية ، فقال النبي ﷺ : « إنَّ زاهراً باديتُنا ونحن حاضروه » .

وكان النبي ﷺ يُحِبُّه ، وكان زاهرٌ رجلاً دميماً ، فأتاه النبيُّ ﷺ يوماً وهو يبيع متاعَه ، فاحتضنه من خلفه وهو لا يُبصره .

فقال زاهر : مَن هذا ؟ أَرْسِلْني .

فالتفت زاهر فعرف النبي ﷺ ، فجعل لا يألو ما ألصق ظهرَه بصدر النبي ﷺ حين عرفه .

فجعل النبي ﷺ يقول : « مَن يشتري هذا العبد ؟ » .

فقال : يا رسول الله إذاً والله تجدُني كاسداً .

فقال النبي ﷺ : « لكنْ عند الله لست بكاسد » أوقال : « أنت عند الله غالٍ » .

وفي (سنن) أبي داود عن عوف بن مالك الأشجعي قال : أتيتُ

(١) قال في (الجزء الثاني من التراتيب) : قد أكثر الناس من استنباط الأحكام من هذا الحديث ، وزاد أبو العباس ابن القاص من الشافعية على مائة فائدة ، وأفردها في جزء ، ونقل عن ابن الصباغ أنه أملى في درسه على حديث « يا أبا عمير ، ما فعل النغير ؟ » أربعمائة فائدة اهـ .

رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ، وهو في قبة من أَدَم ـ صغيرة ـ فسلَّمتُ فردَّ وقال : « ادخل » .

فقلتُ : أَكُلِّي يا رسول الله ؟ قال : « كُلُّكَ » فدخلتُ .

ومن جملة ما ورد في مزاحه ﷺ :

ما ورد عن أنس رضي الله عنه : أن رجلاً أتى النبيَّ ﷺ يستحمله ـ أي : يطلب منه دابةً ـ .

فقال له ﷺ : « إني حاملُك على ولد الناقة » .

فقال : يا رسول الله ما أصنع بولد الناقة[1] ؟

فقال ﷺ : « وهل يَلِد الإبلَ إلَّا النوق ؟ » .

وجاءت امرأة فقالت : يا رسول الله احملني على بعير .

فقال : « احمِلْهَا على ابن بعير » .

فقالت : ما أصنع به ؟ وما يحملني يا رسول الله !

فقال ﷺ : « وهل يجيء بعير إلَّا ابن بعير »[2] .

وروى ابن بكار عن زيد بن أسلم أنَّ امرأة يقال لها أم أيمن الحبشية ، جاءت إلى رسول الله ﷺ فقالت : إنَّ زوجي يدعوك .

فقال : « مَنْ هو ؟ أهو الذي بعينيه بياض ؟ » .

---

(١) فتوهم الرجل أنه ﷺ سيحمله على ولد ناقة صغير .

(٢) رواه الترمذي وأبو داود وأحمد وغيرهم . قال العلامة الزرقاني : فتعددت الواقعة بالنسبة للرجل والمرأة .

فقالت : ما بعينيه بياض .

فقال : « بلى بعينيه بياض » .

فقالت : لا والله .

فقال ﷺ : « ما مِن أحدٍ إلَّا بعينيه بياض » أي : البياض المحيط بالحدقة .

ومن ذلك ممازحته ﷺ للمرأة العجوز :

روى الترمذي عن الحسن البصري رضي الله عنه قال : أتت عجوزٌ النبيَّ ﷺ فقالت : يا رسول الله ادعُ الله أن يُدخلَني الجنة .

فقال : « يا أم فلان إن الجنة لا يدخلها عجوز » .

قال : فولَّتْ ـ أي : ذهبتْ ـ وهي تبكي .

فقال ﷺ : « أخبروها أنها لا تدخُلُها وهي عجوز ، إنَّ الله تعالى يقول : ﴿ إنا أَنشأناهُنَّ إنشاءً . فجعلْناهُنَّ أبكاراً . عُرُباً أَتْراباً[1] ﴾ » .

فهذه الأحاديث تدل على ممازحته ﷺ لمؤانسة المخاطب ، وتطييب نفسِه ، ولإدخال السرور عليه ، لأنَّ المزاح هو الانبساط مع الغير من غير أذىً .

---

(١) عرباً : جمع عروب ، وهي المفصحة عن محبة زوجها ، والأتراب : جمع ترب ـ والمراد : أنهن متساويات في سن واحدة .

وقال الحافظ الترمذي : هذه الرواية مرسلة ، وجاء في رواية أخرى موصولة عن أنس رضي الله عنه .

ولذلك كان الصحابة رضي الله عنهم يتمازحون فيما بينهم ، كما جاء في (الأدب المفرد) عن بكر بن عبد الله قال : كان أصحابُ النبي ﷺ يتبادحون بالبِطِّيخ ، فإذا كانت الحقائق كانوا هم الرجال .

وفي (النهاية) لابن الأثير : وفي حديث بكر بن عبد الله : كان أصحاب محمد ﷺ يتمازحون ويتبادحون بالبِطِّيخ ، فإذا جاءت الحقائق كانوا هُمُ الرجال ـ أي : يترامون بالبطيخ ، يقال : بَدَحَ يبدَح إذا رمى اهـ .

وأما ما ورد في الحديث من النهي عن المزاح كما في سنن الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال : « لا تُمارِ أَخاكَ ولا تُمازحْه ، ولا تَعِدْه موعداً فتخلفَه » : فهذا النهي محمولٌ على الإفراط في المزاح ، لما في ذلك من الشغل عن ذكر الله تعالى ، أو عن التفكير في مهمات الدين ، ولما فيه من قسوة القلب بكثرة الضحك ، بل إن كثرة المزاح تورث العداوة والأذى والحِقد ، وجَراءة الصغيرِ على الكبير .

وقد قال عمر رضي الله عنه : (مَنْ كثُرَ ضحكه قلَّتْ هيبتُه ، ومن مزح استُخِفَّ به) اهـ .

أي : بأن أكثر المزاح .

كما وأنَّ النهي عَن المزاح محمول على المزاح الذي فيه أذىً أو حزن للغير .

وفي (سنن) أبي داود والترمذي عن عبد الله بن السائب عن أبيه

عن جدِّه أَنَّه سمع رسول الله ﷺ يقول : « لا يأخذَنَّ أحدُكم متاعَ أخيه لاعباً ولا جادّاً ، ومَن أخذ عصا أخيه فليردَّها » .

وروى أبو داود عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال : حدثنا أصحابُ محمدٍ ﷺ أنهم كانوا يسيرون مع النبي ﷺ فنام رجل منهم ، فانطلق بعضهم إلى حبلٍ معه فأخذه ، ففزع .

فقال رسول الله ﷺ : « لا يحلُّ لمسلمٍ أن يروِّعَ مسلماً »[1] .

وفي يوم الخندق كان زيد بن ثابت ينقل التراب مع المسلمين فنعس ، فجاء عُمارة بن حزم فأخذ سلاحَه وهو لا يشعر ، فنهاه رسول الله ﷺ عن ذلك .

ورُوي عن عامر بن ربيعة رضي الله عنه أنَّ رجلاً أخذ نعل رجل ، فغيَّبها وهو يمزح ، فذُكِر ذلك لرسول الله ﷺ .

فقال النبي ﷺ : « لا تُرَوِّعوا المسلم ، فإنَّ روعة المسلم ظلم عظيم » .

قال الحافظ المنذري : رواه البزار والطبراني وابن حبان .

فالمزاح مندوب إليه بين الإخوان والأصدقاء بما لا أذى فيه ، ولا ضررَ ولا قذف ولا غيبة ولا شين : في عرض أو دين ، ولا استخفاف بأحد منهم .

وأما مزاح الرجل مع أهله وملاطفتهم بأنواع الملاطفة : فمطلوب

---

(١) قال الزين العراقي بعد ما عزاه لأحمد والطبراني : حديث حسن . اهـ من (فيض القدير) .

ومحبوب ، وهو من أخلاق النبيين ، ومن شعار المؤمنين :

قال عمر رضي الله عنه : (ينبغي للرجل أن يكون في أهله مثلَ الصبيِّ ، فإذا التُمِس ما عنده وُجِدَ رجلاً) .

تبسمه ﷺ حين يلقى أصحابه وحين يحدثهم

كان رسول الله ﷺ كثيراً ما يتبسَّمُ في وجوه أصحابه حين يلقاهم ، وفي حديثه إليهم ، تلطُّفاً بهم ومؤانسة لهم .

قال جرير بن عبد الله رضي الله عنه : (ما حجبني رسول الله ﷺ منذ أسلمت[1] ، ولا رآني إلَّا تبسَّم) رواه الترمذي .

وروى الإمام أحمد عن أم الدرداء رضي الله عنها قالت : (كان أبو الدرداء إذا حدَّث حديثاً تبسَّم) .

فقلت : (لا ، يقول الناس : إنك أحمق !) ـ أي : بسبب تبسمك في كلامك ـ .

فقال أبو الدرداء : (ما رأيتُ أو سمعتُ رسول الله ﷺ يحدِّثُ حديثاً إلَّا تبسَّم) .

فكان أبو الدرداء إذا حدَّث حديثاً تبسَّم ، اتباعاً لرسول الله ﷺ في ذلك .

(١) أي : ما منعني من الدخول إليه إذا كان في بيته ، واستأذنت عليه ـ كما في (الفتح) .

حول ضحكه ﷺ

كان أصحاب النبي ﷺ يبحثون عن أخلاق النبي ﷺ وأحوالِه وآدابِه ليتبعوه :

ومن ذلك : تتبعهم لأوصاف ضحكه ﷺ ، وللأسباب التي كان يضحك من أجلِها ، وذلك لتتبين لهم الأسباب التي يجوز للمسلم أن يضحك من أجلِها شرعاً ، وما لا يجوز الضحك منه شرعاً ، لأنَّ الضحك منه ما يجوزُ شرعاً ومنه ما لا يجوز في الشرع ، ولا يُعرف ذلك إلَّا بالرجوع إلى الأصول الثابتة عن رسول الله ﷺ .

ولقد كان أكثر ضحكه ﷺ التبسُّم :

روى الترمذي وغيره عن هند بن أبي هالة في حديثه يصف النبي ﷺ ، قال فيه : (جُلُّ ضحكه التبسُّم ، يفترُّ عن مِثل حَبِّ الغمام) .

والمعنى أنه ﷺ يضحك ضحكاً حسناً ، كاشفاً عن سنٍّ مثل حَبِّ الغمام ـ وهو البَرَد ـ في البياض والصفاء والبريق .

وعن عبد الله بن الحارث رضي الله عنه قال : (ما كان ضحك رسولِ الله ﷺ إلَّا تبسُّماً) رواه الترمذي .

وفي (سنن) أبي داود عن عائشة رضي الله عنها قالت : (ما رأيتُ رسولَ الله ﷺ قطُّ مستجمعاً ضاحكاً حتى أرى منه لَهَواتِه[1] ، إنما كان يتبسم) الحديث .

(١) جمع لهاة ، وهي اللحمة في أعلى الحلق من أقصى الفم .

وكان ﷺ يضحك أحياناً حتى تبدو نواجذُه :

فعن عامر بن سعد قال : قال سعد بن أبي وقّاص رضي الله عنه : لقد رأيتُ النبيَّ ﷺ ضحك يوم الخندق حتى بدت نواجذُه .

قال عامر : فقلت لسعد : كيف كان ضحِكه ؟

فقال سعد : كان رجلٌ معه ترس ، وكان سعد رامياً ، وكان الرجلُ يقول كذا وكذا بالترس ـ يغطي جبهته ، فنزع له سعد بسهم ، فلما رفع ـ الرجل المشرك ـ رأسَه رماه ـ سعد ـ فلم يخطىء هذه منه ـ يعني جبهته ـ وانقلب الرجل وشال برجله ـ فضحك النبيُّ ﷺ حتى بدتْ نواجذُه .

قال : قلت : من أي شيءٍ ضحك ؟

قال : مِن فِعْلِه بالرجل . أي : فِعْل سعدٍ بالرجل المشرك ، حيث إنه استهدفه حتى أصابه مع توقِّيه بترسِه .

وروى مسلم في (صحيحه) عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إني لأعلم آخرَ أهلِ النّارِ خروجاً منها ، وآخرَ أهلِ الجنة دخولاً الجنَّة :

رجلٌ يخرجُ من النّار حَبْواً ، فيقول الله تبارك وتعالى له : اذهبْ ، فادخل الجنَّةَ .

فيأتيها فيخيَّل إليه أنها ملأى .

فيرجع فيقول : يا ربِّ وجدتُها ملأى .

فيقول الله تبارك وتعالى له : اذهبْ فادخل الجنَّة .

قال : فيأتيها فيخيَّل إليه أنها ملأى .

فيرجع فيقول : يا ربِّ وجدتها ملأى .

فيقول الله : اذهب فادخُل الجنة ، فإنَّ لك مثلَ الدنيا وعَشرة أمثالها ـ أو : إن لك عشرةَ أمثال الدنيا ـ .

قال : فيقول : أتسخرُ بي ـ أوْ : أتضحكُ بي ـ وأنتَ المَلِكُ ؟ ! » .

قال : لقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدتْ نواجذُه ـ قال : فكان يقال : ذاك أدنى أهل الجنة منزلةً .

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إني لأعلم آخرَ أهل الجنة دخولاً الجنة ، وآخرَ أهلِ النَّار خروجاً منها .

رجلٌ يُؤتى به يوم القيامة ، فيقال : اعرضوا عليه صغار ذنوبه ، وارفعوا عنه كبارَها ، فتعرض عليه صغار ذنوبه ، فيقال : عملتَ يوم كذا وكذا : كذا وكذا ، فيقول : نعم ، لا يستطيع أن ينكر ، وهو مشفِق من كبار ذنوبه أن تُعرَض عليه .

فيقال له : فإنَّ لك مكانَ كلِّ سيئةٍ حسنةً ، فيقول : ربِّ قد عملتُ أشياءَ لا أراها ها هُنا ! » .

فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدتْ نواجذُه ـ رواه مسلم والترمذي في الشمائل واللفظ له .

وأخرج الإمامُ أحمد عن أم سلمة رضي الله عنها ، أن أبا بكر رضي الله عنه خرج إلى بُصرى ومعه النُّعيمان وسُويبط بن حَرْملة رضي الله عنهما ، وكلاهما بدري ، وكان سويبط على الزَّاد ؛ فقال له

النعيمان : أطعِمْني ، فقال سويبط : حتى يجيء أبو بكر .

وكان النعيمان مِضْحاكاً مزَّاحاً ، فذهب إلى أناسٍ جلبوا ظهراً ـ أي : إبلاً ـ فقال لهم النعيمان : أتبتاعون ـ أي : تشترون ـ مني غلاماً ـ أي : عبداً ـ عربياً فارهاً ؟ ـ فَتِيّاً .

قالوا : نعم .

فقال : إنه ذو لسان ، ولعله يقول : أنا حُر ، فإن كنتم تاركيه لذلك ، فدعوني لا تفسدوه عليَّ .

فقالوا : بل نبتاعه ـ فابتاعوه بعشر قلائص ـ أي : نوق شابة ـ فأقبل ليسوقَها وقال لهم : دونكم هو هذا .

فقال سويبط : هو ـ أي : النعيمان ـ كاذب ، أنا رجل حر .

فقالوا : قد أخبرنا خبرك ، فطرحوا الحبل في رقبته ، فذهبوا به .

فجاء أبو بكر فأُخبر ، فذهب هو وأصحابه إليهم ، فردُّوا القلائص وأخذوه .

ثم أخبروا النبيَّ ﷺ بذلك فضحك هو وأصحابه حولاً[1] .

وفي (الجزء الثالث من الإصابة) نقلاً عن الزبير بن بكار : أنَّ النعيمان كان لا يدخل المدينةَ طُرْفةً إلا اشترى منها ، ثم جاء إلى النبي ﷺ فيقول : ها أهديتُه لك ، فإذا جاء صاحبها يطلب نعيمانَ بثمنها ، أحضره النعيمان إلى النبيِّ ﷺ ، وقال يا رسول الله : أعطِ هذا ثمنَ متاعه .

(١) وأخرجه أبو داود الطيالسي وابن ماجه في باب المزاح .

فيقول : « أوَلم تُهْدِه لي ؟ » .

فيقول : إنه والله لم يكن عندي ثمنه ؛ ولقد أحببتُ أن تأكلَه .

فيضحك النبي ﷺ ويأمر لصاحبه بثمنِه .

ومن ذلك ضحكه ﷺ من الأمر العجيب يبلغه :

روى الإمام أحمد في (مسنده) عن عائشة رضي الله عنها قالت : جاءت سَلمى امرأة أبي رافع مولى النبي ﷺ ـ أي : عتيقه ـ تستأذن رسولَ الله ﷺ على أبي رافع وقالت : إنه ليضربني .

فقال ﷺ : « مالَكَ ولها ؟ » .

قال : تؤذيني يا رسول الله .

قال : « بماذا آذيتيه يا سلمى ؟ » .

قالت : ما آذيته بشيءٍ ، ولكنه أحدثَ وهو يصلي فقلت له : يا أبا رافع إنَّ رسول الله ﷺ قد أمرَ المسلمين إذا خرج من أحدهم ريح أن يتوضأ ، فقام يضربني .

فجعل رسول الله ﷺ يضحك ويقول : « يا أبا رافع لم تأمرك إلا بخير »[1] .

وسئل ابن عمر رضي الله عنهما : هل كان أصحاب النبي ﷺ يضحكون ؟ فقال : نعم ، وإن الإيمان في قلوبهم أمثالُ الجبال ، وربما قال : وإنَّ الإيمانَ في قلوبهم أعظمُ من الجبال .

وأما الضحكُ المنهيُّ عنه شرعاً : فهو ما كان من باب السخرية

(١) انظر (شرح المواهب) : ٢ : ٣٠٢ .

بالناس ، وانتقاصهم ، أو فيه انتهاك لحرمات الدين أو المسلمين ، أو ما كان كثيراً ، فإنَّ كثرةَ الضحك تميتُ القلبَ الروحاني الإيماني ، لما تفضي إليه من الغفلة المورِّثة لقسوة القلب ، وتميت القلب الجسماني ، لأنَّ كثرةَ الضحك تضعف القلب بسبب كثرةِ خفقانه ، فيؤدي ذلك إلى موته .

قال الإمام الغزالي رضي الله عنه : كثرةُ الضحكِ والفرحِ بالدُّنيا سُم قاتِل يسري إلى العروق ، فيخرج من القلب الخوفَ والحزن . اهـ .

روى البخاري في (الأدب المفرد) وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « لا تُكْثِروا من الضحك ، فإنَّ كثرةَ الضحك تميتُ القلب » .

وهناك أحاديث كثيرة وردت في النهي عن كثرة الضحك .

ملاطفته ﷺ للصبيان وملاعبته لهم

روي الإمام أحمد بإسناد حسن عن عبد الله بن الحارث قال : (كان رسول الله ﷺ يصفُّ عبد الله وعبيد الله وكَثير بني العباس ثم يقول : « مَن سَبَقَ إليَّ فله كذا وكذا » قال : فيسبقون إليه ، فيقعون على ظهره وصدره ﷺ ، فيقبِّلهم ويلتزمهم[1]) .

وفي (زوائد ابن حبان) عن أنس رضي الله عنه قال : (كان

(١) كذا في (مجمع الزوائد) : ٩ : ١٧ .

رسول الله ﷺ يزور الأنصار ، ويسلِّم على صبيانهم ، ويمسح رؤوسَهم) .

وروى البخاري في (الأدب المفرد) والطبراني عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمع أذناي هاتان ، وبصر عيناي هاتان ، رسولَ الله ﷺ أخذ بيديه جميعاً بكفَّي الحسن أو الحسين ، وقدميه[1] على قدم رسول الله ﷺ ،ورسول الله يقول : « إرْقَهْ » قال : فرقي الغلامُ حتى وضعَ قدميْه على صدر رسول الله ﷺ ، ثم قال رسول الله ﷺ : « افتَحْ فاك » ثمَّ قبَّله ، ثمَّ قال : « اللهمَّ أحبَّه فإني أُحبُّه » .

وقد جاء ذلك في (الإصابة) وزاد : « حُزُقَّه ،حُزُقَّهْ ، تَرَقَّ ، عينَ بقَّه »[2] .

وعن عبد الله بن جعفر رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ إذا قدِمَ من سفرٍ تُلقِّي بالصبيان من أهل بيته ، قال : وإنه قدمَ مرَّةً من سفره فسُبِقَ بي إليه ، فحملني بين يديه ، ثم جيء بأحد ابني فاطمة

(١) منصوب بفعل محذوف تقديره : وجعل قدميه . . . الخ ، أو أبصرت عيناي قدميه . كما نبه على ذلك الشارحون .

(٢) جاء في (النهاية) لابن الأثير : وفيه أنه عليه الصلاة والسلام كان يرقص الحسن أو الحسين ويقول : « حزقة حزقة ، ترق عين بقه » فترقى الغلام حتى وضع قدميه على صدره ـ الحزقة : الضعيف المتقارب الخطو من ضعفه ، وقيل : القصير العظيم البطن ، فذكرها على سبيل المداعبة والتأنيس له ، وترق : بمعنى اصعد ، وعين بقه : كناية عن صغر العين . اهـ .

رضي الله عنها ، إما الحسن أو الحسين ، فأردفه خلفه ، فدخلنا المدينة ثلاثة على دابَّة .

وقال عبد الله بن جعفر لابن الزبير : أتذكر إذ لقينا رسول الله ﷺ أنا وأنت وابن عباس ؟ فقال : نعم ، قال : فحَمَلَنا وتَرَكك .

كمال لطفه ﷺ

وشدة اهتمامه بمن يسأله عن أمور الدين من الرجال والنساء

روى الإمام مسلم عن أبي رفاعة رضي الله عنه قال : انتهيتُ إلى النبيِّ ﷺ وهو يخطب ، فقلتُ : يا رسول الله ، رجل غريب جاء يسأل عن دينه ، لا يدري ما دينُه ؟

قال : فأقبل عليَّ رسول الله ﷺ وترك خطبتَه حتى انتهى إليَّ ، فأُتيَ بكرسي صُبَّتْ قوائمه حديداً ، فقعد عليه رسولُ الله ﷺ وجعل يعلمُني مما علَّمَه الله ثمَّ أتى خطبتَه ، فأتمَّ آخرها [1] .

وروى البخاري عن أنس رضي الله عنه قال : بينما نحنُ جلوسٌ مع النبي ﷺ في المسجد ، دخل رجلٌ عَلى جَملٍ ، فأناخه في المسجد ثم عَقَله ، ثم قال لهم : أيُّكم محمد ﷺ ؟ والنبي ﷺ متكىءٌ بين ظَهرانَيْهِم .

---

(١) فانظر في شدة اهتمامه ﷺ بمن سأله عن أمور الدين ، كيف ترك خطبته وعلم السائل ما سأله من أمر دينه ! .

فقلنا : هذا الرجل الأبيض المتكىءُ .

فقال له الرجل : ابنَ ـ أي : يا ابن ـ عبد المطلب .

فقال له النبي ﷺ : « قد أجبتُك » .

فقال الرجل للنبي ﷺ : إني سائلُك فمشَدِّدٌ عليك في المسألة ، فلا تجِدْ عليَّ في نفسك ـ أي : لا تغضبْ في تشديدي عليك في السؤال بل تحمَّلْ ـ وإذا برسول الله ﷺ يحفه بلطافته ، فقال له : « سَلْ عمَّا بدا لك » .

فقال : أسألك بربِّك وربِّ مَنْ قبلك : آلله أَرسلكَ إلى الناسِ كلهم ؟ .

فقال ﷺ : « اللهمَّ نعم » .

وفي رواية مسلم : قال الرجل : فمن خلق السماءَ ؟ قال : « الله » .

قال : فمن خلق الأرض ؟ قال : « الله » .

قال : فمن نصبَ هذه الجبال ؟ وجعل فيها ما جعل ؟ ـ أي : من المنافع ـ قال ﷺ : « الله » .

قال : فبالذي خلقَ السماء ، وخلق الأرض ، ونصب الجبال ، وجعل فيها ما جعل : آلله أَرسلك ؟ قال : « اللهم نعم » .

قال ـ كما في رواية البخاري ـ : أُنشدك بالله ـ أي : أسألك بالله ـ آلله أمرك أن تصلي ـ وفي رواية أن نصلي ، بالنون وفيما بعدها أيضاً ـ الصلواتِ الخمسَ في اليوم والليلة ؟ .

قال ﷺ : « اللهم نعم » .

قال : أنشدك بالله ، آلله أمركَ أن تصوم هذا الشهرَ من السنة ؟ .

قال ﷺ : « اللهمَّ نعم » .

قال : أنشدك بالله ، آلله أمركَ أن تأخذَ الصدقةَ من أغنيائنا فتقسمَها على فقرائِنا ؟ .

فقال ﷺ : « اللهمَّ نعم » .

وفي رواية مسلم : وسأله عن الحجِّ أيضاً ، ثم قال الرجل : آمنتُ بما جئتَ به ، وأنا رسولُ مَن ورائي من قومي ، وأنا ضِمامُ بن ثعلبة أخو بني سعد بن بكر .

وفي (الاستيعاب) لابن عبد البر في ترجمة أسماء بنت يزيد بن السَّكَن رضي الله عنها قال : إنها كانت من ذواتِ العقل والدين ، رُوي عنها أنها أتت النبيَّ ﷺ فقالت : إني رسولُ مَنْ ورائي من جماعة نساء المسلمين ، كلُّهنَّ يقلْنَ بقولي ، وعلى مثل رأيي :

إن الله بعثك إلى الرجال والنساء ، فآمَنَّا بك واتَّبَعناك ، ونحن معشرَ النساء مقصوراتٌ مخدَّرات ، قواعدُ بيوت ، وإن الرجال فُضِّلوا بالجُمُعات وشهودِ الجنائز والجهاد ، وإذا خرجوا للجهاد حفظْنَا لهم أموالهم ، وربَّينا أولادهم ، أفنشاركهم في الأجر يا رسول الله ؟ .

فالتفت رسولُ الله ﷺ بوجهه إلى أصحابِه فقال : « هَل سمعتم مقالةَ امرأةٍ أَحسنَ سؤالاً عن دينِها من هذه ؟ » .

فقالوا : بلى يا رسول الله .

فقال رسول الله ﷺ : « انصرفي يا أسماء ، وأعْلِمي مَن وراءَكِ من

النساءِ أن حُسن تبعُّل[1] إحداكُنَّ لزوجِها ، وطلبَها لمرضاته ، واتباعها لموافقته ، يعدل كل ما ذكرتِ للرجال » .

فانصرفت أسماء وهي تهلِّل وتكبِّر ، استبشاراً بما قال لها رسول الله ﷺ . اهـ .

ويشهد لهذا الحديث : ما رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : جاءت امرأةٌ إلى النبي ﷺ فقالت يا رسول الله : أنا وافدةُ النساءِ إليك : هذا الجهاد كتبه الله على الرجال ، فإنْ يُصيبوا أُجِروا ، وإن قُتِلوا كانوا أحياءً عند ربِّهم يُرزقُون ، ونحن معاشرَ النساء نقوم عليهم ، فما لنا من ذلك ؟ .

قال : فقال رسول الله ﷺ : « أَبْلِغي مَنْ لقيتِ من النساءِ : أَنَّ طاعةَ الزوج ؛ واعترافاً بحقِّه ؛ يعدِل ذلك ، وقليلٌ منكنَّ مَن يفعله » .

قال الحافظ المنذري : رواه البزار هكذا مختصراً .

والطبراني في حديثٍ فقال في آخره : ثم جاءت النبيَّ ﷺ امرأةٌ فقالت : إني رسولُ النساء إليك ، وما منهنَّ امرأة علمتْ أو لم تعلم إلَّا وهي تهوى مخرجي إليك :

الله ربُّ الرجال والنساء وإلَهُهنَّ ، وأنتَ رسول الله إلى الرجال والنساء ، كتب الله الجهاد على الرجال فإن أصابوا أُجِرُوا ، وإن

---

(١) أي : طاعة المرأة لبعلها ، أي : زوجها .

استُشهدوا كانوا أحياءً عند ربهم يرزقون ، فما يعدِل ذلك من أعمالهم من الطاعة ؟ .

فقال ﷺ : « طاعةُ أزواجهن ، والمعرفة بحقوقهن ، وقليلٌ منكنَّ مَنْ يفعله »[1] .

مكافأته ﷺ الإكرام بأفضل إكرام

روى البيهقي في (الدلائل) وابن إسحاق عن أبي قتادة أنه قال : وَفَدَ وفْدُ النِّجاشي على النبي ﷺ فقام النبي ﷺ يخدِمُهم .

فقال له أصحابُه : نحن نكفيك ـ أي : نكفيك القيام بضيافتهم وإكرامِهم ـ .

فقال ﷺ : « إنهم كانوا لأصحابنا مكرِمين ، وأنا أُحِبُّ أن أُكافِئهم » .

مقابلته ﷺ الإحسان بأجمل إحسان

كان سيدنا رسول الله ﷺ لا يُضيع الإحسان ، ولا ينكر الجميل والمعروف لإنسان ، مَن عمل معه معروفاً ، أو صنع معه جميلاً ، يذكره له ، ويقابله بما هو أحسن وأكرم وأجمل ، كما أثبتتْ ذلك الوقائع الواردة ، والشواهد الثابتة :

فمن ذلك : ما ورد عن عَمْرو بن أخطب الأنصاري رضي الله عنه قال : استسقى رسول الله ﷺ ـ أي : طلب ماءً ليشرب منه ـ فأتيتُه

(١) انظر (ترغيب) المنذري : ٣ : ٥٣ .

بقدح فيه ماء ، فكانتْ فيه شعرةٌ فأخذتُها ـ أي : أزالها من القدح ـ .

فقال ﷺ مقابلاً لصنعه الجميل : « اللهُم جمِّله » .

قال الراوي : فرأيتُ عمراً وهو ابن تسعين سنة ، وليس في لحيته شعرة بيضاء[1] .

وعن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يطوف بين الصفا والمروة ، فسقطت على لحيته ريشة ، فابتدر أبو أيوب فأخذها .

فقال له النبي ﷺ : « نزع الله عنك ما تكره »[2] .

فانظر كيف أنه ﷺ لم يضيِّعْ إحسانَ مَن أزال عنه ريشةً ! .

ومن ذلك : ما رواه مسلم عن ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه قال : كنتُ أبيتُ مع رسول الله ﷺ فأتيتُه بوَضوئه وحاجته ـ أي : بماء وضوئه وسائر ما يحتاجه من سواك ونحوه ـ .

فقال لي : « سَلْ » أي : اطلبْ ما تحتاجه في مقابلة خدمتِك لي .

فقلتُ : أسألك مرافقتَك في الجنة .

فقال ﷺ : « أوْ غير ذلك » ـ أي : تسأل غير ذلك .

(١) قال في (مجمع الزوائد) : رواه أحمد والطبراني إلا أنه ـ الطبراني ـ قال : ستون سنة ، وإسناده حسن . اهـ .

(٢) قال في (مجمع الزوائد) : رواه الطبراني وفيه نائل بن نجيح وثقه أبو حاتم وغيره ، وضعفه الدارقطني وغيره .

فقال ربيعة : قلت : هو ذاك ـ أي : سؤالي مرافقتك ، لا أسألك غير ذلك ـ .

فقال ﷺ : « فأعِنِّي على نفسِك بكثرةِ السجود » .

ورواه الطبراني في (الكبير) ولفظه : قال ربيعة بن كعب : كنتُ أخدِمُ النبيَّ ﷺ نهاري ، فإذا كان الليل أويتُ إلى باب رسول الله ﷺ فبِتُّ عنده ، فلا أزال أسمعه يقول : « سبحان الله ، سبحان الله ، سبحان ربي » حتى أَملَّ ، أو تغلبني عيني فأنام .

فقال لي ﷺ يوماً : « يا ربيعة سَلْني فأعطيَك » .

فقلت : أَنْظِرْني حتى أنظُر ـ وتذكَّرْتُ أنَّ الدنيا فانية منقطعة ، فقلت : يا رسول الله أسألُكَ أن تدعوَ الله لي أن ينجيني من النار ، ويدخلَني الجنَّة .

فسكتَ رسول الله ﷺ ثم قال : « مَنْ أَمَرَك بهذا ؟ » .

قلتُ : ما أمرني به أحد ؛ ولكني علمتُ أن الدنيا منقطعةٌ فانية ، وأنت من الله بالمكان الذي أنت منه ، فأحببتُ أن تدعوَ الله لي .

قال : « فأعِنِّي على نفسِك بكثرة السجود »[1] .

تفقده ﷺ أصحابه

روى الترمذي وغيرُه عن هند بن أبي هالة ، في حديثه يصفُ النبيَّ ﷺ ، وفيه : (كان ﷺ يتفقَّد أصحابه ، ويسأل الناس عما في الناس) ـ الحديث كما سيأتي بتمامه إن شاء الله تعالى .

(١) انظر (ترغيب) المنذري في فضل السجود .

والمعنى أنه كان يسأل عنهم حال غيبتهم عنه .

وروى أبو يعلى بإسنادٍ فيه ضعف عن أنس رضي الله عنه (أنَّ النبيَّ ﷺ كان إذا فَقَدَ الرجل من إخوانه ثلاثةَ أيام سأل عنه : فإن كان غائباً دعا له ، وإن كان شاهداً ـ أي : حاضراً في البلد ـ زاره ، وإن كان مريضاً عاده[1]) .

حفظه ﷺ للودِّ واحتفاظه بالعهد

قال الله تعالى : ﴿ وَلا تَنْسَوُا الفضْلَ بينكم إنَّ الله بما تعملونَ بصير ﴾ .

أورد البخاري في (صحيحه) : باب حسن العهد[2] من الإيمان .

ثم أسند إلى عائشة رضي الله عنها قالت : ما غِرْتُ على امرأةٍ ما غِرْتُ على خديجة ، ولقد هلكت ـ أي : ماتت ـ قبل أن يتزوَّجني رسولُ الله ﷺ بثلاث سنين ، لما كنتُ أسمعُه يذكرها ـ أي : يثني عليها خيراً ـ ولقد أمره ربُّه أن يبشرَها ببيتٍ في الجنَّة من قَصَب ، وإنْ كان ـ أي : وإنه كان ﷺ ـ ليذبح الشاةَ ثمَّ يُهدي في خُلَّتها منها .

ـ أي : يُهدي من لحم الشاة إلى صديقات خديجة وخليلاتها من النساء ، إكراماً للسيدة خديجة وحفظَ ودٍّ ، وحسنَ عهدٍ معها .

(١) انظر (الجامع الصغير) و (مجمع الزوائد) .

(٢) المراد بالعهد هنا : رعاية الحرمة ، والاحتفاظ بالشيء ، والملازمة له ، مع تأدية حقوقه دون إهمال ولا ترك .

وروى الحاكم والبيهقي في (الشُّعَب) عن عائشة رضي الله عنها قالتْ : جاءتْ عجوزٌ إلى النبي ﷺ فقال : « كيف أنتم ؟ كيف حالكم ؟ كيف أنتم بعدنا ؟ » .

فقالت : بخير بأبي أنت وأُمي يا رسول الله .

فلما خرجت قلت : يا رسول الله ! تُقبل على هذه العجوز هذا الإقبال ؟ .

فقال : « يا عائشة إنها كانت تأتينا زمان خديجة ، وإنَّ حسنَ العهد من الإيمان » .

فكان ﷺ يحسن العهد ويحفظُ الودَّ .

وروى البخاري في (الأدب المفرد) عن أبي الطُّفيل قال : رأيتُ النبيَّ ﷺ يقسم لحماً بالجِعْرانة ، وأنا يومئذ غلام أحمل عضو البعير ، فأتَتْهُ امرأةٌ فبسط لها ﷺ رداءه .

قلت : مَن هذه ؟ قيل : هذه أُمُّه التي أرضعَتْه ـ أي : هي السيدة حليمة السعدية رضي الله عنها .

وروى أبو داود أنَّ أبا النبيِّ ﷺ من الرضاعة ، أتى النبيَّ ﷺ فوضع له بعض ثوبه ، فقعد عليه ، ثم أقبلتْ أُمُّه ـ من الرَّضاعة ـ فوضع لها شِقَّ ثوبه من جانبه الآخر ، فجلستْ عليه ، ثمَّ أقبل أخوه من الرضاعة ، فقام له رسول الله ﷺ فأجلسه بين يديه .

صدقه للوعد ﷺ

كان رسول الله ﷺ صادقَ الوعد ، يَفِي بوعده وإن شَقَّ ذلك عليه .

روى أبو داود عن عبد الله بن أبي الحَمْساء قال : بايعتُ النبي ﷺ ببيع قبل أن يُبعَث ، وبقيتْ له بقيَّة ، فوعدتُه أن آتيه بها في مكان ، فنسيتُ ، ثم ذكرتُ بعد ثلاث ، فجئتُ فإذا هو ﷺ في مكانه .

فقال : « يا فتى لقد شَقَقْتَ عليَّ ! أنا ها هنا منذ ثلاثٍ أنتظرك » .

زياراته الكريمة ﷺ لأصحابه

كان رسول الله ﷺ يزورُ أصحابه ليُكرِمَهم بذلك ، وليُدخِلَ السرورَ عليهم ، ولينفعهم بإرشاداته وتعاليمِه .

فعن عبد الله بن قيس رضي الله عنه : (أنَّ رسول الله ﷺ كان يُكثر زيارةَ الأنصار ، خاصَّةً وعامَّةً ، فكان إذا زار خاصةً أتى الرجلَ في منزله ، وإذا زار عامَّةً أتى المسجد)[1] .

وروى الترمذي والنسائي عن أنس رضي الله عنه قال : (كان رسول الله ﷺ يزور الأنصار ، ويسلِّم على صبيانهم ، ويمسح رؤوسَهم)[2] .

---

(١) قال في (مجمع الزوائد) : رواه أحمد وفيه راو لم يسم ، وبقية رجاله رجال الصحيح اهـ ٨ : ١٧٣

(٢) حديث حسن بل صحيح ، كما نبه عليه في (فيض القدير) .

وجاء في (الأدب المفرد) للبخاري : باب من زار قوماً فَطَعِم عندهم .

ثم أسند إلى أنس بن مالك : (أن رسول الله ﷺ زار أهلَ بيت من الأنصار ، فَطَعِمَ عندهم طعاماً ، فلما خرج ـ أي : لما أراد أن يخرج ـ أمر بمكان من البيت فنُضِحَ له على بساط ، فصلَّى عليه ، ودعا لهم) .

وإنما فعل ذلك ليتبركوا بصلاته ، وبموضع صلاته ، وليتخذوا المكان الذي صلى فيه مسجد البيت .

وعن جُبير بن مطعم قال : قال رسول الله ﷺ : « انطلِقوا بنا إلى بني واقفٍ نزور البصير » رجل كان مكفوفَ البصر[1] .

وروى الإمام أحمد في (المسند) عن قيس بن سعد قال : زارنا رسول الله ﷺ في منزلنا ، فقال : « السلام عليكم ورحمة الله » ـ قال : فردَّ سعد خفيّاً .

وعند أبي داود بعد أن ردَّ سعد خفياً قال قيس : قلت : ألا تأذنُ لرسول الله ﷺ ؟ فقال سعد : ذَرْهُ حتى يُكثر علينا من السلام .

فقال ﷺ : « السلامُ عليكم ورحمة الله » ـ أي : ثانياً ـ فردَّ سعد خفياً .

ثم قال ﷺ : « السلام عليكم ورحمة الله » ـ أي : ثالثاً .

فرجع رسول الله ﷺ واتَّبعه سعد ، فقال : يا رسول الله قد كنتُ

(١) قال الحافظ الهيثمي : رواه البزار ـ واللفظ له ـ والطبراني ، ورجال البزار رجال الصحيح غير إبراهيم بن المستمرّ العروقي وهو ثقة . اهـ . ٨ : ١٧٤

أسمع تسليمك وأردُّ عليك ردّاً خفيّاً ، لتُكثِرَ علينا من السلام ، قال : فانصرف معه رسول الله ﷺ ـ أي : ذهب مع سعد إلى منزله ـ فأمر له سعد بغُسل ـ أي : ماء ليغتسل تبرداً ـ فوُضع ، فاغتسل رسولُ الله ﷺ ، ثم ناوله سعد ـ أو قال : ناوَلوه ـ مِلْحفةً مصبوغةً بزعفران وورس ، فاشتمل بها رسول الله ﷺ ، ثم رفع رسول الله ﷺ يديه وهو يقول : « اللهمَّ اجعلْ صلواتِك ورحمتَك على آل سعد بن عبادة » .

قال : ثم أصاب من الطعام ، فلما أراد رسول الله ﷺ الانصراف ، قرِّب إليه سعد حماراً ، قد وطَّأ عليه بقطيفة فركب رسول الله ﷺ .

فقال سعد : يا قيس اصحبْ رسولَ الله ﷺ ، قال قيس : فقال لي رسول الله ﷺ : « اركَبْ » ، فأبيتُ .

فقال : « إمّا أن تركَبَ ، وإما أن تنصرفَ » ـ أي : ترجعَ لمنزلك ـ قال قيس : فانصرفت .

وفي رواية ابن منده[1] : فأرسل سعد ابنَه قيساً مع رسول الله ﷺ ليردّ الحمار .

فقال رسول الله ﷺ لسعد : « احمِله ـ أي : احمل قيساً ـ بين يدي » أي : أمامي على الدابة .

فقال سعد : سبحان الله أتحمله بين يديك يارسول الله ؟ .

فقال ﷺ : « نعم ! هو أحقُّ بصدر حماره » .

(١) كما في (شرح المواهب) .

فقال سعد : هو لك يا رسول الله ، فقال ﷺ : « احمِلْه إذاً خلفي » .

فانظر إلى كمال لطفه وحسن معاشرته ، ورعايته للحقوق ، وإعطائه كلَّ ذي حق حقه ﷺ ! .

زياراته صلى الله عليه وسلم لضعفاء المسلمين عامة ولأهل الصفة خاصة

كان رسول الله ﷺ يزور ضعفاء المسلمين ، ويلاطفهم ويؤانسهم ، ويجلس معهم ، ويعود مرضاهم ، ويحضر جنائزهم ، وفي هذا تكريم لهم ، وتبريك عليهم ، ومواساة وإحسان إليهم ، ليشعروا بعزتهم وكرامتهم وسعادتهم .

فعن سهل بن حُنَيف رضي الله عنه قال : (كان رسول الله ﷺ يأتي ضعفاء المسلمين ، ويعود مرضاهم ، ويشهد جنائزهم)[1] .

وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال : جلستُ في عصابة ـ أي : جماعة ـ من ضعفاء المهاجرين ، وإن بعضهم ليستتر ببعضٍ من العُري ، وقارىء يقرأ علينا ، إذ جاء رسول الله ﷺ فقام علينا ، فلما قام رسول الله ﷺ ـ أي : وقف مشرفاً علينا ـ سكت القارىء ، فسلَّم رسول الله ﷺ ثم قال : « ما كنتم تصنعون ؟ » .

قلنا : نستمع إلى كتاب الله تعالى .

---

(١) عزاه في (الجامع الصغير) إلى الطبراني وأبي يعلى والحاكم رامزاً إلى صحته .

فقال : « الحمد لله الذي جعل من أمتي مَنْ أُمرتُ أن أصبر نفسي معهم » .

قال : فجلس ﷺ وسَطَنا ليعدِل نفسه فينا ـ ثم قال ﷺ بيده هكذا ـ أي : أشار إليهم ـ فتحلَّقوا وبرزتْ وجوههم له ، فقال : « أبشروا يا صعاليك ـ أي : فقراء ـ المهاجرين بالنور التامِّ يوم القيامة ، تدخلون الجنة قبل أغنياء الناس بنصف يوم ، وذلك خمسمائة سنة » .

وكانت صُفَّة المسجد النبوي مدرسةً للقرّاء ، يأوي إليها فقراء الصحابة ، ممن لا أهل لهم ، فيتدارسون القرآن ويتعلمون أمور الدين وأحكامه ، ثم يذهبون في نواحي البلاد ، ومختلِف الآفاق فيعلِّمون الناس ذلك .

تفقده ﷺ أصحابه في الليل واستماعه إلى قراءتهم

روى الشيخان عن أبي موسى رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إني لأعرف أصواتَ رُفقة الأشعريين بالليل حين يدخل ، وأعرف منازلهم من أصواتهم بالقرآن بالليل ، وإنْ كنتُ لم أرَ منازلهم حين نزلوا بالنهار » .

وروى أبو داود والترمذي عن أبي قتادة : (أن النبي ﷺ خرج ليلة فإذا هو بأبي بكر رضي الله عنه يصلي : يخفض من صوته ـ أي : بالقراءة ـ ، ومرَّ بعمر بن الخطاب وهو يصلي رافعاً ـ بالقراءة ـ فلما اجتمعا عند النبي ﷺ ، قال ﷺ : « يا أبا بكر مررتُ بك وأنت تصلي تخفِض صوتك » ـ أي : بالقراءة ـ .

فقال أبو بكر : قد أسمعتُ من ناجيتُ يا رسولَ الله .

فقال : « ارفعْ من صوتِك شيئاً » كما في رواية .

وقال لعمر : « مررتُ بك وأنت تصلي رافعاً صوتك » .

فقال عمر : يا رسول الله أُوقظ الوَسنان ، وأطردُ الشيطان .

فقال له ﷺ : « اخفِض شيئاً ») .

وفي رواية لأبي داود : قال ﷺ : « وقد سمعتُك يا بلال وأنت تقرأ من هذه السورة ، ومن هذه السورة ! » .

فقال بلال : كلام طيِّب يجمع الله بعضه إلى بعض .

فقال النبي ﷺ : « كلُّكم قد أصاب » .

وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال : اعتكف رسول الله ﷺ في المسجد ، فسمعهم يجهرون بالقراءة ، فكشف السِّتر وقال : « ألا إن كلّكم مناجٍ ربَّه ، فلا يؤذينَّ بعضُكم بعضاً ، ولا يرفعْ بعضُكم على بعضٍ في القراءة » .

أو قال : « في الصلاة » رواه أبو داود والترمذي وغيرهما .

ملاطفته ﷺ لجفاة الأعراب لئلا يفتتنوا

كان رسول الله ﷺ يتحمَّلُ جفوةَ الأعرابي ويلاطفه ، ويقابل غِلْظَتَه بلطيف المقال والحال ، وذلك لتثبيته ، أو من أجل أن لا يفتتن ، ويسلكُ بهم مسالك الرحمة واللين والتؤدة ، لئلا ينفِروا أو يشردوا .

ففي (الصحيحين) عن أنس رضي الله عنه قال : مشيتُ مع رسول الله ﷺ وعليه بُردٌ - أي : ثوب - نجراني غليظ الحاشية ، فأدركه

أعرابي فَجَبَذَه - أي : جذب الثوب - جَبْذَةً شديدة ، حتى نظرت إلى صفحة عنق رسول الله ﷺ وقد أَثَّرَ فيه - أي : في عنقه - حاشية البُرد ، من شدة جبذته ، ثم قال - الأعرابي - يا محمد : مُرْ لي من مال الله الذي عندك .

فالتفت إليه النبي ﷺ وضحك ، ثم أمر له بعطاء ! .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه : أنَّ أعرابياً جاء إلى رسول الله ﷺ يستعينه في شيء - فأعطاه رسول الله ﷺ شيئاً ثم قال له ﷺ : « أحسنتُ إليك ؟ » .

فقال الأعرابي : لا ، ولا أجملتَ ، فغضب بعض المسلمين وهمُّوا أن يقوموا إليه - فأشار رسولُ الله إليهم أنْ كُفُّوا .

فلما قام رسول الله ﷺ وبلغ إلى منزله دعا الأعرابيَّ إلى البيت . فقال : « إنما جئتَنا تسألُنا فأعطيناك فقلتَ ما قلتَ » فزاده رسول الله ﷺ شيئاً وقال : « أحسنْتُ إليك ؟ » .

فقال الأعرابي : نعم ، فجزاك اللهُ من أهلٍ وعشيرةٍ خيراً .

فقال النبي ﷺ : « إنك جئتنا فسألتَنا فأعطيناكَ ، فقلتَ ما قلتَ ، وفي نفس أصحابي عليك من ذلك شيء ، فإذا جئتَ فقل بين أيديهم ما قلتَ بين يديَّ حتى يذهب عن صدورهم » .

قال : نعم .

فلما جاء الأعرابي قال رسول الله ﷺ : « إنَّ صاحبَكم كان جاءنا فسألنا فأعطيناه ، فقال ما قال ، وإنا قد دعوناه فأعطيناه ، فزعم أنه قد رضي ، كذلك يا أعرابي ؟ » .

فقال الأعرابي : نعم جزاك الله من أهل وعشيرة خيراً .

فقال النبي ﷺ : « إنَّ مَثَلي ومثَلَ هذا الأعرابي كمثل رجل كانت له ناقة ، فشردَتْ عليه ، فاتَّبعها الناس ، فلم يزيدوها إلَّا نُفوراً ، فقال لهم صاحبُ الناقة : خلّوا بيني وبين ناقتي ، فأنا أرفق بها ، وأنا أعلم بها ، فتوجَّه إليها ـ صاحبها ـ وأخذ لها من قُشام الأرض ـ أي : من نبات الأرض ـ ودعاها حتى جاءت واستجابت ، وشدَّ عليها رحلها ؛ وإني لو أطعتُكم حيث قال ما قال لدخل النار »[1] .

عظيم تواضعه ﷺ مع أصحابه

قال الله تعالى : ﴿ واخفِضْ جناحَك للمُؤمنين ﴾ .

كان رسول الله ﷺ له المثل الأكمل في التواضع مع علوِّ مقامه ، وشرف جنابه ، ويتجلَّى تواضعه ﷺ في سائر أحواله الخاصة والعامة ، وأموره الخارجية ، والداخلية البيتيَّة .

(١) أورد هذا الحديث الحافظ ابن كثير في (تفسيره) آخر سورة التوبة وقال : رواه البزار ثم قال : لا نعلمه يروى إلا من هذا الوجه . قلت : وهو ضعيف بحال إبراهيم بن الحكم بن أبان والله أعلم . اهـ . وأورده في (مجمع الزوائد) ونبه على ضعفه . وقال العلامة الخفاجي في (شرح الشفاء) : ٢ : ١٧ : وهذا الحديث رواه البزار وأبو الشيخ بسند ضعيف عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وابن حبان في (صحيحه) وابن الجوزي في (الوفاء) اهـ .

فكان من تواضعه ﷺ أن يخدِم نفسه بنفسه :

قالت عائشة رضي الله عنها : (كان رسول الله ﷺ يَخيط ثوبَه ويخصِفُ نعلَه ، ويعملُ ما يعملُ الرجال في بيوتهم)[1] .

وفي رواية : (ويَرْقَعُ دلوه ، وَيَفْلي ثوبه ، ويحلب شاته ، ويخدِم نفسه ﷺ)[2] ، رواه أحمد وابن حبان وصححه وابن سعد .

ومن تواضعه ﷺ : أنه كان يركب الحمار ، ولا يخص نفسه بركوبِ الخيلِ ، كما هو عادة الملوك والأمراء :

روى الترمذي وغيره عن أنس رضي الله عنه أنه قال : (كان رسول الله ﷺ يعود المرضى ، ويشهدُ الجنائز ، ويركب الحمار ، ويجيب دعوة العبد ؛ وكان يوم بني قُرَيظة على حمار ، مخطوم بحبل من ليف ، وعليه إكاف من ليف)[3] .

ومن تواضعه ﷺ : أنه كان يُردِف وراءه بعض نسائه :

كما روى البخاري عن أنس رضي الله عنه قال : أقبلنا مع رسول الله ﷺ من خيبر ، وإني لرديف أبي طلحة وهو يسيرُ وبعضُ نساء

(١) أي : من الاشتغال بمهنة الأهل والنفس .

(٢) هذا لا ينافي أنه ﷺ كان يسمح لبعض أصحابه أن يخدمه كأنس وغيره ، ليتشرفوا بخدمته ويستفيضوا من بركاته ﷺ ، وليس ذلك من باب التعاظم والترفع .

(٣) يعني أنه ﷺ ذهب لحرب بني قريظة فركب حماراً خطامه ـ أي : زمامه ـ وإكافه ـ أي : بردعته ـ من ليف ـ والبردعة للدواب كالسرج للفرس . اهـ (حاشية الباجوري) .

رسول الله ﷺ رديفُ رسول الله ﷺ إذ عثَرت الناقة ، فقلتُ : المرأةَ ـ أي : وقعت المرأة أعينونا ـ فنزلتُ ، فقال رسول الله ﷺ : « إنها أُمُّكم »[1] فشددت الرحل ، وركب رسول الله ﷺ ، فلما دنا ـ أو : رأى المدينة ـ قال : « آيبون تائبون عابدون ، لربِّنا حامدون » .

بل كان يردف خلفه بعض أصحابه ، وصبيانَ أصحابه ، ولا يستنكف من ذلك كما تأنف الكبار والأمراء :

فقد روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : (أتى رسولُ الله ﷺ مكة وقد حمل قُثَمَ ـ ابن العباس ـ بين يديه ، والفضلَ ـ أخاه ـ خلفه ﷺ ، أو : قُثَمَ خلفه ، والفضل بين يديه ـ شكَّ الراوي ـ) .

وفي (الصحيحين) عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : كنتُ وراء النبي ﷺ ليس بيني وبينه إلَّا مُؤخِّرة[2] الرحل ، فقال : « يا معاذ بن جبل » .

قلت : لبَّيك رسول الله وسعْديك .

ثم سار ساعة ثم قال : « يا معاذ بن جبل » .

قلت : لبيك رسولَ الله وسعْديك .

ثم سار ساعة ثم قال : « يا معاذ بن جبل » .

(١) يذكرهم بوجوب التعظيم لها ، وكانت المرأة هي صفية بنت حيي أم المؤمنين رضي الله عنها .

(٢) بالتخفيف والتثقيل ، هي آخرة الرحل ، وهو العود الذي خلف الراكب ، والذي أمامه يسمى : قادمة الرحل ، ومقدمة الرحل .

قلت : لبيك رسول الله وسعديك .

قال : « هل تدري ما حقُّ الله على العباد ؟ » .

قال معاذ : قلت : الله ورسولهُ أعلم .

قال : « فإنَّ حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً » .

ثم سار ساعة ثم قال : « يا معاذ بن جبل » .

قلت : لبيك رسول الله وسعديك .

قال : « هل تدري ما حقُّ العباد على الله إذا فعلوا ذلك ؟ » .

قلت : الله ورسولُه أعلم .

قال : « أن لا يعذبهم » .

ومن تواضعه ﷺ : مِشْيته مع الأرملة والمسكين والأَمَة :

روى الشيخان عن أنس رضي الله عنه قال : جاءت امرأة إلى النبي ﷺ ـ وكان في عقلِها شيء ـ فقالت : إنَّ لي إليك حاجةً .

فقال ﷺ : « إجلسي في أيِّ سِكك ـ أي : طُرُق ـ المدينة شئتِ ، أجلسْ إليك حتى أقضيَ حاجتَكِ » .

وروى البخاري عن أنس رضي الله عنه قال : إنْ كانت الأَمَةُ لتأخذُ بيد رسول الله ﷺ فتنطلق به حيث شاءت ـ وفي رواية أحمد : فتنطلق به في حاجتها ـ أي : ليقضيَ لها حاجتها بنفسه الكريمة ﷺ .

وروى النسائي عن ابن أبي أوفى رضي الله عنه قال : (كان رسول الله ﷺ يُكثر الذِّكر ، ويُقلُّ اللَّغْوَ ، ويُطيل الصلاةَ ، ويقصِّر الخطبة ، ولا يأنفُ أن يمشي مع الأرملة والمسكين ، فيقضي لهما الحاجة) .

ومن تواضعه ﷺ وتكريمه لعباد الله المسلمين :

ما روى الإمام أحمد وغيره من حديث ابن عباس رضي الله عنهما في حجة النبي ﷺ : (أنَّ النبي ﷺ أتى السِّقاية فقال : « اسقوني » .

فقالوا : إنَّ هذا يخوضه الناس ، ولكنا نأتيك به من البيت .

فقال : « لا حاجة لي فيه ، اسقوني ممّا يشرب الناس . . . ») الحديث .

فانظر في هذا التواضع العظيم ، من صاحب الخلق العظيم ! لم يقبل أن يُؤتى بشرابٍ خاص له ﷺ ، وأبى إلاَّ أن يشربَ ممَّا يشربُ منه الناس ، ولو خاضتْ فيه أيديهم .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ كان يبعث إلى المطاهر[1] فيُؤتى بالماء فيشربه ، يرجو بركة أيدي المسلمين رواه الطبراني[2] .

ومن تواضعه ﷺ :

ما جاء في (سنن) الترمذي وأبي داود وغيرهما أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه استأذن رسول الله ﷺ في العمرة ، فأذن له وقال له : « يا أخي يا عمر أشْرِكني بدعائك ـ وفي رواية : لا تنسني من دعائك » .

---

(١) قال المناوي : المراد بالمطاهر هنا : الحياض والفساقي والبرك المعدة للوضوء . اهـ .

(٢) وأبو نعيم في (الحلية) ، كما في (الجامع الصغير) ، وقال الحافظ الهيثمي : رجاله موثقون ومنهم عبد العزيز بن أبي رواد ثقة نسب إلى الإرجاء . اهـ .

أمره ﷺ بالتواضع

روى الإمام مسلم عن عياض بن حمار في حديث طويل قال فيه رسول الله ﷺ : « وإنَّ الله تعالى أوحى إليَّ أن تواضعوا ، حتى لا يفخَرَ أحدٌ على أحد ، ولا يبغي أحدٌ على أحد » .

تواضعه صلى الله عليه وسلم
واختياره أن يكون نبياً عبداً لا نبياً ملكا

إنَّ من أعظم ما يدلُّ على تواضعه ﷺ : أنه لَمّا خيَّره الله تعالى بين أن يكون نبياً عبداً ، أو نبياً مِلكاً ، اختار العبدية تواضعاً لله تعالى .

روى الطبراني بإسنادٍ حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان رسول الله ﷺ ذات يومٍ وجبريلُ عليه السلام على الصفا ، فقال رسول الله ﷺ : « يا جبريل والذي بعثك بالحق ما أمسى لآل محمدٍ سَفَّة من دقيق ، ولا كَف من سَويق » .

فلم يكن كلامُه بأسرع من أن سمع هَدَّة من السماء أفزعته .

فقال رسول الله ﷺ : « أمرَ الله القيامة أن تقوم ؟ » .

فقال ـ جبريل ـ : لا ، ولكن أمرَ إسرافيلَ فنزل إليك حين سمع كلامك .

فأتاه إسرافيلُ فقال : إنَّ الله تعالى سمع ما ذكرتَ ، فبعثني إليك بمفاتيح خزائن الأرض ، وأمرني أن أَعْرِض عليك أن أسيِّرَ معك جبال تِهامة زُمُرُّداً وياقوتاً وذهباً وفضَّة ! فإن شئتَ نبياً مَلِكاً ، وإن شئتَ نبيّاً عبداً ؟ .

فأومأ إليه جبريل أَنْ تواضَعْ .

فقال ﷺ : « بل نبيّاً عبداً » ثلاثاً .

كذا في (ترغيب) المنذري وقال : رواه البيهقي في (الزهد) وغيره ، قال : ورواه ابن حبان في (صحيحه) مختصراً من حديث أبي هريرة ولفظه قال :

(جلس جبريل إلى النبي ﷺ فنظر إلى السماء فإذا ملَك ينزل ، فقال له جبريل : هذا الملك ما نزل منذ خُلِق قبل الساعة .

فلما نزل قال : يا محمد أَرسَلَني إليك ربُّك : أَملِكاً أجعلك أم عبداً رسولاً ؟ .

فقال له جبريل : تواضعْ لربِّكَ يا محمد .

فقال رسول الله ﷺ : « لا ، بل عبداً رسولاً ») . كذا في (الترغيب) .

قلت : وهذا اللفظ أيضاً واردٌ في (مسند) أحمد عن أبي هريرة أيضاً[1] .

ولا ريب أنَّ هناك فرقاً بين مقام الملكية والعبودية ، فإنَّ مقام الملكية يتطلَّب اتخاذ الجنود ، واتخاذَ الحجَّاب والخيول ، واتخاذ الخدم والقصور ، ويتطلب الانتقام لمن يتعرَّض بالأذى لنفس الملك .

وأمّا مقام العبوديَّة : فإنه يقتضي أن يخدِمَ نفسه ، وأن يكونَ في

(١) وقال الحافظ الهيثمي : رواه أحمد والبزار وأبو يعلى ورجال الأولين رجال الصحيح . اهـ .

معونة أهله ، تواضعاً منه ﷺ ، ويقتضي العفوَ والصفَّح عمَّن آذاه في نفسِه ﷺ ، أمّا إذا انتهكتْ حرماتُ الله تعالى فينتقم لله تعالى .

ولذلك كان يقول : « آكُلُ كما يأكل العبد »[1] أي : في القعود وهيئة التناول ، والرضا بما حضر تواضعاً لله تعالى وأدباً معه ، فلا آكُلُ متكئاً كما يفعل أهلُ الرفاهية والانبساط في الدُّنيا ونعيمها .

وكان يقولُ : « أجلِسُ كما يجلِس العبد » أي : لا كما تجلس الملوكُ الجبابرة ، فإنَّ التخلقَ بأخلاق العبودية أشرفُ الأوصاف البشرية .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال لي رسول الله ﷺ : « يا عائشةُ لو شئتُ لسارت معي جبال الذهب ! .

أتاني ملَكٌ إلى حجرة الكعبة فقال : إنَّ ربَّك يُقرئك السلامَ ويقول لك : إن شئتَ كنتَ نبياً ملِكاً ، وإنْ شئتَ نبياً عبداً .

فأشار جبريل : أن ضعْ نفسَك ـ أي تواضع ـ .

فقلتُ : نبياً عبداً » .

فكان بعدُ لا يأكُلُ متكئاً ، ويقول : « آكلُ كما يأكلُ العبدُ ، وأجلسُ كما يجلِسُ العبد » رواه أبو يعلى وابن حبان وابن سعد .

قال في (فيض القدير) : ورواه البيهقي عن يحيى بن أبي كثير مرسلاً ، وزاد : « فإنما أنا عبد » .

(١) قال العلامة المناوي : المراد هنا بالعبد : الإنسان المتذلل المتواضع لربه تعالى . اهـ .

ورواه هنّاد عن عمرو بن مرة وزاد : « فوالذي نفسي بيده لو كانت الدنيا تَزِنُ عند الله جناحَ بعوضةٍ ما سقى منها كافراً كأساً »[1] .

وفي (سنن) أبي داود وابن ماجه عن عبد الله بن بُسْر رضي الله عنه قال : كان للنبي ﷺ قصعةٌ ـ أي : إناء كبير يوضع فيه الثريد ليأكلَه الجماعة ـ يقال لها الغرّاء يحملها أربعة رجال ، فلما أَضْحَوا ـ أي : دخلوا في وقت الضُّحى بعد طلوعِ الشمس ـ وسجدوا ـ أي : صلُّوا ـ الضُّحى ، أُتي بتلك القصعة يعني وقد أُثْرِدَ فيها ـ أي : وُضع فيها الثريد ـ فالتفُّوا عليها ، فلما كثروا جثا رسولُ الله ﷺ ـ أي : جلس على ركبتيه ـ .

فقال أعرابي : ما هذه الجلسة ؟ .

فقال رسول الله ﷺ : « إنَّ الله جعلني عبداً كريماً ، ولم يجعلْني جباراًعنيداً » ثم قال رسول الله ﷺ : « كُلوا من جوانبِها ، ودعوا ـ أي : اتركوا ـ ذروتها ـ أعلاها ـ يُبارِكْ لكم فيها » .

ولما كان سيدنا محمد ﷺ هو أعظمَ من تحقق بمقامات العبدية والعبودية لله تعالى ، وهو أشرف مَن كمُلتْ له مراتبُها العالية : لذلك وصفه الله تعالى في أعلى مقاماته بالعبدية فقال سبحانه : ﴿ وأنَّهُ لَمَّا قامَ عبدُ الله يدعوهُ كادُوا يكونونَ عليه لِبَداً ﴾ .

وقال سبحانه في مقام إنزال الكتاب عليه : ﴿ الحمدُ لله الذي أنزل على عبدِه الكتابَ . . ﴾ الآية .

(١) انظر (فيض القدير) ١ : ٥٥ وقال : ولتعدد هذه الطرق رمز المصنف ـ السيوطي ـ لحسنه . اهـ .

وقال تعالى في مقام الفرقان والنصر والبرهان : ﴿ إنْ كنتمْ آمنتُم بالله وما أنزلنا على عبدنا يومَ الفرقانِ يومَ التقى الجمعان . . ﴾ الآية .

وقال تعالى في مقام التحدّي : ﴿ وَإنْ كنتُم في ريبٍ ممَّا نزَّلنا على عبدِنا فأْتوا بسورةٍ مِن مثلِه . . ﴾ الآية .

وقال تعالى في مقام الإسراء : ﴿ سبحانَ الَّذِي أَسرى بعبدِه ليلاً . . ﴾ الآية .

ولذلك كان هو ﷺ صاحبَ مقام الوسيلة ، الذي هو أعلى منزلة في الجنة ، فقد قال ﷺ : « . . ثم سلوا الله لي الوسيلة ، فإنها منزلةٌ ـ أي : خاصَّة ـ في الجنة لا ينبغي أن تكون إلَّا لعبد ، وأرجو أن أكون أنا هو ، فمن سأل الله لي الوسيلة حلَّتْ له شفاعتي يوم القيامة . . » الحديث كما في (صحيح) مسلم .

في عظيم حلمه وعفوه ﷺ

قال الله تعالى : ﴿ فاعفُ عنهم واصْفَحْ إنَّ الله يحبُّ المحسنين ﴾ .

وقال سبحانه : ﴿ فاعفُ عنهم وشاورْهم في الأمر ﴾ .

كان ﷺ عظيمَ الحلْم ، لا يُقابل السيئةَ بالسيئة ، بل يعفو ويغفر ، وما انتقم لنفسه من شيءٍ قط ، إلَّا أن تُنتهك حرمةُ الله ، فينتقم لله تعالى .

روى الشيخان وأبو داود عن عائشة رضي الله عنها قالتْ : (ما خُيِّر رسولُ الله ﷺ بين أمرين إلَّا أخذ أيسرَهما ما لم يكن إثماً ، فإن كان إثماً

كان أبعدَ الناس منه ، وما انتقم رسولُ الله ﷺ لنفسِه إلا أن تُنتهك حرمةُ الله ، فينتقم لله) .

ولقد اتسع حلمه ﷺ لجميع خلق الله تعالى ، حتى لأعدائه الذينَ آذوه .

فلما كانت غزوةُ أُحد وكُسرت رَباعِيَّته ﷺ ، وجُرح في شفته السفلى ، وشُجَّ في جبهته الشريفة حتى سال منه الدم ، فجعل ينشِّفه لئلا ينزل على الأرض ويقول ﷺ : « لو وقع منه شيءٌ على الأرض لنزلَ عليهم العذابُ من السماء » .

ولقد شقَّ ذلك على الصحابة فقالوا : لو دعوتَ عليهم .

فقال : « إنما لم أُبعث لعَّاناً ، ولكنْ بُعثتُ داعياً ورحمة ـ اللهم اغفر لقومي ـ وفي رواية : اللهُمَّ اهد قومي ـ فإنهم لا يعلمون » .

ومن مظاهر حلمِه وعظيم عفوه ﷺ : قصةُ زيد بن سَعنة أحدِ أحبار اليهود ، الذين أسلموا لرؤية تلك الآيات المحمدية ، والعلامات النبوية الجليَّة .

فقد ورد عن زيد بن سَعنة أنه قال : لم يبقَ من علامات النبوة إلَّا وقد عرفته في وجه محمد ﷺ حين نظرت إليه ، إلَّا اثنتين لم أخبرهما فيه : يسبقُ حلمُه جهلَه ، ولا تزيده شدَّةُ الجهل عليه إلَّا حلماً .

قال زيد بن سَعنة : فكنتُ أتلطَّفُ له ـ أي : لمحمد ﷺ ـ لأن أُخالطَه ، فأعرفَ حلمَه وجهلَه ، فابتعتُ ـ أي : اشتريت ـ منه تمراً إلى أجل فأعطيتُه الثمن ـ وفي رواية أبي نعيم : فأعطاه زيد قبل إسلامه

ثمانين مثقالاً ذهباً على تمر معلوم إلى أجل معلوم .

فلما كان قبل مجيء الأجل بيومين أو ثلاثة ، أتيتُ محمداً ﷺ فأخذتُ بمجامع قميصه ، ورداؤه على عنقه ، ونظرتُ إليه بوجهٍ غليظٍ ثم قلتُ : ألا تقضينَّ يا محمَّدُ حقي ؟ فوالله إنكم يا بني عبد المطلب مُطُل [1] .

فقال عمر : أيْ عدوَّ الله تقول لرسول الله ﷺ ما أسمع [2] ؟ فوالله لولا ما أُحاذرُ فَوْتَه [3] لضربتُ بسيفي رأسك !

قال : ورسولُ الله ﷺ ينظر إلى عمر بسكونٍ وتُؤَدَةٍ وتبسُّم .

ثم قال رسول الله ﷺ : « أنا وهو ـ أي : أنا وزيد ـ كنا أحوجَ إلى غير هذا منك يا عمر : أن تأمرني بحسن الأداء ، وتأمرَه بحسن التِّباعة » أي : المطالبة .

ثم قال ﷺ : « اذهبْ يا عمر فاقْضِه حقَّه وزِدْه عشرين صاعاً مكان ما رُعْتَهُ » أي : مقابل فزعه ، ففعل ذلك عمر .

قال زيد : فقلت : يا عمر كلُّ علاماتِ النبوَّة قد عرفتُها في وجه رسول الله ﷺ حين نظرتُ إليه ، إلَّا اثنتين لم أخبرهما : يسبقُ حلمُه جهلَه ، ولا تزيدُهُ شدَّةُ الجهل عليه إلا حلماً ، فقد اختبرتُه بهما ، فاشهدْ يا عمر أني قد رضيتُ بالله رباً ؛ وبالإسلام ديناً ، وبمحمد ﷺ نبيّاً .

(١) جمع ماطل ، أي : تؤخرون عن أداء الحق ، وتسوفون الموعد مرة بعد أخرى .

(٢) وفي رواية أبي نعيم : فنظر إليه عمر وعيناه تدوران في وجهه كالفلك المستدير .

(٣) أي : من بقاء الصلح بين المسلمين وبين قومه اليهود إذ ذاك .

وفي رواية : قال زيد : وما حملني على ما رأيتني صنعتُ يا عمر إلاَّ أني كنتُ رأيتُ صفاته التي في التوراة كلَّها إلاَّ الحلم ، فاختبرتُ حلمَه اليوم ، فوجدته على وصفِ التوراة ، وإني أُشهدُك أن هذا التمرَ وشطرَ مالي إلى فقراءِ المسلمين ، وأسلم زيد وأهل بيته كلهم إلاَّ شيخاً كبيراً غلبتْ عليه الشِّقْوة[1] .

ومن الوقائع التي يتجلَّى فيها عفوُه ﷺ وحلمه : تحمُّل أذى المؤذين ، وغلظةُ المغلظين ، ومقابلة ذلك بالسماحة والصفح .

روى أبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : حدثنا رسول الله ﷺ يوماً ثم قال : فقمنا حين قام ، فنظرنا إلى أعرابي قد أدركه فجذبه ـ وفي رواية : فجبذه ـ بردائه جَبْذَةً شديدة ، فحمَّرَ رقبتَه ﷺ ـ أي : صار فيها حمرة من أثر الجذبة ـ وكان رداءً خَشِناً ، فالتفتَ النبي ﷺ إلى الأعرابي فقال له الأعرابي : احملني على بعيريَّ هذين ـ أي : حمِّلْهما طعاماً ـ من مال الله الذي عندك ، فإنك لا تحملني من مالك ولا من مال أبيك !

فقال له ﷺ : « لا ، وأستغفر الله » أي : لا أحملك من مالي ولا مال أبي .

وفي رواية البيهقي : فسكت النبي ﷺ ثم قال : « المالُ مال الله ،

(١) قال في (شرح المواهب) : روى هذا الحديث الطبراني وابن حبان ، والحاكم والبيهقي ، وأبو الشيخ وغيرهم ، برجال ثقات عن عبد الله بن سلام عن زيد بن سعنة . اهـ .

وأنا عبده ، لا ، وأستغفر الله ، لا أحملك حتى تُقيدَني[1] من جَبْذَتِك التي جبذتني » .

فقال له الأعرابي : والله لا أُقيدُكَها .

فقال له النبي ﷺ : « لِمَ ؟ » .

فقال له الأعرابي : لأنك لا تكافىء بالسيئة السيئة .

فضحك النبي ﷺ ، ثم دعا رسول الله ﷺ رجلاً ـ وهو عمر كما في رواية ـ فقال له : « احمل له على بعيريه هذين : على بعير تمراً ، وعلى الآخر شعيراً »[2] .

فكان ﷺ إذا أُوذي في نفسه عفا وصفَح ، ولكن إذا انتهكت حرمةُ جانبٍ من جوانب دين الله تعالى انتقم لله تعالى :

فلما شج وجهه الشريف يوم أحد عفا وقال : « اللهمَّ اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون » .

ولما شغلوه عن الصلاة يوم الخندق لم يَعْفُ بل قال ﷺ : « ملأَ الله بيوتَهم وقبورَهم ناراً ، كما شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس . . » الحديث كما في (الصحيحين) .

(١) أي : تمكنني من القود ، وهو القصاص من نفسك ، فأفعل معك مثل ما فعلت من جذب الرداء بشدة .

(٢) رواه أبو داود والبيهقي وأصله في البخاري .

غضبه ﷺ لله تعالى
وشدته لأمر الله تعالى

كان ﷺ يغضب لله تعالى ويرضى لرضاه ، لم يكن تُغْضبه الدنيا ولا ما كان لها ، ولم يكن يغضب لنفسِه ، بل كان يغضبُ لربِّه تعالى .

وقد جاء في حديث هند بن أبي هالة الذي رواه الترمذي وغيره يصف النبيَّ ﷺ : (لا تغضبه الدنيا وما كان لها ؛ فإذا تُعُرِّضَ للحق لم يعرفْه أحد ، ولم يُقَمْ لغضبه شيء حتى ينتصرَله ، لا يغضبُ لنفسه ، ولا ينتصرُ لها . . .) الحديث .

ومن استقرأ الأسباب التي كان يغضب من أجلِها ﷺ يجدها كلَّها ترجعُ إلى أن ذلك كلَّه كان لله تعالى ، ومِنْ أمر الله تعالى ، وانتصاراً لدين الله تعالى ، وانتصاراً للحقِّ الذي شرعه الله تعالى .

فمن ذلك : غضبه ﷺ حين رأى في البيت قِراماً فيه الصُّور :

كما في (الصحيحين) عن عائشة رضي الله عنها قالت : دخل عليَّ النبي ﷺ وفي البيت قِرام ـ أي : سِتر ـ فيه صُوَر ، فتلوَّن وجهه ﷺ ـ أي : من الغضب ـ ثم تناول السِّتر فهتكه ، قالت : وقال النبي ﷺ : « مِن أَشدِّ الناسِ عذاباً يومَ القيامة الذين يُصَوِّرُونَ هذه الصُّوَر » .

ومن ذلك : غضبه ﷺ من العمل الذي ينفِّرُ المؤمن :

كما في (الصحيحين) وغيرهما عن أبي مسعود رضي الله عنه قال :

أتى رجل النبي ﷺ فقال : يا رسول الله إني لأتأخر عن صلاة الغداة من أجل فلان ، مما يطيل بنا ـ أي : يُطيل الصلاة بنا ـ قال أبو مسعود : فما رأيتُ رسول الله ﷺ قطُّ أَشدَّ غضباً في موعظةٍ منه يومئذٍ .

فقال ﷺ : « يا أيها الناس إن منكم منفِّرين ، فأَيُّكم ما صلَّى بالناس فليتجوَّز ـ أي : فليخفِّف ـ فإنَّ فيهم المريضَ والكبيرَ وذا الحاجَة » .

ومن ذلك : غضبه ﷺ لما رأى النخامة في قِبلة المسجد :

كما في (الصحيحين) وذلك لأنَّ المساجد ينبغي أن يحرص المسلم على نظافتها وكرامتِها ، ولا يجوز إلقاء الوسخ فيها والوخامة ، كما تقدَّم في أمر النبي ﷺ بنظافة المساجد .

ومن ذلك : غضبه ﷺ من شدة الإثقال والإحراج وشدَّة الإلحاح :

ففي (صحيح) البخاري وغيره عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال : احتجر رسول الله ﷺ حجيرة بخَصَفة أو حصيراً ، فخرج رسول الله ﷺ يصلي إليها ـ أي : يصلي نافلةً ـ فتتبَّع إليه رجال ، وجاؤوا يصلُّون بصلاته ، ثم جاؤوا ليلةً فحضروا ، وأبطأ رسولُ الله ﷺ عنهم ، فلم يخرجْ إليهم ـ أي : بل صلى تلك النافلة في بيته ـ فرفعوا أصواتهم ، وحصبوا الباب .

فخرج إليهم مُغضَباً فقال لهم رسولُ الله ﷺ : « ما زال بكم صنيعكم حتى ظننتُ أنه سيكتبُ عليكم ، فعليكم بالصلاة ـ أي :

النافلة ـ في بيوتكم ، فإنَّ خيرَ صلاةِ المرء في بيتِه إلَّا الصلاة المكتوبة » أي : المفروضة .

قال الحافظ في (الفتح) : والظاهر أن غضبه ﷺ لكونهم اجتمعوا بغير أمره ، فلم يكتفوا بالإشارة منه ، لكونه لم يخرجْ عليهم ، بل بالغوا فحصبوا بابه وتتبَّعُوه ؛ أو غضبَ لكونه تأخَّر إشفاقاً عليهم لئلَّا تُفرض عليهم ، وهم يظنُّون غير ذلك . اهـ .

شدة غضبه ﷺ

لم تخرجه عن الحق وصواب القول والعمل

إنَّ حالةَ الغضب تضطَّربُ فيها النفس ، ويتغيَّر فيها المزاج ، فربما يخرجُ الغضبان في تلك الحالة عن صواب القول والعمل ؛ ولذلك ورد في (مسند) أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « عَلِّموا ويَسِّروا ، علِّموا ويسِّروا ـ ثلاث مرات » .

قال : « وإذا غضبتَ فاسكُتْ » قالها ثلاثاً ـ وقد جاء ذلك في (الأدب المفرد) أيضاً .

إلَّا أن الله تعالى حفِظَ نبيَّه سيدنا محمداً ﷺ من جميع ما هنالك ، فلم يكن غضبه ﷺ يُخرجه عن الحقِّ ، ولا عن كمال الاعتدال في جميع أموره القولية والعملية :

روى أبو داود عن عبد الله بن عمرو قال : كنتُ أكتبُ كلَّ شيءٍ أَسمعُه من رسول الله ﷺ أُريد حفظَه ، فنهتني قريشٌ وقالوا : أَتكتب

كل شيءٍ تسمعه ـ أي : من رسول الله ﷺ ـ ورسول الله ﷺ ، بشرٌ يتكلَّم في الغضب والرضا ! فأمسكتُ عن الكتابة ـ فذكرتُ ذلك للنبيِّ ﷺ ، فأومأ بأصبعه إلى فيه ـ أي : فمه ـ فقال : « اكتبْ ، فو الذي نفسي بيده ما يخرجُ منه إلَّا حَق » .

وفي رواية الدارمي : فقال : « اكتب فو الذي نفسي بيده ما خرج منه إلَّا حق » .

في عظيم كرمه ﷺ

قال أنس رضي الله عنه : (كان رسول الله ﷺ أحسنَ الناس ، وأجودَ الناس ، وأشجعَ الناس) رواه الشيخان .

وهذه الأوصاف الثلاثة هي من أُمَّهات الكمالات فهو ﷺ أحسنُ الناس صورةً ومعنىً ، وجمالاً وكمالاً ، وهو أشجعُ الناس قلباً ، وهو أجودُ الناس ، وأنفعُهم للناس ، وهذا الجود الذي اتَّصفَ به ﷺ إنما هو لله تعالى ، وفي الله تعالى ، وابتغاء مرضاة الله تعالى ـ ولذلك كانت مصارفُ جوده ﷺ :

منها ما هو من الإنفاق في الجهاد في سبيل الله تعالى .

ومنها من الإنفاق على الفقراء والمساكين والمحتاجين .

ومنها ما هو لتألُّف قلوب المؤلَّفة ، تمكيناً لهم وتثبيتاً .

روى مسلم عن أنس رضي الله عنه قال : (ما سُئل رسول الله ﷺ شيئاً إلَّا أعطاه ، فجاء رجل ـ وهو صفوان بن أمية ـ فأعطاه غنماً بين

جبلين ، فرجع إلى قومه فقال : يا قوم أسلموا ، فإنَّ محمداً يعطي عطاء من لا يخاف الفقر) .

وفي رواية : (مَن لا يخشى الفقر) .

وأعطى ﷺ يوم حنين أناساً من الطُّلَقاء ليتألف قلوبهم على الإسلام ، أعطاهم مائةَ مائةٍ من الإبل ، وكان من جملة من أعطى : مالك بن عوف فامتدحه بقصيدة .

وروى الترمذي عن سعيد بن المسيب عن صفوان بن أمية أنه قال : لقد أعطاني رسول الله ﷺ ما أعطاني ، وإنه لأبغضُ الناس إليَّ ، فما برح يعطيني حتى إنه لأحبُّ الناس إليَّ .

وفي (مغازي) الواقدي أن صفوان طاف معه ﷺ يتصفَّح الغنائم يوم حنين ، إذ مرَّ بشِعْبٍ مملوءٍ إبلاً وغنماً ، فأعجبه فجعل ينظر إليه .

فقال ﷺ : « أعجبك هذا الشعب يا أبا وهب ؟ » قال : نعم .

فقال : « هو لك بما فيه » .

فقال صفوان : أشهد أنك رسول الله ، ما طابتْ بهذا نفس أحد قطُّ ، إلاَّ نفس نبيّ .

وكان من جوده ﷺ : أنه ما سأله سائل مما عنده إلاَّ أعطاه ، حتى لا يبقى عنده شيء ﷺ .

روى الترمذي أن النبي ﷺ حُمل إليه تسعون ألف درهم ووُضعت على حصير ، ثم قام إليها يقسمها ، فما ردَّ سائلاً حتى فرغ منها .

وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال : سأل ناس من الأنصار رسول الله ﷺ فأعطاهم ما سألوه ، ثم سألوه فأعطاهم ما سألوه ، ثم سألوه فأعطاهم ما سألوه ، حتى إذا نفِد ما عنده قال :

« ما يكون عندي من خير فلن أَدَّخرَه عنكم ، ومَنْ يستعْفِفْ يعفَّه الله ، ومَنْ يستغْنِ يُغْنِه الله ، ومَنْ يتصبَّرْ يُصَبِّرْه الله ، وما أُعطيَ أحدٌ عطاءً هو خيرٌ له وأوسع من الصبر » رواه الستة .

وكان ﷺ كريمَ النفسِ ، يكرمُ السائلَ بنفسه ، ولا يأنفُ أن يقومَ إلى السائل فيعطيه الصدقة ، بل كان لا يَكِلُ صدقتَه إلى غير نفسه حتى يكون هو الذي يضعها في يد السائل :

روى ابن ماجه عن عائشة رضي الله عنها قالت : (ما رأيتُ رسول الله ﷺ يَكِلُ صدقَتَه إلى غير نفسه ، حتى يكون هو الذي يضعها في يد السائل) .

وروى ابن سعد عن زياد مولى عياش بن أبي ربيعة قال : خَصلتان كان لا يَكِلُهما رسول الله ﷺ لأحد : الوضوء من الليل حين يقوم ، والسائل : يقوم ﷺ حتى يعطيَه[1]) .

وكان من كرمه ﷺ : إذا لم يكن عنده ما يفي بحاجة المحتاج : أمره ان يستقرضَ عليه ﷺ :

ففي (سنن) أبي داود والبيهقي عن عبد الله الهوزني قال : لقيت بلالاً فقلت : يا بلال حدِّثني كيف كانت نفقةُ رسول الله ﷺ ؟

(١) انظر (التراتيب) : ١ : ٣١

قال : (ما كان له شيء ،وكنتُ أنا الذي أَلي ذلك منه ـ أي : أنا المتولِّي أمر ماله ﷺ ـ منذ بعثه الله تعالى حتى توفي ، وكان عليه الصلاة والسلام إذا أتاه الإنسان مسلماً فرآه عارياً ، يأمرني فأنطلقُ فأستقرضُ فأشتري له البردةَ فأكسوه وأُطعمه) .

وروى الترمذي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، أنَّ رجلاً أتى إلى النبي ﷺ فسأله أن يعطيَه .

فقال النبي ﷺ : « ما عندي شيء ، ولكن ابْتَعْ عليَّ ، فإذا جاءني شيءٌ قضيتُه » .

فقال عمر : يا رسول الله قد أعطيتَه ! فما كلفك الله ما لا تقدر عليه .

فكره ﷺ قول عمر ـ فقال رجل من الأنصار : يا رسول الله أنفقْ ولا تخفْ من ذي العرش إقلالاً .

فتبسَّمَ رسولُ الله ﷺ ، وعُرف في وجهِه البِشْر بقول الأنصاري ، ثم قال ﷺ : « بهذا أُمِرتُ » .

بل كان ﷺ من عظيم كرمه ما سُئِل شيئاً قطُّ فقال : لا :

كما روى الترمذي عن جابر رضي الله عنه قال : (ما سُئِل رسول الله ﷺ شيئاً قطُّ فقال : لا) .

وفي (الصحيحين) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (كان رسول الله ﷺ أجودَ الناس ، وكان أجود ما يكون في رمضان ، حين يلقاه جبريل ، وكان ـ جبريل ـ يلقاه في كلِّ ليلة من رمضان فيدارسُه

القرآن ، فلَرسول الله ﷺ أجود الناس بالخير من الريح المرسلة)

ومن هذا وغير هذا ، يتبين لكل عاقل أنَّ النبيَّ ﷺ كان أكرمَ خلق الله تعالى أجمعين ، لا يجارَى في كرمه ، ولا يساوى ، بل ولا يدانى ، ولقد بلغ من كرمه ﷺ أنه كان يبذل المال مرةً للفقير والمحتاج ، ومرَّةً في سبيل الله والجهاد ، وتارةً يتألَّفُ به فيعطي عطاءً تعجِزُ الملوكُ عنه ، حتى لا يبقى عنده قوتُ ليلة ، فيطوي جائعاً هو ﷺ وأزواجُه كلُّهنَّ لا يجدنَ قوتَ ليلةٍ ، وقد اخترنَ ذلك لَمَّا خَيَّرهُنَّ ، ورضين بذلك .

وربما اشتدَّ عليه الجوع أحياناً ، فيربط على بطنه الحجر ﷺ كما ثبتَ في الحديث الذي رواه الترمذي وغيره ، كما سيأتي ذلك بعد إن شاء الله تعالى .

ومن ثَمّ كان ﷺ أجودَ الناس كلِّهم حقاً ، كما وصفه ابن عباس بقوله : (كان رسول الله ﷺ أجود الناس) .

في عظيم شجاعته ﷺ

قال سيدُنا علي رضي الله عنه في وصفه للنبيِّ ﷺ : (كان رسول الله ﷺ أجودَ الناس صدراً ، وأشجعَهم قلباً ، وأصدقَهم لهجةً ، وألينَهم عريكةً ، وأكرَمَهم عِشْرةً) الحديث كما تقدَّم .

وكان ﷺ إذا اعترت الصحابةُ المخاوفَ ، أسرعَ بنفسه إلى كشفِها وإزالتها :

قال أنس رضي الله عنه : (كان رسولُ الله ﷺ أحسنَ الناس ،

وأجودَ الناس ، وأشجعَ الناس ، ولقد فزع أهلُ المدينة[1] ذاتَ ليلةٍ ، فانطلق ناس قِبَلَ الصَّوت ، فتلقَّاهم رسول الله ﷺ راجعاً ، وقد سبقهم إلى الصوت ، واستبرأَ الخبر[2] على فرسٍ لأبي طلحة عُرْيٍ[3] ، والسيف في عنقه ﷺ وهو يقول : « لَن تُراعُوا »[4]) رواه الشيخان .

وفي رواية : أنَّ الفرس كان يَبْطُؤُ[5] ـ أي : لا يُسرع ـ فلما ركبه النبي ﷺ صار سريعاً ، وقال : « وجدناه بحراً » أي : سريع الجري .

وقال ابن عمر رضي الله عنهما : (ما رأيتُ أشجعَ ولا أنجدَ[6] ولا أجودَ ولا أرضى من رسول الله ﷺ) رواه أحمد وغيره .

وكان أصحابُ النبيِّ إذا أَلَمَّتْ بهم الملمَّات ، وأحاطتْ بهم المخاوف ، لاذوا بجنابه الرفيع ، واحتموا بحماه المنيع ﷺ .

قال سيدنا علي رضي الله عنه : (كنا ـ أي : معشر الصحابة ـ إذا حَمِيَ البأس ـ وفي رواية : إذا اشتدَّ البأس ـ واحمرَّت الحَدَقُ اتَّقينا برسول الله ﷺ ، فما يكون أحدٌ أقربَ إلى العدوِّ منه ، ولقد رأيتُني يومَ

(١) وذلك من صوت سمعوه .
(٢) أي : كشف الخبر وعرفه .
(٣) أي : ليس على الفرس سرج ولا أراة .
(٤) قال الحافظ الزرقاني : « لن » هنا بمعنى : لم ، أي : ليس هنالك شيء تخافونه ، والعرب قد تضع « لن » و « لم » موضع لا .
(٥) قال الزرقاني : بفتح الياء وسكون الموحدة وضم الطاء مخففاً وبالهمز .
(٦) أي : ولا أكثر نجدة منه ﷺ .

بدر ونحن نلوذُ بالنبيِّ ﷺ وهو أقربُنا إلى العدوِّ ، وكان من أشدِّ الناس يومئذٍ بأساً على الأعداء) .

وفي (صحيح) مسلم أنَّ البراء بن عازب كان يقول : الشجاع هو الذي يقربُ من النبي ﷺ إذا دنا العدوُّ ـ أي : من المسلمين عند المقاتلة ـ لقربه ﷺ من العدو ـ أي : في شدَّة المعارك .

ولقد ثبت ﷺ يوم حنين ، وثبَّتَ قلوبَ الصحابة ، وتقدَّم نحو صفوفِ العدو ، وهو على بغلته ، غير مبالٍ ولا هيَّاب ، ويقولُ بكلِّ جراءة وثبات : .

أَنـا الـنـبـي لا كَـذِبْ
أنـا ابن عبـد المـطَّلب[1]

أي : أنا لستُ بكاذبٍ فأنهزم ، بل أنا النبي الصادق المؤيَّد بتأييد الله تعالى ونصره ، والواثق كل الثقة بعزَّتِه سبحانه وقدرته ونصرته .

وروى البيهقي في (الدلائل) عن عروة بن الزبير[2] أنَّ أُبيَّ بن خلف المشركَ قال يوم أُحد : أين محمد ؟ لا نجوتُ إن نجا ـ وقد كان أُبي يقول للنبي ﷺ حين افتدى يوم بدر : عندي فرسٌ أعلِفُها كلَّ يومٍ فَرَقاً ـ أي : مِكْيالاً كبيراً ـ مِن ذُرَةٍ ، أقتلك عليها .

(١) عزاه المنذري في (الترغيب) إلى الإمام مسلم وأبي داود والترمذي .
(٢) قال العلامة الخفاجي في (شرح الشفاء) : هذا الحديث صحيح رواه البيهقي عن عروة وسعيد بن المسيب مرسلا وعبد الرزاق في (مصنفه) ، والواقدي في (مغازيه) ، وابن سعد في (طبقاته) . اهـ .

فقال له النبي ﷺ : « أنا أقتلك إن شاء الله » .

فلما رآه ـ أي : رأى أُبي النبيَّ ﷺ ـ يوم أُحد ، شدَّ أُبي بن خلف على فرسه ، على رسول الله ﷺ ، فاعترضه رجال من المسلمين .

فقال رسولُ الله ﷺ هكذا ـ أي : تنحُّوا ولا تحولوا بيني وبين أُبيّ بن خلف ـ وتناول النبي ﷺ الحربة من الحارث بن الصِّمَّة الصحابي ، فانتفض النبي ﷺ بها انتفاضة ـ أي : قام بالحربة قومةً سريعةً ـ تطايروا ـ أي : أُبي بن خلف ومن معه من الكفار تفرَّقوا فارّين بسرعةٍ كالطيور ـ تطايُر الشَّعْراء ـ أي : الذبابة عن ظهر البعير إذا انتفض ـ ثم استقبل النبي ﷺ أُبيّ بنَ خلف بالحربة ، فطعنه في عنقه طعنةً تدأدأ ـ أي : سقط ـ منها عن فرسه مراراً ـ وقيل : بل كُسر ضلَعٌ من أضلاعه .

فرجع أُبي بن خلف إلى قريش وهو يقول : قتلني محمد ﷺ .

وهم يقولون : لا بأس بك .

فقال لهم : لو كان ما بي ـ من الألم والشدة ـ بجميع الناس لقتلهم ، أليس قد قال : أنا أقتلك ؟ والله لو بصقَ عليَّ محمد لقتلني ـ ثم مات أُبي بن خلف بسَرِف في قفولهم إلى مكة ـ أي : حين رجع الكفار إلى مكة .

صبره ﷺ على أذى المشركين
وتحمله الشدائد في سبيل الله تعالى

قال الله تعالى : ﴿ فاصبرْ كما صبرَ أُولوا العزْمِ من الرُّسُل ولا تستعجِلْ لهم . . ﴾ الآية .

كان صبرُه ﷺ في سبيل الله تعالى يفوقُ صبرَ الصابرين ، وتحمُّله لأنواع أذى المعاندين له يعلو تحمُّل العالمين ، فكم لقي من سفهاء قريشٍ وأَشِدَّائهم من الغلظة والسفاهة والجفاء والشدَّة ؟! ولا ريب أنَّ الكلامَ البذيء المسيء له كِلام في أصحابِ النفوس الأبيَّة ، والأخلاق الرضيَّة ، ويتأثرون به أضعافَ ما يتأثر به غيرهم ، وإنَّ الأفعال المؤذية لتعملُ في نفوسهم أضعافَ ما تعملُ في غيرهم ، ممن لا خلاق له ولا خُلُق ؛ فما ظنُّك بنفسية سيدنا رسول الله ﷺ التي هي مجمع الكمال والأفضال ومصدرها ؟! وما ظنك بتأثره من الكلام المؤذي ، والفعل المسيء إليه .

روى الإمام أحمد والترمذي عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لقد أُخِفْتُ في الله وما يُخاف أحد ، ولقد أُوذيتُ في الله وما يؤذى أحد ، ولقد أتتْ عليَّ ثلاثون من بين يوم وليلة وما لي ولبلال طعامٌ يأكلُه ذو كبِدٍ إلَّا شيءٌ يواريه إبِط بلال »[1] .

وكان المشركون يتصدَّون له بالعداوة ويقابلونه بأنواع الأذى بجموعهم وجماهيرهم وبأفرادهم ، ونسائهم وصبيانهم .

روى الطبراني عن الحارث بن الحارث قال : قلت لأبي : ما هذه الجماعة ؟

قال : هؤلاء القوم الذين اجتمعوا على صابئٍ لهم .

---

(١) قال في (الترغيب) : رواه الترمذي وابن حبان في (صحيحه) ، وقال الترمذي : حسن صحيح . اهـ .

قال : فنزلنا فإذا رسول الله ﷺ يدعو الناس إلى توحيد الله عزَّ وجل والإيمان ـ وهم يردُّون عليه ويؤذونه ، حتى انتصف النهار ، وانصدع الناس عنه .

فأقبلت امرأة قد بدا ـ أي : ظهر ـ نحرها ـ أي : صدرها ـ وهي تحمل قَدَحاً ومنديلاً ، فتناوله ﷺ منها فشرب وتوضأ ، ثم رفع رأسه فقال : « يا بنيَّة خمِّري عليك ـ أي : غطِّي ـ نحرَك ولا تخافي على أبيك » .

قلنا : مَن هذه ؟ قالوا : هذه زينب بنته رضي الله عنها[1] .

وعن عروة بن الزبير عن عبد الله بن عمرو قال : قلت له : ما أكثرَ ما رأيتَ قريشاً أصابت من رسول الله ﷺ فيما كانت تُظهِرُ من عداوته ؟

قال : حضرتُهم وقد اجتمعَ أشرافُهم في الحِجْر فقالوا : ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من هذا الرجل قطُّ ، سفَّه أحلامَنا ، وشتمَ آباءَنا ، وعابَ دينَنا ، وفرَّق جماعتَنَا ، وسبَّ آلهَتنا ! لقد صبرنا منه على أمرٍ عظيم !

فبينما هم في ذلك إذْ طلعَ عليهم رسول الله ﷺ ، فأقبل يمشي حتى استقبل الركنَ ، ثمَّ مرَّ بهم طائفاً بالبيت ، فلما مرَّ بينهم غمزوه ببعض ما يقول ـ قال : فعرفتُ ذلك في وجهه ، ثم مضى ، فلمَّا مرَّ بهم الثانية غمزوه بمِثلها ، فعرفتُ ذلك في وجهه ، ثم مضى ، فلما مرَّ بهم الثالثةَ فغمزوه بمثلها .

(١) قال الحافظ الهيثمي : رجاله ثقات . اهـ .

فقال ﷺ : « أتسمعون يا معشر قريش ؟ أما والذي نفسُ محمد بيده لقد جئتكم بالذَّبح » أي : القتل .

فأخذتِ القومَ كلمتُه حتى ما منهم رجل إلَّا على رأسه طائر واقع ، حتى إن أشدهم فيه وصاة ـ أي : توصية بإيذائه ـ قبل ذلك ليرفَؤه[1] بأحسن ما يجدُ من القول ، حتى إنه ليقول : انصرف يا أبا القاسم ، انصرف راشداً ، فو الله ما كنتَ جَهُولاً .!

فانصرف رسول الله ﷺ حتى إذا كان الغد اجتمعوا في الحِجْر وأنا معهم ، فقال بعضهم لبعضٍ : ذكرتم ما بلغ منكم وما بلغكم عنه ، حتى إذا باداكم ـ أي : جاهركم محمد ﷺ ـ بما تكرهون تركتموه ؟!

فبينما هم في ذلك إذْ طلع عليهم رسولُ الله ﷺ ، فوثبوا إليه وثبةَ رجلٍ واحد ، فأطافوا به يقولون : أنتَ الذي تقول كذا وكذا ؟ لما كان يبلغهم من عيب آلهتِهم ودينهم .

قال : فيقول رسول الله ﷺ : « نعم ، أنا الذي أقول ذلك » .

قال : فلقد رأيتُ رجلاً منهم أخذ بمجْمع ردائه ﷺ ، وقام أبو بكر دونه يقول : أَتقتلون رجلاً أن يقولَ ربي الله ؟ ثم انصرفوا عنه .

قال : فإن ذلك لأشدُّ ما رأيتُ قريشاً بلغتْ منه قطُّ[2] .

(١) أي : صار يسكن رسول الله ﷺ ويرفق به ، ويتودد له خوفاً مما قاله لهم .

(٢) قال الحافظ الهيثمي في (مجمع الزوائد) : قلت : في الصحيح طرف منه ، رواه أحمد وقد صرح ابن إسحاق بالسماع ، وبقية رجاله رجال الصحيح . اهـ من الجزء السادس .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : بينا رسول الله ﷺ يصلِّي عند البيت ، وأبو جهل وأصحابه جلوس ، وقد نُحرت جزور ـ أي : بعير ـ بالأمس ، فقال أبو جهل : أيُّكم يقومُ إلى سَلا ـ أي : كرِش ـ جزور بني فلان فيضعه بين كتفي محمد إذا سجد ؟

فانبعث أشقى القوم ـ عقبة بن أبي مُعَيط ـ فأخذه ، فلما سجدَ النبيُّ ﷺ وضعه ـ أي : وضع كرِش البعير بين كتفيه ـ ﷺ ـ فاستضحكوا ، وجعل بعضهم يميل على بعض .

قال ابن مسعود : وأنا قائم أنظر ؛ لو كانت لي مَنَعة ـ أي : قوة أو جماعة ـ طرحتُه عن ظهره ﷺ ، والنبي ﷺ ساجدٌ ما يرفع ، حتى انطلق إنسان فأخبر فاطمة رضي الله عنها فجاءت ـ وهي جُويرية ـ فطرحتْه عنه ﷺ ثمَّ أقبلت عليهم تشتمهم .

فلما قضى النبي ﷺ صلاته رفع صوته ثم دعا عليهم ، وكان إذا دعا دعا ثلاث مرات ، وإذا سأل سأل ثلاثاً .

ثم قال ﷺ : « اللهم عليك بأبي جهل بن هشام ، وعتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، والوليد بن عتبة ، وأمية بن خلف ، وعقبة بن أبي معيط » وذكر السابع ولم أحفظه ، فو الذي بعث محمداً ﷺ بالحقِّ لقد رأيتُ الذين سمَّى صَرْعى يوم بدر ، ثم سحبوا إلى القليب ـ أي : البئر ـ قليب بدر ، رواه الشيخان .

ولما مات عمه ﷺ أبو طالب اشتدَّ إيذاءُ المشركين للنبي ﷺ ، وقابلوه بأنواع العداوة والشدائد ، فتوجه ﷺ إلى الطائف لعل ثقيفاً

يكونون له رِدْءاً وعوناً وأنصاراً على قومه في مكة ، فإذا بهم يقابلونه أسوأ مقابلة ويردُّون عليه أقبح ردٍّ ، وإنما قَصَدهم ـ كما قال المقريزي ـ لأنهم كانوا أخوالَه ، ولم يكن بينه وبينهم عداوة .

روى الشيخان عن عائشة رضي الله عنها قالت : قلتُ يا رسول الله : هل أتى عليك يومٌ أشدَّ من يوم أُحُدٍ ؟

قال ﷺ : « لقد لقيتُ من قومِكِ ما لقيتُ ، وكان أشدُّ ما لقيتُ منهم يوم العقبة ، إذْ عرضتُ نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كُلال ، فلم يجبني إلى ما أردتُ ، فانطلقتُ وأنا مهمومٌ على وجهي ، فلم أَستفِقْ إلَّا وأنا بقَرْن الثعالب[1] ، فرفعتُ رأسي فإذا أنا بسحابةٍ قد أَظلَّتْني ، فنظرتُ فإذا فيها جبريل عليه السلام ، فناداني فقال : إنَّ الله تعالى قد سمعَ قولَ قومِك لك ، وما ردُّوه عليك ، وقد بعث إليك مَلَكَ الجبال لتأمرَه بما شئتَ فيهم .

فناداني مَلَكُ الجبال وسلَّم عليَّ ثم قال : يا محمد إنَّ الله تعالى قد سمعَ قولَ قومِك لك ، وأنا مَلَك الجبال ، قد بعثني إليك لتأمرَني بأمرك ـ زاد الطبراني : بما شئتَ ؟ إنْ شئتَ أَطبقتُ عليهم الأخشبَين[2] !

فقال ﷺ : « بل أَرجو أَن يَخرجَ من أَصلابهم مَنْ يعبدُ الله ولا يُشرك به شيئاً » .

وروى أبو نعيم في (الدلائل) عن عروة بن الزبير رضي الله عنهما

(١) وهو قرن المنازل ، ميقات أهل نجد ، وبينه وبين مكة يوم وليلة .
(٢) جبلي مكة : أبا قبيس ومقابله قعيقعان .

قال : ومات أبو طالب وازداد من البلاء على رسول الله ﷺ شدّة ، فعمَّد إلى ثَقيف يرجو أن يُؤووه وينصروه ، فوجد ثلاثة نفر منهم سادةَ ثقيف ، وهم إخوة : عبد ياليل بن عمرو ، وخُبيب بن عمرو ، ومسعود بن عمرو ، فعرض عليهم نفسه ﷺ وشكا إليهم البلاء ، وما انتهك قومه منه .

فقال أحدهم : أنا أسرِق ثياب الكعبة إن كان الله بعثك بشيء قطّ .

وقال الآخر : والله لا أكلمك بعد مجلسك هذا كلمةً واحدةً أبداً ، لئن كنتَ رسولاً لأنت أعظم شرفاً وحقاً من أن أكلمك[1] .

وقال الآخر : أيعجِز الله أن يرسل غيرك ؟

وأفشوا ذلك ـ الذي قال لهم ـ في ثقيف ، واجتمعوا يستهزئون برسول الله ﷺ ، وقعدوا له على صفَّين على طريقه ، فأخذوا بأيديهم الحجارة ، فجعل لا يرفع رجله ولا يضعها إلا رضخوها بالحجارة ، وهم في ذلك يستهزئون ويسخرون ! .

فلما خلص من صفَّيْهم وقدماه تسيلان الدماء ، عمَد ﷺ إلى حائط من كرومهم ، فأتى ظل حبلة من الكرم ، فجلس في أصلها مكروباً مُوجَعاً تسيل قدماه الدِّماء .

وذكر ابن إسحاق ـ وروى الطبراني أيضاً ـ عن عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما : لما توفي أبو طالب خرج النبي ﷺ ماشياً إلى الطائف ،

(١) وزاد ابن إسحاق قوله : ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن كلمك .

فدعاهم إلى الإسلام فلم يجيبوه ، فأتى ظلَّ شجرة ـ أي من عنب ـ فصلَّى ركعتين ثم قال :

« اللهمَّ إليك أشكو ضعف قوَّتي ، وقلَّةَ حيلتي ، وهواني[1] على الناس ، يا أرحمَ الراحمين ، أنت أرحمُ الراحمين ، وأنت ربُّ المستضعَفين ، إلى مَنْ تَكِلني ؟ إلى عدوٍّ بعيد يتجهَّمُني[2] ، أم إلى قريبٍ ملَّكتَه أمري ؟ إن لم تكن غضباناً ـ وفي رواية : إن لم تكن ساخطاً ـ وفي رواية : إن لم يكن بك سخط ـ وفي رواية : إن لم يكن بك غضب ـ عليَّ فلا أبالي ، غيرَ أنَّ عافيتَك أوسعُ لي ، أعوذُ بنور وجهك الكريم الذي أضاءتْ له السموات والأرض ، وأشرقتْ له الظُّلمات ، وصَلُح عليه أمرُ الدنيا والآخرة ، أن ينزِلَ بي غضبُك ، أو يحلَّ بي سخطُك ـ وفي رواية : أن يحلَّ عليَّ غضبُك ، أو ينزِلَ عليَّ سخطُك ـ ولك العُتبى[3] حتى ترضى ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلا بك »[4] .

عَدْلُه ﷺ

كان رسولُ الله ﷺ أعدلَ خلقِ الله تعالى في حقوق الله تعالى ، وفي حقوقِ عباد الله تعالى ، قوَّاماً بالقسط ، منتصراً للحق حيث كان

(١) أي : احتقارهم لي واستهانتهم بي .

(٢) أي : يلقاني بالغلظة والوجه الكريه .

(٣) قال في (شرح المواهب) : العتبى ـ بضم العين وألف مقصورة ـ أي : أطلب رضاك .

(٤) انظر ذلك كله في (شرح المواهب) للزرقاني .

الحق ، مع القويِّ أو الضعيف ، مع الغنيِّ أو الفقير ، مع الكبيرِ أو الصغير ، مع الرجل أو المرأة ، مع الحرِّ أو العبد .

روى الشيخان ـ واللفظ للبخاري ـ عن عروة ، أنَّ امرأةً سرقتْ في عهدِ رسول الله ﷺ في غزوة الفتح ، ففزِع قومُها إلى أسامة بن زيد رضي الله عنهما يستشفعونه .

قال عروة : فلما كلَّمه أسامة فيها تلوَّن وجه رسول الله ﷺ ـ أي : من شدة الغضب ـ وقال ـ لأسامة ـ : « أتكلِّمني في حدٍّ من حدود الله تعالى ؟! » .

فقال أسامة : استغفِرْ لي يا رسول الله .

فلما كان العشي قام رسول الله ﷺ خطيباً فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال : « أما بعد :

فإنما هلك الناس ـ أي : قبلكم في الأمم الماضية ـ أنهم إذا سرقَ فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحدّ ! والذي نفسي بيده لو أنَّ فاطمة بنت محمد سرقتْ لقطعتُ يدها » .

ثم أمر رسول الله ﷺ بتلك المرأة فقُطعت يدُها ، فحسنت توبتها بعد ذلك وتزوَّجت .

قالت عائشة رضي الله عنها : كانت تأتي بعد ذلك فأرفع حاجتها إلى رسول الله ﷺ [1] .

(١) وأورده الحافظ المنذري في (الترغيب) مختصراً ، وعزاه للبخاري ومسلم وأصحاب السنن الأربعة ٣ : ٢٤٧

فانظر أيها العاقل في عدله العظيم ، وحكمه القويم ! بل كان عدلُه ﷺ يتّسع لأعدائه ، ويوصل إليهم حقوقَهم المشروعة لهم دون هوادة في ذلك .

فقد روى الإمام أحمد عن عبد الله بن أبي حَدْرَدٍ الأسلمي ، أنه كان ليهوديٍّ عليه أربع دراهم ، فاستعدى عليه رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم .

فقال ﷺ له : « ادفَعْ إليه حقَّه » .

فقال ـ ابن أبي حدرد ـ : لا أجد ـ فأعادها ـ عليه ﷺ ـ ثلاثاً ـ أي : يقول له ادفع إليه حقَّه ـ .

قال : وكان رسول الله ﷺ إذا قال ثلاثاً لم يُراجَع .

فخرج ابن أبي حدرد إلى السوق ، فنزع عمامته فاتَّزر بها ، ودفع إليه البُرْد الذي كان متَّزراً به ، فباعه بأربعة دراهم فدفعها إليه ـ أي : إلى اليهودي ـ .

فمرَّتْ عجوزٌ فسألته ـ أي : سألت ابن أبي حدرد ـ عن حاله ، فأخبرها ـ بحاجته ـ فدفعتْ له بُرداً كان عليها [1] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كان لرجلٍ على رسول الله ﷺ سن ـ أي : دابة ذات سنٍّ ـ من الإبل فجاءه يتقاضاه ـ أي : يطلب قضاء حقه ـ وإنه أغلظ له في القول ، حتى همَّ به بعض القوم ـ أي :

(١) انظر (الجزء الثاني من الإصابة) ترجمة عبد الله بن أبي حدرد .

همَّ بعض الصحابة بضربه لما أغلظ في القول على النبي ﷺ ، وكان أعرابياً ـ كما في رواية ابن ماجه .

فقال ﷺ : « دَعُوه ـ اتركوه ـ فإنَّ لصاحبِ الحقِّ مقالاً » .

ثمَّ قال : « أعطوه » .

فطلبوا سِنه فلم يجدوا إلَّا سِنّاً فوقها ـ أي : أحسن من السِّنِّ التي له ـ فقال ﷺ : أعطوه .

فقال ـ الرجل ـ : أوفيتني أوفاك الله تعالى .

فقال ﷺ : « إنَّ خيركم أحسنُكم قضاءً » .

أخرجه الخمسة إلَّا أبا داود كما في (جامع الأصول) .

ولقد كان ﷺ يُتحاكَم إليه قبل البعثة أيضاً ، لما عرفوه من عدله ﷺ وأمانته ـ قال ابن مسعود رضي الله عنه : (كان يُتحاكم إلى رسول الله ﷺ في الجاهلية قبل الإسلام) .

وروى ابن أبي شيبة عن أبي رافع عن النبي ﷺ أنه قال : « والله إني لأمينٌ في السماء وأمين في الأرض »[1] .

رحمته ﷺ للعالَم

قال الله تعالى : ﴿ وما أرسلناكَ إلَّا رحمةً للعالمين ﴾ .

فهو ﷺ رسول الرحمة الذي أرسله الله تعالى رحمةً لجميع العالمين : رحمة للمؤمنين ، ورحمة للكافرين ، ورحمة للمنافقين ، ورحمة لجميع بني

(١) كذا في (الشفاء وشروحه) .

الإنسان : الرجال والنساء والصبيان ، ورحمة للطير والحيوان ؛ فهو رحمةٌ عامة لجميع خلق الله تعالى .

أما رحمته للمؤمنين : فبهدايتهم إلى سعادة الدنيا والآخرة ، وباهتمامه بما يُصلح لهم أمرَ دينهم ودنياهم ، وتحذيره إياهم مما يفسد عليهم أمر الدنيا والآخرة رأفةً ورحمةً بهم ، كما قال الله تعالى : ﴿ بالمُؤمنينَ رؤُوفٌ رحيم ﴾ ـ والرأفة تقتضي إبعاد كل شر وفساد وضرر ، والرحمة تقتضي جلب كل خير وصلاح ونفع .

ولقد أقامه الله تعالى في رأفته ورحمته للمؤمنين : أنه أولى بهم من أنفسهم ، قال تعالى : ﴿ النَّبيُّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم . . ﴾ الآية ـ يعني أنه ﷺ أرأفُ بهم وأعطفُ عليهم وأنفع لهم من أنفسهم ، ولذلك كان أَحقَّ بهم من كل شيءٍ من أمور الدين والدنيا ، وحكمُه أنفذ عليهم من حكم أنفسهم ، فعليهم أن يبذلوها دونه ، ويجعلوها فداءه ﷺ .

ولذا كان ﷺ يُعلن هذه الأولوية في خُطَبه ومجتمعاته كما تقدَّم في بحث كلامه وخطبه ﷺ .

وكما روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النبي ﷺ قال : « ما من مؤمنٍ إلَّا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة ، اقرؤوا إن شئتم : ﴿ النبيُّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم ﴾ فأيُّما مؤمنٍ تركَ مالاً فلترثْه عصبتُه ما كانوا ، وإن تركَ دَيْناً أَو ضَياعاً أو عيالاً فليأتني ؛ فأنا مولاه » .

وفي رواية أحمد عن جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « أَنا

أولى بكل مؤمن من نفسه ، فأيُّما رجل مات وترك دَيناً فإليَّ ، ومَن ترك مالاً فهو لورثته » .

وأما رحمته للمنافقين : فبالأمان من القتل والسَّبي ، نظراً لظاهر إسلامِهم في الدُّنيا .

وأما رحمتُه للكفار : فبرفع عذاب الاستئصال عنهم في الدنيا ، وذلك أن الأمم السابقة ، كانت إذا أرسل الله تعالى فيهم رسولاً فكذَّبوه وكفروا به جاءهم العذاب فعمَّهم ، كما قصَّ الله تعالى من أخبار قوم : نوحٍ ، وعادٍ ، وثمود ، وقوم لوط ـ وغيرهم ، كيف أحاط بهم العذاب وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون .

وأما كفار هذه الأمة المحمدية : فقد رفع الله عنهم العذاب العام الذي يستأصلهم ، كما استأصل وعمَّ الكفارَ من الأمم السابقة ، وذلك تكرِمة لهذا الرسول الكريم ﷺ الذي أرسله الله تعالى رحمةً للعالمين .

قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿ وما أَرسلناكَ إلاَّ رحمةً للعالمين ﴾ قال : مَنْ آمَن تَمَّتْ له الرحمة في الدُّنيا والآخرة ، ومَنْ لم يؤمن عوفي مما كان يصيبُ الأمم من عاجل الدنيا من العذاب ـ أي : العامِّ ـ من المسخ والخسف والقذف . اهـ[1] .

وأما أخذُ بعض كفار هذه الأمة بالعذاب : فهو واقع لا محالة .

وهذا المعنى ـ وهو أنَّ الله تعالى لا يعذِّبُ كفار هذه الأمة المحمدية

(١) رواه الطبراني والبيهقي في (الدلائل) ، وابن مردويه وغيرهم ، كما في (تفسير) ابن كثير وغيره .

عذاباً عاماً مستأصلاً كالكفَّار قبلهم ـ هذا المعنى هو الذي جرى عليه وفهمه محققو العلماء من قوله تعالى : ﴿ وما كان الله ليعذِّبهم وأنتَ فيهم وما كان الله معذبَهم وهم يستغفرون ﴾ أي : وما كان الله ليعذِّبَهم وأنتَ مرسَلٌ فيهم ، وهذا العذاب المنفيُّ هو العذابُ العامُّ الطامّ .

أما العذابُ الخاصّ ببعضٍ منهم ، أو المرسَل على أطرافٍ منهم ، فهو واقع كما دلَّ على ذلك قولُه تعالى في الآية التالية لتلك الآية : ﴿ وما لهم أن لا يعذبَهم الله وهمْ يصدُّون عن المسجدِ الحرام . . ﴾ الآية ـ وهذا طريقُ الجمع بين الآيتين ، كما نبَّه عليه المحققون .

فهو ﷺ رسول الرحمة ، وهو نبي الرحمة ، كما في (صحيح) مسلم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يسمِّي لنا نفسه أسماءً فقال : « أنا محمد ، وأحمدُ ، والمقفِّي ـ أي : آخر الأنبياء وخاتمهم ـ والحاشر ، ونبي التوبة ، ونبي الرحمة » .

وروى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قيل يا رسول الله : أدع على المشركين .

فقال : « إني لَمْ أُبعَثْ لعّاناً ، وإنما بُعِثْتُ رحمة » .

بل هو ﷺ الرحمةُ المهداة التي أهداها الله تعالى للعالم :

كما روى الطبراني والبيهقي في (الدلائل) عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أنَّ النبيَّ ﷺ قال : « إنما أنا رحمةٌ مُهداة » .

وعند الطبراني : « بُعثتُ رحمةً مُهداة »[1] .

(١) انظر شرح المواهب للزرقاني .

رحمته ﷺ بالأهل والعيال

روى مسلم في (صحيحه) عن عمرو بن سعيد عن أنس رضي الله عنه قال : ما رأيتُ أحداً كان أرحمَ بالعيال من رسول الله ﷺ ، قال : كان إبراهيمُ مسترضعاً له في عوالي المدينة ، فكان ينطلقُ ونحن معه ، فيدخل البيتَ وإنه ليُدَّخَنُ ـ أي : يعلو منه الدخان ـ وكان ظِئْره قَيْناً ، فيأخُذُه ـ أي : فيأخذ النبيُّ ﷺ ابنَه إبراهيم المسترضع ـ فيقبِّلُه ثم يرجع .

قال عمرو : فلمّا توفي إبراهيم قال رسولُ الله ﷺ : « إنَّ إبراهيمَ ابني ، وإنه مات في الثَّدْي ، ـ أي : في سنِّ رضاع الثَّدْي ـ وإنَّ له لَظئرين ـ أي : مرضعتين ـ تُكمِّلان رضاعَه في الجنَّة » أي : يتمّان له رضاعَ سنتين ، فإنه توفي وله ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً . اهـ من شرح النووي .

وفسَّر القيْن في (النهاية) بأنه : الحدَّاد والصائغ .

ومن رحمتِه بأهله ﷺ : أنه كان يعاونهم في الأمور البيتية ، كما تقدَّم أن الأسود قال سألتُ عائشة رضي الله عنها : ما كان النبي ﷺ يصنع في أهِله ؟ .

فقالتْ : (كان في مهنة أهلِه ، فإذا حضرتِ الصَّلاةُ قام إلى الصلاة) .

فما كان ﷺ من جبابرة الرجال ، بل كثيراً ما كان يخدم نفسَه بنفسِه ﷺ :

ففي (مسند) أحمد وغيره عن عائشة رضي الله عنها قالتْ : (كان النبيُّ ﷺ يَخيطُ ثوبَه ، ويخصِف نعلَه ، ويعمل ما يعمل الرجالُ في بيوتهم) .

رحمته ﷺ بالصبيان

روى الشيخان وغيرهما عن أنس رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « إني لأدخلُ في الصلاة أُريد إطالتَها ، فأسمع بكاءَ الصبيِّ فأتجوَّز في صلاتي ، مما أعلم من شدة وَجْد أمه » .

ومن رحمته ﷺ بالصبيان : أنه كان يمسح رؤوسَهم ويُقبلهم :

كما جاء في (الصحيحين) عن عائشةَ رضي الله عنها قالت : قبَّل رسول الله ﷺ الحسن والحسين ابني عليٍّ ، وعنده الأقرع بن حابس التميميُّ .

فقال الأقرع : إنَّ لي عشرةً ما قبَّلتُ منهم أحداً قط ! .

فنظر إليه رسول الله ﷺ ثم قال : « مَنْ لا يَرْحم لا يُرحَم » .

وفي (الصحيحين) عن عائشة رضي الله عنها قالت : جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال : إنكم تقبِّلون الصبيان وما نقبِّلُهم ! .

فقال رسول الله ﷺ : « أوَ أملكُ لك أن نزع الله الرحمةَ من قلبك ؟ ! » .

يعني : أنَّ من كان في قلبه رحمةٌ للصبيان حملته على أن يقبِّلَهم ، ومن نُزعت الرحمةُ من قلبه أمسك عن تقبيلِهم .

وروى الشيخان والترمذي عن البراء رضي الله عنه قال : رأيتُ

رسول الله ﷺ والحسن على عاتقه يقول ﷺ : « اللهمَّ إني أُحبُّه فأحبَّه » .

وروى الترمذي عن أنس رضي الله عنه قال : سئل النبي ﷺ : أيُّ أهلِ بيتك أحبّ إليك ؟ قال ﷺ : « الحسن والحسين » .

وكان يقول لفاطمة عليها السلام : « ادعي لي ابنيَّ » ويضمُّهما إليه رضي الله عنهما .

ومن رحمته بالصبيان وحبِّه لإدخال السرور عليهم : أنه ﷺ كان إذا أُتي بأول ما يدرك من الفاكهة يعطيه لمن يكون في المجلس من الصبيان :

كما روى الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبيَّ ﷺ كان إذا أُتي بباكورة الثمرة ـ أي : أولها ـ وضعها على عينيه ثم على شفتيه وقال : « اللهمَّ كما أريتَنا أوله فأَرِنا آخرَه » ثم يعطيه مَن يكون عنده من الصبيان .

رواه ابن السني عن أبي هريرة ، وقال الحافظ الهيثمي : رواه الطبراني في (الكبير ، والصغير) ورجال الصغير رجال الصحيح . اهـ .

ومن رحمته : دمعُ عينيه ﷺ لفراق ولده إبراهيم رضي الله عنه :

فعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ دخل على ابنه إبراهيم رضي الله عنه ، وهو يجود بنفسِه ـ أي : في حالة الاحتضار ـ فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذرِفان ـ تدمعان ـ .

فقال له عبد الرحمن بن عوف : وأنت يا رسول الله !

فقال : « يا ابن عوف إنها رحمةٌ » ثم أتبعها بأخرى فقال : « إن العين تدمع ، والقلب يحزن ، ولا نقول إلَّا ما يُرضي ربَّنا ، وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون » رواه البخاري ، وروى بعضه مسلم .

وعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما ، أنَّ رسول الله ﷺ رُفِعَ إليه ابن ابنتِه وهو في الموت ، ففاضت عينا رسول الله ﷺ .

فقال له سعد : ما هذا يا رسول الله ! .

قال : « هذه رحمة جعلها الله تعالى في قلوب عباده ، وإنما يرحمُ الله من عباده الرحماءَ » متفق عليه .

ومن رحمته ﷺ : بكاؤه لثقل مرض بعض أصحابه :

كما ورد في (الصحيحين) عن ابن عمر رضي الله عنهما ، أن رسولَ الله ﷺ عاد سعد بن عبَادة ومعه عبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهم ، فبكى رسول الله ﷺ ، فلما رأى القومُ بكاءَ رسول الله ﷺ بَكَوْا ، فقال : « ألا تسمعون ؟ إنَّ الله لا يعذِّب بدمعِ العين ، ولا بحزنِ القلب ، ولكن يعذِّبُ بهذا أو يرحم » وأشار إلى لسانِه .

ومن رحمته ﷺ : بكاؤه لموت صاحب من أصحابه : ومن ذلك ما رواه الترمذي عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قبَّل عثمان بن مظعون وهو ميت ، وهو ﷺ يبكي .

وفي رواية ابن سعد في (الطبقات) عن عائشة رضي الله عنها :

(قبَّل عثمانَ بن مظعون وهو ميت ، قالت : فرأيتُ دموع النبي ﷺ تسيل على خدِّ عثمان) .

وعند ابن الجوزي في كتاب (الوفاء) عن عائشة رضي الله عنها قالت : لمَّا مات عثمان بن مظعون كفَّ النبيُّ ﷺ الثوبَ عن وجهه ، وقبَّل بين عينيه ، ثمَّ بكى طويلًا ، فلمَّا رُفع على السرير قال : « طوبى لك يا عثمان ، لم تلبَسْكَ الدُّنيا ولم تلبَسها » . كذا في (جمع الوسائل) .

وأما رحمته ﷺ بالمساكين والضعفاء : فقد تقدَّم ما رواه البخاري عن أنس رضي الله عنه قال : (إنْ كانت الأمة ـ أي : المملوكة ـ لتأخُذُ بيد رسول الله ﷺ فتنطلق به حيث شاءت) .

وفي رواية أحمد : (فتنطلق به في حاجتها) ـ أي : ليقضي لها حاجتها من شراء طعام أو متاع ونحو ذلك .

وروى النسائي عن ابن أبي أوفى رضي الله عنه : (أن النبي ﷺ كان لا يأنف ـ أي : لا يتكبَّر ـ أن يمشي مع الأرملة والمسكين ، فيقضي لهما الحاجة) .

وعن سهل بن حُنيف رضي الله عنه : (أن النبي ﷺ كان يأتي ضعفاء المسلمين ويزورهم ، ويعودُ مرضاهم ، ويشهدُ جنائزَهم) . رواه أبو يعلى والطبراني والحاكم .

رحمته ﷺ باليتيم

قال الله تعالى : ﴿ فأمّا اليتيمَ فلا تقهرْ ﴾ .

كان ﷺ يُحسنُ إلى اليتامى ، ويبرُّهم ، ويوصي بكفالتهم والإحسانِ إليهم ، وبيَّن الفضائل المرتَّبةَ على ذلك .

روى البخاري وغيره عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال : قال رسولُ الله ﷺ : « أنا وكافِلُ اليتيمِ في الجنَّةِ هكذا » وأشار بالسبَّابة والوسطى وفرَّج بينهما .

وروى ابنُ ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال : « خيرُ بيتٍ من المسلمين بيتٌ فيه يتيمٌ يُحسَنُ إليه ، وشرُّ بيتٍ من المسلمين بيتٌ فيه يتيمٌ يُساءُ إليه » .

وذكر ﷺ فضلَ المرأة التي ماتَ زوجُها ، فحبستْ نفسَها على تربيةِ أولادها ولم تتزوَّج :

ففي (سنن) أبي داود عن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال : « أنا وامرأةٌ سفْعاء الخدَّين[1] كهاتين يوم القيامة ـ الوسطى والسَّبَّابة ـ امرأةٌ آمَتْ من زوجِها ذاتُ منصب وجمال ، حبسَتْ نفسَها على يتاماها حتى بانوا أو ماتوا » .

---

(١) وهي التي تغير لونها إلى الكمودة والسواد من طول الأيمة ، يريد بذلك أنها حبست نفسها على أولادها ولم تتزوج حتى تحتاج إلى الزينة والتصنع للزوج . اهـ كما في (ترغيب) المنذري .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً شكا إلى رسولِ الله ﷺ قسوةَ قلبه .

فقال له ﷺ : « امسحْ رأسَ اليتيم ، وأَطْعم المسكين » رواه أحمد . قال الحافظ المنذري : ورجالُه رجال الصحيح .

وعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « الساعي على الأرملة والمسكين ـ أي : الذي يسعى فيما ينفع الأرملة والمسكين ـ كالمجاهد في سبيل الله ـ وأحسبَه قال : وكالقائم لا يَفتُر ، وكالصائم لا يُفطر » رواه الشيخان .

ورواه ابن ماجه بلفظ : « الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله ، وكالذي يقوم الليل ويصوم النهار » .

رحمته ﷺ بالحيوان

كان ﷺ يوصي بالرحمة بالحيوان ، وينهي صاحبَه أن يُجيعَه أو يُدْئِبه ويتعبَه ، بإدامةِ الحمل عليه ، أو إثقاله ، أو يحسَّه بما فيه نوع من التعذيب له .

روى أبو داود وابن خزيمة في (صحيحه) عن سهل بن الحنظلية رضي الله عنه قال : مَرَّ رسولُ الله ﷺ ببعيرٍ قد لحِقَ ظهرُه ببطنه ـ أي : ضَمُر من شدَّة الجوع ـ فقال ﷺ : « اتقوا اللهَ في هذه البهائم ، فاركبوها صالحةً ، وكلوها صالحَةً » .

وروى الإمام أحمد وأبو داود عن عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما قال : أردفَني رسول الله ﷺ خلفَه ذات يومٍ ، فدخل حائطاً ـ أي :

بستاناً ـ لرجلٍ من الأنصار ، فإذا فيه جمل فلما رأى النبيَّ ﷺ حنَّ ـ الجمل ـ وذرَفَتْ عيناه .

فأتاه رسول الله ﷺ فمسح ذِفْراه ـ موضع الأذنين من مؤخر الرأس ـ فسكت ـ الجمل ـ .

فقال ﷺ : « مَنْ رَبُّ ـ أي : صاحب ـ هذا الجمل ؟ لمن هذا الجمل ؟ » .

فجاء فتى من الأنصار فقال له ﷺ : « أفلا تتقي الله في هذه البهيمةِ التي ملَّكك الله إياها ؟ ! فإنه شكا إليَّ أنك تُجيعُه وتدئبُه » أي : تُتعبه من كثرة العمل عليه واستعماله فوق طاقتِه .

فكان ﷺ ينهى عن إجاعة الحيوان وإتعابه ، إمّا بكثرة العمل عليه ، أو تحميله فوق طاقتِه .

كما كان ﷺ ينهى عن إرهاق الحيوان بإيقافِه وإطالة الجلوس عليه مِن غير ضرورةٍ إلى ذلك :

ففي (مسند) الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ دخل على قومٍ وهم وقوفٌ على دوابّ لهم ورواحل .

فقال لهم : « اركبوها سالمة [1] ودَعُوها سالمة ، ولا تتخذوها كراسيَ

(١) قال العلامة المناوي في معنى سالمة : أي:خالصة عن الكد والاتعاب ، قال : وقال الهيثمي : أحد أسانيد أحمد : رجاله رجال الصحيح غير سهل بن معاذ وثقه ابن حبان وفيه ضعف . اهـ . قال : وقال الذهبي : فيه سهل وفيه لين اهـ ، قلت : ولكنه جاء من طرق متعددة فيقوى ما هنالك .

لأحاديثِكم في الطرق والأسواق ، فربَّ مركوبةٍ خيرٌ من راكبِها ، وأكثرُ ذكراً لله منه » .

وعزاه في (الجامع الصغير) إلى (المسند) وأبي يعلى والطبراني و (مستدرك) الحاكم رامزاً لصحته .

فنهى رسولُ الله ﷺ عن الجلوس فوق ظهور الدوابِّ وهي واقفةٌ للتحدُّث عليها .

قال العلامة المناوي : والمنهيُّ عنه الوقوفُ الطويل لغير حاجة ، فيجوزُ حال القتال ، والوقوف بعرفة ونحو ذلك ، قال : وفيه إشعار بطلب الذكر للراكب ، وقد ذكر أهل الحقيقة أنه يخففُ الثقل عن الدابة . اهـ .

وعن عبد الرحمن بن عمرو السلمي رضي الله عنه أنَّ النبيَّ ﷺ قال : « إن الله يوصيكم بهذه البهائم العُجْم ـ مرتين أو ثلاثاً ـ فإذا سرتمْ عليها فأنزلوها منازلَها » الحديث .

وفي (سنن) النسائي عن عبد الله بن عمرو قال : نهى رسولُ الله ﷺ عن قتل الضِّفدِع وقال : « نَقِيقُها تسبيح »[1] .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « دخلت امرأةٌ النارَ في هرَّةٍ ربطتْها ، فلم تُطعِمْها ولم تدعْهَا تأكلُ من خشاش

(١) وكذلك أورده الحافظ ابن كثير في تفسير قوله تعالى : ﴿ وإن من شيء إلا يسبح بحمده . . ﴾ الآية .

الأرض » رواه البخاري وغيره[1] .

كما وأنه ﷺ نهى عن تسليط الحيوانات بعضها على بعض بالأذى ، وتهييجِها بالإفساد :

ففي (سنن) أبي داود والترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما : نهى رسول الله ﷺ عن التحريش بين البهائم .

رحمته ﷺ بالطيور

كان رسولُ الله ﷺ يحذِّر من أن يَفجعَ الإنسانُ الطيورَ بأولادها ، وذلك من باب الرحمة :

ففي (سنن) أبي داود عن أبي مسعود رضي الله عنه قال : كنا مع رسولِ الله ﷺ في سفرٍ فانطلق لحاجتِه ، فرأينا حُمَّرة[2] معها فرخان ، فأخذنا فرخيها ، فجاءت الحُمَّرة فجعلت تُعرش[3] .

فجاء النبي ﷺ فقال : « مَنْ فجع هذه بولديها ؟ رُدُّوا ولديها إليها » .

ورأى قرية نحل ـ أي : مجتمع نحل ـ قد حرقناها ، فقال : « مَن حرق هذه ؟ » .

(١) كذا في (ترغيب) المنذري قال : وخشاش الأرض : مثلثة الخاء المعجمة وبشينين معجمتين ، هو : حشرات الأرض والعصافير ونحوها .
(٢) طائر صغير كالعصفور .
(٣) قال في (النهاية) مفسراً لهذه الجملة : التعريش أن ترتفع وتظلل بجناحيها على من تحتها . اهـ .

قلنا : نحن .

قال : « إنه لا ينبغي أن يعذِّب بالنار إلا ربُّ النار » .

كما وأنه ﷺ حذَّر من قتل الطير عبثاً ، لا لمنفعة أكل ونحوه :

روى النسائي وابن حبان في (صحيحه) عن الشَّريد رضي الله عنه قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « مَنْ قتل عُصفوراً عجَّ[1] إلى الله يوم القيامة ، يقول : يا ربِّ إنَّ فلاناً قتلني عبثاً ولم يقتلْني منفعةً » .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « ما مِن إنسانٍ يقتلُ عصفوراً فما فوقها بغيرِ حقِّها إلا يسأله الله عنها يومَ القيامة » .

قيل : يا رسول الله وما حقُّها ؟

قال : « حقُّها أن تذبحَها فتأكلَها ولا تقطعَ رأسَها فترميَ به »[2] .

كما وأنه ﷺ أوصى بالرِّفق في ذبحِ الحيوان والإحسان إليه في ذلك :

روى الطبراني وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ رجلاً أضجع شاةً وهو يحدُّ شفرته .

فقال له النبيُّ ﷺ : « أتريدُ أن تُميتَها موتتين ؟ هلاَّ حددتَ شفرتَك قبلَ أن تضجعَها ! »[3] .

---

(١) أي : شكا إلى الله تعالى بصوت عال .

(٢) قال في (الترغيب) : رواه النسائي والحاكم وقال : صحيح الإسناد .

(٣) قال الحافظ المنذري : رواه الطبراني في (الكبير ، والأوسط) واحاكم ـ واللفظ له ـ وقال : صحيح على شرط البخاري .

كما وأنه ﷺ حذَّر من اتخاذ الحيوان وكل ذي روح غَرَضاً ـ أي : هَدَفاً للرمي :

روى الشيخان عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه مرَّ بفتيانٍ من قريش ، قد نصبوا طيراً أو دجاجة يترامَونها ، وقد جعلوا لصاحب الطير كل خاطئة من نبلهم ، فلما رأوا ابن عمر تفرَّقوا .

فقال ابن عمر : من فعل هذا ؟ لعن الله من فعل هذا ، إن رسول الله ﷺ لعن من اتَّخذ شيئاً فيه الروح غَرَضاً .

التدبُّر والتأمل

في قوله تعالى : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾

إن من تدبر قوله تعالى : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ وتفكر في معاني هذه الآية الكريمة يتَّضح له جليًّا أن جميع ما جاءت به الرسالة المحمدية ، وجميعَ ما اشتملت عليه ، من أوامرَ ومناهيَ ، وعبادات ومعاملات ، وآداب وأخلاق ، وحقوق وواجبات ، كل ذلك مبنيٌّ على أساس الرحمة للعباد .

بل وما جاءت به الرسالة المحمدية من العقوبات الشرعية وهي القصاص والحدود والتعزير ! .

كل ذلك إنما هو رحمة للعالمين ، ورحمة للبلاد والعباد ، لأن في ذلك إيقافاً للمفسد عن التوغل في الفساد ، ومنعاً لفساده من أن يستشْري لغيره ، فإن عضو جسم الإنسان إذا فسد فمن الرحمة أن يُبترَ لئلا يستشري الفساد ويتعداه لغيره ، وكذلك فإن المجتمع كلَّه يعتبر من هذه

الناحية كالجسم الواحد في نظر الشرع ، وتفصيل ذلك ليس موضعَه هنا .

ذلك لأن الرسالة المحمدية جاءت بالرحمة وللرحمة ، ولذلك وردت الآية على طريق الحصر ، ليَعلمَ العاقل أن جميع مضامين هذه الرسالة ومشتملاتها ، كل أولئك إنما هو رحمة للعباد في الدنيا والآخرة ، وفيها سعادتهم وصلاحهم ، وفلاحهم ونجاحهم في الدنيا والآخرة ، وأنه لم تأتِ الرسالة المحمدية لسعادة الأخرة وصلاح الآخرة ونجاح الآخرة فحسب ، بل جاءت لسعادة وصلاح وفلاح الدنيا والآخرة معاً .

ولذلك نبه النبي ﷺ العقلاء والفُطناء والحكماء إلى بيان موقفه من ناحية الاسعاد والاصلاح مع العالم ، فذكر مثالاً حسياً ليتضّح الموقف ويبرز في صورة محسوسة .

ففي (مسند) الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما : (أن رسول الله ﷺ أتاه فيما يرى النائم ملكان ، فقعد أحدهما عند رجليه ، والآخر عند رأسه .

فقال الذي عند رجليه للذي عند رأسه : اضربْ مَثَل هذا ومثل أمّته .

فقال : إن مَثَل هذا ومثل أمته كمثل قوم سَفْر[1] انتهوا إلى رأس مفازة[2] فلم يكن معهم من الزّاد ما يقطعون به المفازة ، ولا ما يرجعون

(١) سفر : جمع سافر ، كركب جمع راكب ، وهم القوم المسافرون .
(٢) وصلوا وسط الصحراء الدوية ، وسميت مفازة تفاؤلا بالفوز والنجاة لمن اجتازها .

به ، فبيناهم كذلك إذْ أتاهم رجلٌ في حُلّة حِبَرة[1] ، فقال : أرأيتم إنْ وردتُّ بكم رياضاً مُعْشِبة[2] ، وحياضاً رُواءً أتتبعوني ؟ قالوا : نعم فانطلق بهم فأوردهم رياضاً معشبة ، وحياضاً رُواء ، فأكلوا وشربوا وسمنوا ، فقال لهم : ألم أُلْفِكم[3] على تلك الحال ، فجعلتم لي أنْ أُوردَكم رياضاً معشبة ، وحياضاً رُواء أن تتبعوني ؟ قالوا : بلى ، قال : فإن بين أيديكم رياضاً هي أعشبُ من هذه ، فاتبعوني ، قال : فقامت طائفة قالت : صدق والله ، لنتَّبعنَّه ، وقال طائفة : قد رضينا بهذا ، نُقيم عليه)[4] .

فلقد جاء رسول الله ﷺ برسالة عامة ، كافلة وكافية ووافية بجميع مصالح البشر ، وبما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة .

فالمؤمنون الصادقون أخذوا بجميع مبادىء الرسالة المحمدية المنوطة بأمور الدنيا وبأمور الآخرة ، فنالوا من الله سعادة الدنيا والآخرة .

وغيرُهم أخذوا بمبادىء الرسالة المحمدية التي فيها مصالح الدنيا فحسب ، فنالوا حظهم من سعادة الدنيا ورفاهتها ، وانتظام أمورها ، ولكنهم لم يأخذوا بما فيه صلاح آخرتهم وسعادتهم في الآخرة فما لهم في الآخرة من خلاق .

(١) نوع حسن من الثياب ، والمعنى : أن الرجل الذي خرج عليهم هو من أهل الفضل والكمال ، تلوح عليه آيات الصدق والنصح .
(٢) حدائق وبساتين .
(٣) أي : ألم أجدكم .
(٤) كذا في (مجمع الزوائد) ٨ : ٢٦ وقال : رواه أحمد والطبراني والبزار وإسناده حسن ، وأورده الحافظ ابن كثير في تفسيره آخر سورة التوبة .

هذا ، وإن قوله تعالى : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ يشمل عالم الإنس وعالم الجن وعالم الملائكة وما يتبع ذلك من العوالم .

أما رحمته ﷺ للإنس : فهو ما تقدم من شمول رحمته ﷺ لجميع طبقات الإنس .

وأما رحمته للجن : فكذلك الأمر ، هو في الجن كما في الإنس ، باعتبار أنه ﷺ رسول إلى الجن أيضاً رسالة تكليف ، وقد بلَّغهم وأمرهم ونهاهم ، وبيَّن لهم ـ في عدة مناسبات .

كما أنهم توافدوا عليه واستمعوا إليه ﷺ ـ وتفصيل ذلك مبيَّن في كتابنا (**الإيمان بالملائكة ـ والبحث حول عالم الجن**) فارجع إليه تجد الأدلة على ذلك .

وأما شمول رحمته ﷺ لعالم الملائكة : فهو ما ذهب إليه جماهير العلماء والعرفاء ، وذلك :

١ ـ إما باعتبار أنه ﷺ مرسل إليهم برسالة فيها تكليف لهم بأوامر ونواهي ، كما رجحه كثير من محققي المحدثين والفقهاء[1] .

٢ ـ وإما باعتبار أنه ﷺ مرسَل إليهم رسالة تشريف ، فقد شملهم عموم رحمته ، ونالوا بواسطته علوماً جمة كثيرة ، وأسراراً عظيمة كثيرة ، مما أودع الله تعالى في كتابه الذي أنزل عليه ﷺ والايحاءات النبوية التي أوحاها إليه ، وقد قال الله تعالى : ﴿ كلا إنها تذكرة . فمن شاء ذكره .

(١) انظر (شرح الزرقاني على المواهب) ، و (تفسير) الآلوسي حول الآية ـ وغيرهما .

في صُحُفٍ مكرّمة . مرفوعة مطهرة . بأيدي سَفَرة . كِرَامٍ بررة ﴾ .

والمراد هنا بالسفرة : الملائكةُ عليهم السلام ، فهم يتلون ما أذن الله تعالى لهم به من تلاوة هذا القرآن الكريم ، المكتوب في صحفهم ، ويزدادون بذلك علماً ومعرفة بجلال الله تعالى وعظمته وحكمته .

وفي (الصحيحين) عن عائشة رضي الله عنها : قالت : قال رسول الله ﷺ : « الذي يقرأ القرآن وهو ماهرٌ به ، مع السفرة الكرام البرَرَة ، والذي يقرأ القرآن ، وهو عليه شاق له أجران » .

هذا ، وقد أجملنا الكلام على هذه الآية الكريمة في هذا الموطن ، لأننا سوف نتكلم عليها إن شاء الله بعدُ في الحلقة الثانية من هذا الكتاب ، وهي الحلقة التي يُبحث فيها عن مواقف سيدنا محمد ﷺ مع العالم ، ومن جملة تلك المواقف أنه ﷺ جاء رحمة للعالمين ، فهناك التفصيل إن شاء الله تعالى .

في عظيم حيائه ﷺ

كان رسول الله ﷺ أعظمَ الناس حياء ، لأنه أعظمُهم إيماناً ، وقد قال ﷺ : « الحياء من الإيمان »[1] .

وفي (الصحيحين) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : (كان رسول الله ﷺ أشدَّ حياءً من العذراء في خِدرها) .

(١) تمامه : (والإيمان في الجنة ، والبذاء من الجفاء ، والجفاء في النار) رواه أحمد بـ (رجال الصحيح) والترمذي وابن حبان في (صحيحه) وقال الترمذي : حديث حسن صحيح اهـ (ترغيب) المنذري .